كتاب المدى الثالث

يوليو ٢٠٢٥

أروى عثمان

أيقونة الحرية وذاكرة اليمن الحية

توثيق كتاباتها وإسهاماتها خلال فترة إصدار الصحيفة الورقية (٢٠٠٤ - ٢٠١١)

جميع الحقوق محفوظة لـ «النداء» - ٢٠٢٥

أسم الكتاب: «أروى عبده عثمان: أيقونة الحرية وذاكرة اليمن الحية»
أسم المؤلف: أروى عثمان

الناشر: صحيفة النداء

معلومات الاتصال:
موقعنا على الانترنت: www.alndaa.net
البريد الالكتروني: info@alndaa.net

إعداد وإخراج:
طارق السامعي

شارك في الإعداد:
مروى سمير

النشر الالكتروني:
رياض الأحمدي

تدقيق لغوي:
فائز عبده

الطبعة الأولى (يوليو ٢٠٢٥)
رقم الإيداع في دار الكتب اليمنية ( )

أروى عبده عثمان: أيقونة الحرية وذاكرة اليمن الحية

آمنة النصيري

لم تكن **أروى عبده عثمان** في يوم من الأيام مجرد كاتبة قصة قصيرة، ولا مجرد باحثة في التراث الشعبي، ولا حتى ناشطة مدنية تدافع عن قضايا النساء والأقليات والمهمشين. لقد كانت ولاتزال **ظاهرة إنسانية وثقافية متفردة** في المشهد اليمني، عصية على التصنيف، مترفعة عن القوالب الجاهزة، متجاوزة لمحدودية الأدوار النمطية التي غالباً ما تُلقى

على عاتق المرأة في مجتمعاتنا المحافظة. أروى هي ابنة **الحلم اليمني القديم والباقي بالحرية والعدالة**، وهي تجسيد حي لكل ما يمكن أن يعنيه أن تكون إنساناً صادقاً مع نفسك ومع مجتمعك، حتى في أحلك الظروف وأكثرها تعقيداً. حضورها في حياتنا الثقافية كان بمثابة **شعاع ضوء ينير الدروب القاتمة**، ويثبت أن الكلمة مازالت قادرة على المقاومة، وأن المرأة اليمنية مازالت قادرة على أن تخلق لنفسها حضوراً يليق بتاريخها العريق ومكانتها الأصيلة. هي ليست فقط صوتاً، بل **هي صدى لأجيال** من النساء اليمنيات اللائي حلمن بالتحرر والتعبير عن الذات.

تعود معرفتي بأروى إلى أواخر ثمانينيات القرن الماضي، تلك الفترة التي جمعتنا فيها مقاعد دراسة الفلسفة في كلية الآداب بجامعة صنعاء. كانت تلك السنوات فترة مخاض فكري وثقافي في اليمن، حيث بدأت أصوات جديدة في الظهور، وتتشكل رؤى مختلفة للمستقبل بعد عقود من الركود. ومنذ اللحظة الأولى التي التقينا فيها، أدركت أن أروى لم تكن مثل أية فتاة يمنية عرفناها من قبل. كانت تحمل في عينيها بريق تحدٍّ لا تخطئه العين، وفي روحها **شغفاً عظيمًا بمعرفة الأشياء على حقيقتها**، بعيداً عن الزيف أو التجميل الذي كان يطغى على الخطاب العام. كانت مسكونة بأسئلة كبرى عن الوجود، عن العدالة الاجتماعية، عن المعنى الحقيقي للحياة، أسئلة تتجاوز حدود المنهج الدراسي لتلامس عمق الحياة الإنسانية والوضع المجتمعي. كانت تنظر إلى واقع مجتمعنا بعيون ناقدة لا تعرف المواربة ولا التجميل، تستجوب كل ما هو سائد، وتشكك في كل ما هو مسلم به دون تفكير.

أروى هي ابنة الحلم اليمني القديم والباقي بالحرية والعدالة، وهي تجسيد حي لكل ما يمكن أن يعنيه أن تكون إنساناً صادقاً مع نفسك ومع مجتمعك، حتى في أحلك الظروف وأكثرها تعقيداً. حضورها في حياتنا الثقافية كان بمثابة شعاع ضوء ينير الدروب القاتمة، ويثبت أن الكلمة مازالت قادرة على المقاومة

أروى عبده عثمان: أيقونة الحرية وذاكرة اليمن الحية

في أروقة الجامعة، كانت أروى أكثر من مجرد طالبة مجتهدة، فقد مثلت رمزاً **مختلفاً**، نقطة جذب لكل من يبحث عن الفكر الحر والنقاش الجاد. كانت تحضر النقاشات الفكرية والسياسية بشغف كبير، تستمع بانتباه ثم تدلي برأيها الواضح. كانت تقرأ نصوص الفلاسفة والمفكرين العرب والأوروبيين بنهم لا يهدأ، وتستوعبها بعمق يثير الإعجاب، لتستقي منها رؤى جديدة للعالم. المثير للإعجاب حقًا، هو كيف كانت تقف **بثقة لا تتزعزع** في مواجهة الذكور الذين كانوا يحاولون تقزيم صوت المرأة أو تحجيم حضورها في تلك الأجواء الأكاديمية والاجتماعية التي كانت تهيمن عليها الأصوات الذكورية والجماعات السياسية الملتحفة بعباءة الدين. لم تكن تخشى أن تعبر عن رأيها بصوت عالٍ، حتى لو كانت وحدها في مواجهة الأغلبية الصامتة أو المعارضة. في ذلك الحين، تشكلت لديها ملامح شخصية الفتاة اليمنية **الثائرة، الواعية، المتمردة** على التقاليد البالية والقيم الاجتماعية ذات الجذور المتخلفة التي كانت تكبل الكثير من الطاقات النسائية. كانت أروى، مع ثلة من زميلاتها، نموذجاً حياً لما يمكن أن تكون عليه المرأة اليمنية إذا امتلكت الوعي والمعرفة الحقيقية والإرادة الصلبة. كنا نقضي ساعات طويلة في مكتبة الجامعة، لا نكتفي بقراءة الكتب فحسب، بل نناقشها ونكتب أحلامنا وأوهامنا وحتى مخاوفنا في دفاتر صغيرة، متشاركين رؤانا للمستقبل الذي كنا نحلم به لليمن. حينها كنا ندرك جيداً، ونحن بنات الثورة السبتمبرية والجمهورية، أن **المعرفة هي السلاح الوحيد الذي لا يستطيع أحد أن ينزعه منا، وأننا حين نعرف، نصير كيانات حرة وفاعلة**، حملنا رؤى كانت تتجاوز الشعارات، واعتبرناها **فلسفة حياة** ومبادئ وقيماً نؤمن بها ونعيش من أجل تحقيقها.

حين انتقلت أروى إلى الحياة العملية، لم تترك مبادئها خلفها، بل حملت

لم تكن تخشى أن تعبر عن رأيها بصوت عالٍ، حتى لو كانت وحدها في مواجهة الأغلبية الصامتة أو المعارضة. في ذلك الحين، تشكلت لديها ملامح شخصية الفتاة اليمنية الثائرة، الواعية، المتمردة على التقاليد البالية والقيم الاجتماعية ذات الجذور المتخلفة التي كانت تكبل الكثير من الطاقات النسائية

أروى عبده عثمان: أيقونة الحرية وذاكرة اليمن الحية

معها ذات المبدأ الذي آمنت به في مقاعد الدراسة: أن تكون **منحازة دوماً للبسطاء والمظلومين**. لقد رفضت بشكل قاطع أن تكون مجرد موظفة تؤدي مهامها بشكل بيروقراطي روتيني، واختارت بوعي وإصرار أن **تصطف إلى جانب المهمشين والمنسيين**، أولئك الذين لا صوت لهم في مجتمع يميل غالباً إلى إغفالهم وتجاهل قضاياهم، أو إقصائهم كلية، لقد رأت في دورها العام مسؤولية أخلاقية تتجاوز الوظيفة؛ كانت مهمة إنسانية، تمثلتها في كل نتاجها الأدبي والبحثي منذ ذلك الوقت.

في مقالاتها الجريئة التي كانت تنشر في الصحف والمجلات، وفي ندواتها المضيئة التي كانت تعقد في مختلف المحافل، تحدثت أروى بلسان فصيح عن الطبقات المحرومة، عن الفقراء الذين يعيشون في قاع المدينة يكافحون من أجل البقاء، وعن النساء اللواتي لا يجدن متنفساً لحياتهن المكبلة بالقيود الاجتماعية والاقتصادية. لم تكن تخشى أن تنتقد علناً السياسات الحكومية التي تكرّس الظلم الاجتماعي أو الجماعات المتشددة التي تستغل الدين لإذلال الناس والسيطرة عليهم باسم الفضيلة. فقد كانت ولاتزال ترى في القمع، أيّاً كان مصدره أو شكله، جريمة كبرى في حق الإنسان وكرامته وحقه في الوجود الكريم. لذلك لم تتردد لحظة واحدة في **الدفاع عن حقوق المرأة اليمنية** بكل ما أوتيت من قوة وإصرار وشجاعة لا نظير لها. سجلت لعقود بلا كلل أفكاراً وطروحات تشرح مواقفها من كل القضايا الجوهرية والإشكالات التي يعايشها المجتمع، كما هاجمت المنظومة الحاكمة البائسة وكافة تمظهرات القبح والفشل والتراجع الحياتي للأفراد، وشاركت بفاعلية لا مثيل لها في حملات

مدنية ومظاهرات سلمية ضد تغييب النساء وإقصائهن من الفضاء العام وصنع القرار، مؤكدة على ضرورة مشاركتهن الكاملة في بناء المجتمع.

ولم تكترث أبداً للصدامات أو التهديدات التي طالتها أحياناً من فئات رجعية ومتشددة لم تستسغ صوتها الحر ورؤاها التحررية التي كانت تعتبرها خطراً على المقولات البالية التي كرسوها ومضوا يرهبون بها الأصوات المثقفة، وفي كل أزماتها وخلافاتها احتفظت أروى بابتسامتها المعهودة وعينيها الثابتتين المليئتين بالإيمان والتفاؤل **والثقة بأنها وكل النساء صانعات الحياة وحارساتها.** ولن يمنحن شيئاً لم يكافحن من أجله، لذلك ترجمت قناعاتها هذه على أرض

الواقع. وكثير من مجايليها قد شهدوا مواقف عديدة لها ترسخ كل ما تؤمن به من قيم، حتى وإن بدت صادمةً للبعض، لكنها تدافع عن الحقيقة كما تراها، دون خوف أو تردد أو حسابات شخصية، وهو ما أكسبها التقدير والاحترام الكبيرين اللذين حظيت بهما، إذ تمسكت بتقصي القضايا العادلة وملاحقة الظلم والتجبر والفساد والزيف في كتابات خاطبت فيها بلغة ساخرة كل شرائح وفئات المجتمع اليمني، وقوبلت نتيجة لذلك بهجمات وحملات تشويه شرسة في الصحافة الصفراء ووسائل الإعلام الموجهة، لكنها ظلت واقفة شامخة، تكتب وتعمل كما لو أن لا شيء يمكن أن يهزمها، إيماناً منها بأن **صوت الحق لا يمكن أن يُخمد أبداً**، وأن المعركة من أجل العدالة تستحق كل تضحية.

في القصة القصيرة، وجدت أروى عبده عثمان (الساردة) صوتاً آخر وأداة فنية قوية للتعبير عن قناعاتها الإنسانية والجمالية العميقة. لم تكن القصة مجرد فن بالنسبة لها، **بل كانت وسيلة قوية لالتقاط نبض الحياة**، ورصد التحولات الاجتماعية الدقيقة، وتسليط الضوء على أولئك الذين يعيشون في الظل، أو على هامش الحياة، بعيداً عن الأضواء. كتبت نصوصاً سردية تنبني على حساسية فنية عالية، وعلى رؤية اجتماعية نقدية عميقة مسكونة بتلمس الوجع والتعبير عن الحقائق المؤلمة. شخصياتها دائماً من الهامش: **نساء مسحوقات** يقاومن قسوة الحياة بأجسادهن وأرواحهن، **أطفال مشردون** يحملون أحلاماً أكبر من أجسادهم النحيلة وواقعهم المرير، **عمال بسطاء** يكافحون من أجل لقمة العيش الكريمة في ظروف صعبة، **مهاجرون مكلومون** يحملون في قلوبهم خيبة الغربة ومرارة الابتعاد عن الوطن، في قصصها استطاعت أروى أن تضع يدها على سيرة الوجع اليمني وتراجيديا الحياة في البلد المعذب الفقير وقدرية أهله الحزينة.

في سردياتها تقدم أروى **بورتريهات نفسية واجتماعية جلية لعذابات النساء ومعاناتهن** وهن يواجهن وحدتهن القاسية في محاولة التشبث بكرامتهن، في عالم يبدو كأنه يتآمر على سحقهن وتقييد حرياتهن، بالإضافة إلى نماذج النساء المكافحات في سبيل إنقاذ ما يمكن إنقاذه من أحلام توشك على التلاشي في أوساط تعج بالبؤس وبالرثاثة وبالأزمنة المأزومة، وفي حكاياها لم تظهر أروى الذكور منتصرين أو جلادين، بل إنهم أيضاً صور لحيوات مهزومة، هم أفراد سحقتهم قسوة الظروف وفقدوا المقدرة على الفعل والتغيير، يحملون الكثير من مشاعر الخيبة واليأس والسخط يقتاتون على انتظارات طويلة لغد لا يأتي أبداً.

أسلوب أروى في الكتابة يتسم **بالاقتصاد في اللغة**، فهي لا تسرف في الكلمات، بل تختارها بعناية فائقة لتصنع منها صوراً مكثفة وذات دلالات عميقة، وكأن كل كلمة تحمل وزنًا خاصًا. لديها قدرة فريدة على التقاط تفاصيل صغيرة لكنها ذات دلالات رمزية كبيرة، تكشف عن عوالم كاملة من المعاني والحمولات التي تكمن خلف السطح الظاهر للأحداث. كما تستعين بالمفردات العامية في معالجات فنية يتساوق فيها الفصيح والعامي دون أن تربك القارئ، إذ تحافظ على سلاسة اللغة ووضوح المعنى.

في المنتوج القصصي لأروى عثمان تتراءى اليمن بكل صخبها، بأفرادها رجالاً ونساءً، شيوخاً وأطفالاً، **وهي تعكس وجوهنا الحقيقية**، وتفضح ما نحاول إخفاءه من تناقضاتنا وهشاشتنا البشرية، وتكشف عن الجروح الخفية في المجتمع. قصصها بتعبير أوجز دعوة للتأمل، ولإعادة النظر في مفاهيمنا عن المجتمع والإنسان، وللتعاطف مع أولئك الذين غالبًا ما تُنسى حكاياتهم

ترى أروى أن تراثنا ليس مجرد ماضٍ ساكن نكتفي بتعليقه على الجدران، أو موضوعٍ للتسلية والتزيين، بل هو هوية حية تتجدد كلما أحسسنا بأهميته وتفاعلنا معه بوعي. لذلك، وبجهود ذاتية خالصة، قامت بافتتاح "متحف الموروث الشعبي". لم تنتظر تمويلاً من جهة رسمية، ولم تعتمد على دعم خارجي، بل صنعت المتحف بإرادتها الصلبة، وكأنها تصنع بيتًا لذاكرة اليمن التي رأت أنها تتعرض للتجاهل والنسيان بفعل الإهمال والتحديات التي يواجهها البلد

وتُهمل أصواتهم في ضجيج الحياة، وعن طاقات من الحب والمشاعر التي لا تفلح الكتابة الكتابات اليومية والصحفية في الإفصاح عنها.

لكن الوجه الأعمق والأكثر فرادة وتميزاً في تجربة أروى عبده عثمان، هو **عشقها الكبير لتراث اليمن الشعبي**، وإيمانها المطلق بأهمية الحفاظ عليه كركيزة أساسية للهوية الوطنية والإنسانية. لقد كرست سنوات طويلة من حياتها في البحث الميداني الدؤوب والتوثيق المنهجي، وجابت القرى والمدن النائية في أنحاء اليمن، حاملةً في قلبها همّ الحفاظ على ذاكرة الناس وهويتهم الجمالية من الاندثار في وجه التغيرات السريعة.

ترى أروى أن تراثنا ليس مجرد ماضٍ ساكن نكتفي بتعليقه على الجدران، أو موضوع للتسلية والتزيين، بل هو **هوية حية تتجدد** كلما أحسسنا بأهميته وتفاعلنا معه بوعي. لذلك، وبجهود ذاتية خالصة، قامت **بافتتاح "متحف الموروث الشعبي"**. لم تنتظر تمويلاً من جهة رسمية، ولم تعتمد على دعم خارجي، بل صنعت المتحف بإرادتها الصلبة، وكأنها تصنع بيتاً لذاكرة اليمن التي رأت أنها تتعرض للتجاهل والنسيان بفعل الإهمال والتحديات التي يواجهها البلد. في ذلك المتحف الصغير، جمعت أروى مئات القطع التراثية: أزياء تقليدية متنوعة من مختلف المناطق، أدوات حرفية عتيقة تحكي قصص أيادٍ ماهرة، حُلي فضية وأوانٍ قديمة تعكس ذوقاً فنياً رفيعاً، صور ومخطوطات نادرة توثق لحظات من تاريخ اليمن. كل قطعة منها لا تُعرض كتحفة جامدة، بل تحكي قصة عن جماليات اليمنيين وإبداعاتهم المتجذرة في التاريخ، وعن أسلوب حياتهم الذي تشكل عبر القرون.

في هذا المجال، تميزت أروى **بجرأة موضوعاتها وغزارة ما أنجزته**. لم تكتفِ بتسجيل الظواهر سطحياً كما يفعل كثيرون، بل اقتربت من وجدان الناس، استمعت إلى أصوات المهمشين والمسنين والنساء اللواتي كنّ يختزنّ كنوز الحكايات في صدورهن، وكأنهن مكتبات حية. جمعت الحكايات الشعبية اليمنية بتنوعاتها ولهجاتها الفريدة، وكان لها اهتمام خاص بما روته النساء، لأن هذا الحيز بقي، عبر الأجيال، الأكثر صدقاً والأكثر قدرة على التعبير عن الألم والأمل والتمرد في آن واحد، بعيدًا عن التدوين الرسمي. وثّقت أروى حكايات الحب التي صاغتها المخيلة الشعبية لتخفف من قسوة الواقع وتضيء شعلة الأمل، وسرديات الأبطال الشعبيين الذين تحدوا الظلم وتحولوا إلى رموز خالدة للمقاومة والإقدام، كما جمعت نصوصاً غريبة تنتمي إلى ما يُعرف بالعوالم الفانتازية في المخيال الشعبي اليمني، مثل حكايات الجن والعفاريت والمخلوقات الأسطورية. كانت ترى في هذه العوالم انعكاساً لاحتياجات البشر للتعبير عن قلقهم الوجودي ومخاوفهم وآمالهم، فهي جزء أصيل من النسيج الثقافي للمجتمع.

ومن إنجازاتها اللافتة أيضاً توثيق **الأغاني الشعبية** في مختلف أنحاء اليمن، إذ عملت في مشروع طموح لرصد أغاني الأعراس، وأغاني الفلاحين والعمال، وأغاني الأطفال، والأناشيد الدينية المتوارثة، وأغاني النساء، والأهازيج القبلية، وأناشيد الحجيج. تميزت هذه الأغاني بتنوعها الكبير ولهجاتها المتعددة من صنعاء إلى تهامة، ومن حضرموت إلى صعدة. وقد رأت أروى في هذه النصوص الغنائية تعبيراً أصيلاً عن جماليات وذائقة الشعب اليمني وثراء وجدانه الجمعي، وكانت تؤكد على أن اللحن والكلمة يحملان في طياتهما تاريخاً طويلاً من المشاعر والتجارب الإنسانية المشتركة. كما لم تقف أروى عند

أروى عبده عثمان: أيقونة الحرية وذاكرة اليمن الحية

حدود الجمع والتوثيق، بل أنجزت عدداً من **الدراسات النقدية والفكرية الرصينة** التي اتجهت نحو تحليل الرموز والمفاهيم الكامنة في المأثور الشعبي. اشتغلت على تفكيك الدلالات الرمزية للحكايات والأمثال والأغاني، وأوضحت كيف تكشف هذه النصوص عن رؤية الناس البسطاء للعالم، عن فلسفتهم المتأصلة في الحياة. في كتاباتها، حللت أروى العلاقة بين الرمزية الشعبية وإسقاطاتها على قضايا وجودية عميقة مثل الموت والحب والخوف والسلطة. كانت تقول إن المأثور الشعبي هو **السيرة الحقيقية للناس**، بكل ما فيه من ألم وجمال وحكمة، وإن فهمه لا يكون إلا بالإنصات العميق إلى ما تقوله الرموز والدلالات الضمنية التي تختزنها الحكايات والأغاني والأمثال. لقد أعادت أروى الاعتبار لهذا الإرث العظيم، ونجحت هي وقلة من الباحثين في أن يعاد التفكير في معناه وأهميته كجزء حي ومتجدد من هويتنا الثقافية والإنسانية. كان مشروعها في التراث مشروعاً للحياة، للحرية، للانتصار على النسيان في زمن تتلاطم فيه أمواج التغيير والعولمة، وتهدد بمحو الأصالة والخصوصي.

لم يتوقف تأثير أروى عبده عثمان عند حدود اليمن الجغرافية، بل امتد ليشمل الفضاء العربي والدولي. فقد مثلت بلدها في العديد من المحافل العربية والدولية، وشاركت بفعالية في مؤتمرات أدبية وفكرية مرموقة، وقدمت أوراق عمل بحثية قيمة، وألقت محاضرات مؤثرة عن قضايا المرأة والتراث والثقافة الشعبية. كتاباتها تُرجمت إلى لغات أخرى، مما أتاح لجمهور أوسع التعرف على فكرها، ومقالاتها النقدية والفكرية نشرت في كبريات الصحف والمجلات العربية، مما ساهم في تعريف الجمهور الأوسع بفكرها ورؤاها الجريئة والمستنيرة، بالإضافة إلى عرض مخزونها الهائل من الصور الفوتوغرافية التي التقطتها في رحلاتها وهي تجوب المدن والقرى، علاوة على شغفها بالتقاط بورتريهات

الناس في شوارع صنعاء، والتي تمثل حالة ثرية لتاريخ بصري يحكي تنويعات الملامح اليمنية وما تحمله من قيم وجدانية تنضح بها الصور، جدير بالذكر أن أروى قد أقامت أكثر من معرض لهذه الوجوه داخل وخارج اليمن.

كانت دائماً وفية لصوتها الإنساني العميق الذي ينبع من إيمانها بالعدالة والكرامة الإنسانية، فلم تتورط في الشعارات الفارغة أو في المجاملات الدبلوماسية المعتادة التي غالباً ما تخفي الحقائق. كانت صادقة حد القسوة أحياناً في طرح آرائها ومواجهة التحديات، لكنها كانت دائماً محبة، وراغبة في أن ترى وطنها أفضل وأجمل وأكثر إشراقًا، وأن ينهض اليمن من كبوته. حضورها كان له تأثير ملموس في إثراء النقاشات الثقافية والفكرية على المستويين الإقليمي والدولي، وفي تقديم صورة مشرقة ومختلفة عن المرأة اليمنية المثقفة والفاعلة، التي لا ترضخ للقيود ولا تخشى التعبير عن رأيها، وتسهم بفاعلية في بناء مجتمعها. لقد كانت خير سفير لليمن وثقافته الغنية.

> بالنسبة لي، تبقى أروى قبل كل شيء **صديقة عمر، ورفيقة درب لا تُنسى**. هي تلك الفتاة التي تقاسمت معها الكتب والأحلام، والقلق والمساءات الطويلة في الجامعة وخارجها. معها عرفت أن الصداقة الحقيقية هي التي تمنحك فرصة أن تكون نفسك بلا خوف أو تصنع، أن تشارك أعمق أفكارك ومشاعرك دون تردد، وأن تجد من يفهمك ويحتويك.

أروى كانت دائماً حاضرة في حياتي كأخت وصديقة وفية، ومرآة أرى فيها ذاتي بوضوح وصدق. حتى في أشد لحظات انكسارها، تبتسم ابتسامتها المعهودة وتدمع في ذات الوقت، آمنا بأن **الطريق طويل لكنه يستحق**، ولهذا مضينا قدماً، تجاوزنا معاً مصائد الزمن وصدامات الأفكار المختلفة، وتحديات

الحياة التي لا تنتهي، وكانت دائماً تلك الإنسانة التي تجعلك تؤمن بأن في العالم ما يستحق أن نحلم من أجله، وأن نكافح لأجله، وأن نجد ما نضيء به الظلام، مهما اشتدت العتمة.

أخيراً، أود القول بأني وجدت صعوبة بالغة في الكتابة عن أروى عبده عثمان الباحثة والقاصة البارزة، وأروى الصديقة، فهنا يستعصي الفصل بين الاثنتين، لذا آمل أن يغفر لي القارئ في هذه المقدمة هذا الخلط الذي لم أجد منه فكاكاً.

ستظل أروى **ظاهرة يمنية فريدة**، لا يمكن أن يطويها النسيان، وستبقى علامة فارقة في مسيرة المرأة اليمنية، وفي مسيرة الأدب والثقافة في هذا البلد الذي قدمت له الكثير من جهدها وفكرها وروحها. كلما كتبت عنها، أشعر أنني مقصرة، وأن الكلمات تعجز عن الإحاطة بمدى تأثيرها وعمق شخصيتها وتفردها. لأن أروى ليست مجرد سيرة يمكن تلخيصها في بضعة سطور، ولا تجربة يمكن أن نحيط بها كلها في نص واحد. هي حكاية متجددة، روح متلألئة، ومصدر إلهام لا ينضب.

سلام عليكِ يا أروى، حيثما أنت، ومهما كانت الظروف. سلام على قلبك الكبير الذي احتضن قضايا الناس وآلامهم وآمالهم، وعلى روحك العنيدة، سلام على كل ما أحببته ودافعت عنه من قيم الحرية والعدالة والجمال، وكل ما أعطيتِه بسخاء لوطنك وشعبك دون انتظار مقابل. سلام عليكِ صديقتي الجميلة، وظلك المضيء الذي سيظل يرافقنا في عتماتنا الطويلة، يذكرنا دائمًا بأن الحلم ممكن، وأن المقاومة تستمر، وأن الأمل لا يموت طالما هناك أرواح مثل روحك الطاهرة.

للمرأة الكويتية.. صباح البرتقال

أروى عـثـمـــــان

8
حضرموت والتنمية
للمرأة الكويتية.. صباح البرتقال
أسود وأبيض

إذا ما أخذنا حدث الانتخابات وترشيح المرأة في الكويت على أساس ثنائية الانتصار والهزيمة فسوف نقول: مساكين النساء، ألحقت بهن شر هزيمة.. لكن مقاييس القراءة الفكرية تقول بغير ذلك، إذ لم تكن هنالك هزيمة قط إلا في نطاق ما هو متعارف عليه في التفكير السائر و"جووووول" في مرمى الملعب.. قراءة سطحية بهذه الطريقة ستكون مجحفة.

في بلادنا العربية حيث القبيلة الوجه الآخر للسلفية الإسلامية، وجه آخر لتراث وتقاليد وأعراف... إلخ، فالأصل الكل هو ذلك الواحد.

إنها ثقافة صخرية صحراوية، محملة بكل أنواع الرياح، من خماسين، إلى رياح الفالج، إلى ما تذروه العقول المتحجرة، لتمحو كل ما هو مغاير، وتدوس على كل من ليس في حفرتهم، ثقافة تتباهى بالفحولة "و«ما مره شخت من طاقة" وأن مقياس تصنيف البشر بمكيال الأعضاء وتتويجها إما بالمقدس أو المدنس».

وكلما نحا المجتمع من أغلال القبيلة قليلاً سُحب وجُرجر بأغلال أصدأ وأثقل، وأعنت.. أغلال تارة ترهبه باسم الدين، وتارة أخرى باسم الخصوصية والمحافظة والتقليدية والهوية... إلخ. وإن لاحت حداثة حقيقية من مكان ما فإنها تسحب من نخرها، وتشن عليها معارك قتالية شرسة من كل الجهات والجبهات، الظاهرة والخفية، وتخرج منها محطمة، مشوهة، لتترك المجال مسرحاً مفتوحاً بانتصارها على من يهدد وجودها، فهي لا توجد إلا في كنف

الظـل، فـي الكهف، في الماضوية، في حضرة الدم والاجتـرار.. وهذا ما حدث للمرأة الكويتية المتطلعة إلـى حيـاة مدنيـة في إطار المشـاركة، إلى حياة كريمـة تتنفس بوجود الآخر، لا تنفيه وتكدسـه تحت مرابع النفايات.

فالمـرأة الكويتيـة الجديـدة أول مـا قالـت يا فتـاح يا عليـم، كانت لم تدلـف بعد عتبـة التغيير، لم تتـوش بعـد بلـون البرتقال حتى هبت فـي وجهها كائنات ما بعـد الخرافة مجنـزرة بالقبيلة والدين كـ(الطبطبائية) التي جندت حتى الجدران والهواء والأشجار والأحجار، وليس فقط الشباب والنساء، ليرفعوا إرثها المقدس: "حقوق المرأة بيتها".

لكـن لم تسـتكن المـرأة الكويتيـة وخصوصاً الناشـطات منهن وقيـادات المجتمع المدني وأسـاتذة الجامعـات.. الـخ، ليواصلـن صراعهـن المرير مع جلاميـد صخور الثقافة الإسـلام- قبليـة، فأخرجن حقوقهـن إلـى الشـارع: الاعتصام، التظاهر، الكتابة، كل أدوات توصيل الرأي السـلمي اسـتخدمنها، وكلما رتقن شيئاً من هنا، كان ثمة من يثقب في مكان آخر، وإن سددن ريحاً حارقة من باب، فتح عليهن ألف باب من أبوابهم القاتلة.

إنهم سلالة عنقودية. كل عنقود مفخخ بمليون فتوى وفتوى.

لم تيأس المرأة الكويتية، وكلما سقط عنقود ودمر معماراً صغيراً بنته المرأة، استأنفت تأسيسه وبنـت وحضنـت ونمّت رغم ضراوة القوى المستشرسـة التي لا تجيد غير لغـة واحدة: لغة الهدم لـكل مـن، ومـا يقف في مواجهة تركتهم المتغولة في المدرسـة، المسـجد، غرف النـوم، الإعلام وفي الأحلام.

إنه الجلمود العتي الذي حطه السيل من عل، ومازال جاثما على رؤوسنا عبر القرون.

لـم يكتف الطبطبائيون بإشـهار سـيف الفتـوى والتلويح "بالمـارد الديني الأخلاقـي القائم على التقاليـد والعرف" حتى وإن كان عميداً لكلية الشـريعة، يسـبق اسـمه حرف الـدال فقد برز كحارس ومجاهـد جلمـودي.. إنهم أوثان ليـس إلا.. وإن حاربوا الأصنام، فإنما ليكونـوا أصناماً ناطقة: "لا يجـوز للمـرأة أن تصوت إلا بـإذن زوجها"، بل يضيف: إذا صوتت المرأة عكـس ما يريده الزوج يقع الطلاق.. اسـتخدم الدين، واسـتخدم سـلاح التلويح بانهيار ودمار الأسـر، وتمزقها.. بعد ذلك ماذا سـيبقى لامرأة ترى أن أسـرتها كل حياتها، ولذا كان تصويت النسـاء للذكور وأولي الأمر من: زوج وأب وأخ وابن.

لم يكتفوا بذلك بل جندوا جلاميد الشـباب (الهتيفة) "حقوق المرأة بيتها، ولا لحقوق المرأة" كفَّروا، واشـتغلوا على طبخ وتفصيل التهم والتشـهير والقذف والتهديد بالقتل كما حدث للمرشحة "عائشة الرشـيد" وتحـت هـذا الغطاء جندوا النسـاء والشـجر والحجر ليحصـدوا الأصوات لحسـاب الإرث السياسي القبيلي الديني، ولسحق أي صوت يغرد خارج سرب ثقافة الجلمود.

ومـع ذلـك لـم تيأس المـرأة الكويتية، اسـتخدمت كل شـيء، هزمت بمقاييسـهم، لكـن يكفيها أنها استنشـقت رائحة الحرية، ذاقت طعم البرتقال لأول مرة، أقلقت راحة بال حراس التركة إسـلام- قبلية

– سياسية الجاثمة على الأنفاس من آلاف السنين.

ألا يعد هذا انتصاراً.. هذه المرأة التي لم تستقو بأجندة الفحول "الطحاطيح"!! بقدر ما استقوت بالعقل، بالفكر، بالمدنية، بالنضال السلمي.

ربما كان ذلك، ليس شيئاً بمقاييس أدوات الفكر العربي المهزوم والمأزوم، ولكنه انتصار كبير بمقاييس الإنسانية، وبأفق صباح البرتقال.

فتحية للمرأة الكويتية الظافرة بحقها، والتي دعتنا لمشاركتها تذوق البرتقال.

فكيف تشوفووووووو؟

● «النداء»، العدد ٦٢، الأربعاء ٥ يوليو ٢٠٠٦

«كتن» للاستقواء على الداخل

أروى عثمان

8

لماذا يكرهوننا؟!

رئيس قديم وشعارات أقدم

«كتن» للاستقواء على الداخل

كنت قد بطلت المشاكسة في الصحف وقلت يا بنت الناس، اكتفي بملاحقتك للعجائز والدردشة معهم حول الزوامل، والمهاجل والتقاليد، إلى أن أتى ذلك اليوم الذي لا يشبهه أحد.. شيئان جعلاني أقطع اعتزالي الكتابة: انتخابات المرأة الكويتية التي غمرتني بالفرح والانتعاش والنشوة، و"منظمة مناهضة الاستقواء بالخارج" التي طيرت تلك النشوة، ومرغتها بالحضيض.

قلت إن شاء الله ما بقى "عُجازي"، وليذهب التراث وإلى غير رجعة. أمام هذه الأشياء التي تراها وتقصف عمرك في اليوم ألف مرة.. إنه عالم من نوادر ما بعد اللامعقول التي تحفل بها بلادنا.. وفي الألفية الثالثة، للأسف.

والحكاية: كنت ماشية بأمان الله أوصل ابنتي إلى مدرسة تزاول أنشطة صيفية، إلا: "وخير اللهم اجعله خير" لمحت لافتة دوختني، وهي "منظمة مناهضة الاستقواء بالخارج"! فركت بصري وبصيرتي، استعذت من شياطين الجن والإنس.. بسملت وحوقلت، مافيش فائدة، قرأت المعوذتين وآية الكرسي، وكنت سأبدأ بتلاوة سورة ياسين، حتى تزيل عني الغمة، لكني التجمت وأحسست أن عقلي طاقة فراغ.

قلت يا بنت الناس ربما أصبت بحمى، أو مس، فحصلت على هذيان أبو استقواء، قلت لمار في الطريق: لو سمحت ممكن تقرأ لي هذه اللافتة، بقراءته أدركت أنه لا يوجد غير حمى وهذيان هذه

المنظمة المستقوية بالخرافة والفجيعة والفضيحة.

للأمانة جرعتني المنظمة فجيعة مستقوية لا توصف مثل العمل/ السحر الذي يرمى إلى بئر عميقة، ولا يمكن معالجته حتى لو اجتمعوا كل "الموسمين" والمشعوذين، ولذا لن تجدي التعاويذ، ولا الحروز، حتى "قطر الحديد" فائدته ستنتكس أمام طاقية الاستقواء.

كنت أخبر نفسي أنه ممكن يأتي يوم ويستوعب المواطن أية منظمة مفارقة للعقل، وبأي منطق كان، كأن يستوعب مثلاً: منظمة لجلب الكُتن، ومنظمة أُخرى لدحر الكُتن (وقد سمعنا عن عودة حميدة لجحافل الكُتن)، منظمة الاستقواء بالبلسن لرم العظام، ومنظمة مناهضة للبلسن لتكسير العظام مثلاً، منظمة "برع" بلاحدود، منظمة كيزان بلا أذون، كله ممكن بلعه بسهولة وحتى بدون ماء.. لكن هل يعقل يا جماعة الخير أن يكون هناك كائن، جني أو إنسي، أو حتى دودة، يفكر بمثل هذا التفكير ويعمل منظمة تحمل اسم "منظمة مناهضة الاستقواء بالخارج" طلعت "الخُبارة" أنه لا إنسي ولا جني، وإنما واحد/ جماعة كانت "الدكية" ثقيلة حبتين كونها دكية مستقوية -ما شاء الله- ثم كانت علفة/ القات من طراز (استقوائي) ١٠٠٪. ولكُم أن تتصوروا مشهد ما بعد الدكية، أكيد حلَّق عليهم الدكاك، و"قحصصة" الأظافر، ونتف شعر الدقن والرأس، و" قرططة" الشفائف، وعجن النخر، ومحتويات الوجه الباقية، أو بالأحرى المتبقية منها، وكانوا قد استنفدوا عد القُصع والجدران والبلاط.. لكن مافيش فائدة.. وبجانب هذه العمليات -أي ما بعد الدكية- انطفأت الكهرباء لأن أفكاراً خارقة استقوائية لا يمكن أن تأتي إلا والكهرباء طافية، وإن كنت أظن أن الكهرباء لا تنطفئ عند عباقرة ثقافة (المناهضات). بعد عمليات المخاض ولدت المعجزة الألفية إلى جانب معجزاتنا التي لا تعد ولا تحصى، ولدت المنظمة المناهضة للاستقواء بالخارج.

لقد خرجت هذه الفكرة من بطن القبيلة، من رحم العصبية، وثنائية نحن / وهم، فالقبيلة بعصبيتها المنغلقة، وثنائيتها المستقوية المركبة، تجعل من نفسها المحور والمركز لكل الناس. ولننظر من واقع الحياة اليومية: الخارج والمارق على القانون ملاذه القبيلة يستقوي بحبائلها، فتمنحه صكوك الأمان، ولا ننسى الأقليات المهمشة دينياً واجتماعياً يستقوي وجودها المهشم ومواطنتها الناقصة بالقبيلة.

هكذا يكون الاستقواء الداخلي بالقبيلة حلالاً، ومدبوغاً ومذبوحاً "على الطريقة الإسلامية" وعلى العكس من ذلك يكون الاستقواء بالخارج حراماً فتنصب له مشانق الحدود، بالوزن والمسطرة كخائن/ ماسوني، وأبسط تهمة ستكون الخيانة (لله والوطن والثورة والديمقراطية والحرية). إنها فكرة لا إنسانية تستقوي بالدم، وناطقة بلسان عصور الانحطاط الذي يشهده تاريخنا يومياً.

نحن نريد منظمة لتفكيك الاستقواء بالداخل القبيلة والمشيخة، منظمة ضد الاستقواء بالمؤسسة العسكرية على المواطن وضد المؤسسة الدينية التي كبلتنا بأغلال من المحرمات الجديدة التي ترصد أنفاسنا وضد المؤسسة التعليمية الملغومة بمناهج تدمر الإنسان ولا تعليه درجة واحدة تحت الصفر، منظمة ضد قبائل ومليشيات المشيخة، ضد ثقافة السماطة والجنبية وأطنان القات والرصاص والمرازم والهجر والأوالي والبوازيك المعتلية الأكتاف، وقبلها، معتلية العقول، ضد المؤسسة الزراعية والمائية

التـي تسـتبيح حياتنا بجملة الأمـراض الفتاكة، منظمة ضد عمليات تخريـب وتهديم المجتمع المدني وحشره في بطون أعراف المشيخة والقبيلة.

أمـا الاسـتقواء بالخـارج فـي هذا القـرن فلا تسـتطيع أن تمنعه بأي حـال من الأحـوال حتى ولو اجتمعت تلك المؤسسـات؛ فهناك حداثة ثورة الاتصالات والمعلومات تحصي أدق ما يحدث في الكون، أجهزة ترصد عدد اللُّقم، وكم دست عصيد طلع، وكم مقلى سلتة نزل، وكم تنك بلس خسع... إلخ؟!

فكيـف "تشـتي تأكل كبشـك، وتشـتي كبشـك يمشـي"؟ وأنت تسـتورد أكلهـم وشـربهم وعلاجهم ومنتجاتهـم، حتى المدكى و"مناخش" الأسـنان. تسـتقوي أيهـا المناهـض بتكنولوجياتهم، من خرقك الداخلية إلى ربطة العنق والموبايل وسيارة أحدث موديل، فما هو الاستقواء إذن بالضبط؟

أخيراً: أسألتكم بالله بأيش من قات خزنتم؟ وما هي نوعية "الدكية" التي جعلتكم تتفتقون مناهضة وتخبزون استقواء حاراً من هذا النوع؟

وإلا كيف تشوفووووو؟!

● «النداء»، العدد ٦٣، الأربعاء ١٢ يوليو ٢٠٠٦

دعـــــوة إلـــــى الـــقـــفـــز...

أروى عـثـمـــــان

دعوة إلى القفز..
حرب مفتوحة.. حول الناس والعيوان
هل يكون مجلس (النقاد) فضائي؟

منـذ أن كنـت جنينـاً في بطن أمي وأنا أسـمع النـاس يقولون لها، لا تقفزي، فالقفزة سـتهبط بالجنين إلى أسـفل البطن، وبذا سـتلدين بنتـاً، وتعرفين مدى (البوار) الـذي يلحق المرء عندما تخلـق له بنـت.. وعندما وعيت الدنيا كانـت أمي لا تكف عن نصحي بأن أمشـي راسخة، ورأسي بين أقدامي، وتحذرني من القفز، بل وجندت من جيراني الذكور عيونا تترصدني إذا ما لعبت لعبة (نط الحبل) أو أي لعبة ترفع رأسي من بـين أقدامي، لكي تحظى أمي وعائلتـي بدعوة (رحمة اللـه) ويتجنبـوا (لعنة اللـه). بذا تعمق فـي داخلي الهلع من أية قفزة يمكن أن تؤدي إلى فقدان شرفي، وشرف العائلة المربوط بقفزة!!

وبرغم موت أمي، إلا أن عيون حراس، وحماة اللاقفز، سـتظل منغرسـة تلاحقنـي إلى قبري، خوفـاً -لا سـمح اللـه- مـن أن تتحـرك جثتي، فتعنـد، وتقوم بقفزة خارج القبر، فأواصل تمريغ شرف عائلتي في الحضيض حية وميتة.

في حياتنا اليومية، كثيراً ما نسمع هذه الجملة التحذيرية – طبعاً – يسـبقها تقطيـب الجبين، و(عصـورة) الرأس، ثم دقتين قويتـين على الطاولة:
"لا تقفـزوا على الواقـع"، "خلونا نكون واقعيين، وبطلوا قفز على الواقع". فرئيس جمهوريتنا لا يخلو خطابه من هذه اللازمة، ويصور أي مطلب مهما صغر بأنه قفز على الواقع، إلى المعارضة التي قفزتنا علـى الواقـع بيد في مرحلـة تاريخية، ومنعت القفـزة الثانية باليد الأخرى، ناهيك عن إمام المسـجد،

الحارس العنيد والعتيد لأي كائن يفكر بأن يقفز، فينقض عليه مجنزراً بالآخرة، وبأروقة جهنم وبئس المصير.

أما مدرس المدرسة والجامعة المتوج بوقار المعلم الأعظم صاحب الخبرة والعلوم الدفاقة، فأي سؤال من طالب يجيبه بنصائح أمي: "يا بني لا تقفز على الواقع، فعقب كل قفزة تنكسر رقبة".

وإذا أتينا إلى حمم الإذاعة والتليفزيون، والصحف فيكادون لا ينامون أو يصحون إلا على تمائم ضد القفز، فيهرقون، ويسفحون الاستشهادات تلو الاستشهادات من بطون التاريخ الهزيل والمتقهقر لمغامرين قفزوا فقادوا بقفزتهم العالم إلى الدمار.

من يتصفح أجندتنا الثقافية من تربوية، سياسية، دينية يراها ملغومة مركبة بثقافة الجزع والخوف ومشبعة بتعابير هلعة عن مصير من يقفز ومستقوية بأولئك الذين تتدلى رؤوسهم بين أقدامهم منثورة بمحاذيرها الهستيرية لأي كائنٍ إنسي أو جني، أو حتى قملة لو تجرأت وقفزت في غفلة من أمرها من مقدمة الرأس إلى خلفه مثلاً.. فيتناسل هلعهم المكرور من أن المجاعة، وانعدام الحريات، واللا أمن، والتفسخ الثقافي والانهيار الأخلاقي ووو... إلخ سببه القفز على الواقع الذي يأتي بكل هذه الأوبئة. فالقفزة الدينية تحوّل القافز إلى مرتد، والقفزة العلمية، تحول العالم إلى مختل، والقفزة السياسية تحول السياسي إلى مغامر/ خائن/ لا وطني.. متقفز على ثوابت الأمة (الله/ الوطن/ الثورة/ الوحدة).

تحاول هذه الأجندة أن تجعلنا مجتمعات خلقت لا لتقفز، بل لتمشي بتثاؤب وتكاسل مثل الدجاج الممطور، أو الكائنات اللافقارية، الطحلبية التي ترتضي العيش داخل الأحراش والخزق والحفر. لذا فنخاعنا الشوكي ثابت ومتجمد ومفتقد وظيفته منذ القفزة، أول قفزة للإنسان العربي.

لم تكتف هذه الأجندة بلي قوانين الطبيعة وتحويلنا إلى كائنات لا فقارية، بل وجعلتنا كائنات لافقارية لا تتنفس، مكتومة، مسمومة.

فمن هو هذا الواقع الذي سلبنا عظامنا، وقتل لذة القفز فينا؟ من هو هذا الواقع الذي يتلذذ بتحويلنا إلى أشباه كائنات؟ ما كنه هذا الواقع بالضبط؟

من أين أتت هذه الثقافة اللافقارية، ثقافة الطحالب والطفيليات لتقول للإنسان اليمني المتربع على قمم الجبال، والذي لا يمكنه الوصول إلى مسكنه إلا بعد أن يكون قد قطع الجبال والمنحدرات بالقفز في ظل وعورة الطرق.. فكيف يكبلونه ويقيدونه بثقافة اللاقفز التي لا يعرفها، ولا يمكن أن تتعايش معه، فهي غريبة وشاذة عن طبيعته؟

والآن بما أني خائنة ومرتدة على ثقافة اللاقفز، باعتباري من الكائنات المتقفزة إلى حد انقطاع النفس... ماذا لو قفزت وقلت لأختنا في السواد أو بالأحرى أختنا في الشرشف التي تقدمت بكامل قواها الشرشفية (العقلية)/ الفحمية المرشحة لرئاسة الجمهورية، بالله عليكِ هل نحن ناقصون شرشفة؟ ألا يكفي غرق مجتمعنا في الشرشفة العقلية والنفسية والجسدية؟ ألم تكفنا شرشفة الديمقراطية والحرية وشرشفة الفن والموسيقى؟ بالله عليكِ، كيف ستقابلين خلق الله وتحاوريهم

وأنت قد حذفت كينونتك، وجعلتها مكللة بالعورات، وما تبقى من جسدك سوى خزقتين لا معتين، يقال عنهن، والله أعلم، (عينان). ماذا أنت فاعلة إذا ما سلم عليك كائن لافقاري من الخارج ماذا ستقولين له، وأنت تعتبرين يدك عورة، والدم الذي يجري في عروقها مدنس بالخطيئة؟ فكم يكفيكِ من (ماء الحياة) الذي يهرق في أوردة حكاياتنا الشعبية ليبعد عنك شبح الخطيئة، فيما لو لمسك هذا الكائن اللافقاري الأجنبي؟

متي ستكف هذه الأجندة اللافقارية عن إهلاكنا برعب القفزة؟ تارة باسم الدين، وتارة باسم الوطنية، وتارة باسم الخروج والمروق عن الواقع والتقاليد والتاريخ؟

أما يمكننا أن نبدأ بقفزة لنسترد عمودنا الفقري وعظامنا وأنفاسنا المخنوقة نسترد دورتنا الدموية من تهلهلها في مسالك (أبو ثابت، وأبو واقع) فواقع لا يخلق لكائناته حرارة القفز، لا نريده. فنحن من صنعناه، ونحن من سنقول له وووووووووووب، القفزة الأولى بدأت ٣،٢،١.

ولا كيف تشوفووووووووو؟

● «النداء»، العدد ٦٤، الأربعاء ١٩ يوليو ٢٠٠٦

إرادة الحياة.. هي النصر

مـاذا تـقـول هـنـد، مـي، ومـريم عـن الحـرب؟

أروى عـثـمـــــان

وجاء نصر الله والفتح

إرادة الحياة.. هي النصر

ماذا تقول هند، مي، ومريم عن الحرب؟

ما جريرة شعبٍ يعشقِ الحياة لأقصى حدود العشق، يدفع ثمن هذا العشق، قتلاً ودماراً؟

لماذا يكتب على شعب الحرية والثقافة والفن والموسيقى والاختلاف، أن يهرق دمه في الطرقات؟

لماذا كلما أحببنا الحياة، تنغرس السيوف والخناجر، والعمائم تستبيح عقولنا، ووجداننا، وتحيل مساماتنا قنابل موقوته شديدة الانفجار؟

ولماذا كلما غنينا للحياة، وتشبثنا بها هاجت علينا ثقافة البنادق، وراجمات الصواريخ، وهي تهتف: حي على الاستشهاد؟

ولماذا كلما تحاورنا، وانتصرنا للعقل، وللحب وللحرية، سكبت علينا آراء مفخخة، طافحة بالأيديولوجيات؟

ولماذا كلما انتصر الحرف والكتابة والمطبعة واللوحة حاصرتنا الحراب، والأقلام المسمارية والعنقودية، وأحبار الدم والدموع؟

هذا الذي يحدث في لبنان، أكثر شعوب العالم العربي توحداً بالحياة، بالغناء، بالاخضرار والإزهار بطوائفه وفرقائه.

ولماذا يستباح وطن فيروز، وماجدة الرومي، ووديع الصافي، ومارسيل، والصبوحة، في كل دقيقة؟

فيروز التي نسمعها منذ عقود، نفتق ريقنا بصوتها، فننتشي، ويغدو صباحنا من أسعد الصباحات، حتى لو كان كل ما حولنا بائساً.. اليوم صباحنا مخنوق، و"تحت العريشة ربينا أنا وأنت" متحشرج، طافح بالمرارة.

هند، ومي لا تعرفان لبنان إلا من "كان عنا طاحونة ع نبع المي"، ولا يعرفن بيروت، إلا من أغنية "ارجعي يا بيروت ترجع الإيام" فمن "كبر البحر، وبعد السماء"، و "راجعين يا هوى"، و"بنت الشلبية" أحبتا لبنان..

فما الذي صار لمن تعلمنا على أحرفها معنى الحرية، ومن أغانيها معنى أن نحب الحياة؟

الموت يحف ببيروت. والجنوب، لا حمائم، ليس غير الغبار والدمار، والأشلاء، والمليارات البشرية تهتف: تستاهل بيروت من (قال لأبوها) تغني للطفلة الوحشية/ الحرية؟ ومن قال لأبوها تعشق النهار، وتحتفل بالليل؟ من قال لها أن تذوب رقصاً للحب والحياة؟!

تستاهل ما جرى، وما يجري لها، ستخرب علينا ما بنيناه من قرون: أسوار الجهل التي بنيناها وعلياها، وجاءت بيروت لتهدمها بالحروف والكتابة وأشكال الحياة المتمردة، وبـ: تويني، والقصير، وهدى بركات، وقبلهم قوافل من أخطل صغير، وسعيد عقل، وجبران.. تستاهل بيروت (المارقة) على أبجدية الصمت والخوف من الأعالي، والظلمة، والمنطلقة بعصافير النهار.

تستاهل بيروت، المغامرة باختراق جدار تحريم الغناء، والرقص، بنشر "دبكاتها" مستحثة خروج أقدامنا الغارقة في أحذية الحديد.

تستاهل بيروت التي بالغت بتشويشها على من جرعناهم وختمناهم، بأن لا صوت يعلو فوق صوت الحزب/ الثورة/ الوطن/ المعركة، فجعلتنا نفيق الصباح، وتحت وسائدنا آلاف الآراء، والحوارات، من أطياف بألوان مختلفة، وأصوات أشد اختلافاً.

تقول هند ذات الستة عشر ربيعاً:

ما الذي اقترفه شعب لبنان، شعب الحضارة والثقافة، الشعب الذي يتمسك بالحياة بيديه وأسنانه؟

وتضيف: أصبحت قيمة الإنسان أقل من قيمة دجاجة تذبح. ثم تتساءل كل يوم بعد دوي نشرات الأخبار في رأسها: ما الذي يريده حزب الله؟ وما الذي تريده إسرائيل؟ فإسرائيل لا يمكن أن تبيد حزب الله، وحزب الله لا يمكن أن يبيد إسرائيل. إنه صراع وقتال يدفع ثمنه المواطنون، والجسور، والبيوت، والمدارس والجامعات، ومحطات المياه والكهرباء..

ومي ذات العشر سنوات، تقول: ما ذنب الناس؟ ولماذا اختاروا بالضبط لبنان؟ اللون الأحمر والمجازر، هي لبنان الآن، لا حياة، شوارع فاضية.

وتضيف: لو فكروا يعيدوا (تصليح) البلاد، لكن هل يستطيعون إرجاع الموتى؟

وتجيب: بالطبع لا!

وبحزن بين اليأس، وأفق يلوح بين هذا الدمار، تقول مي:

ماذا بوسعنا الفعل أمام ما يجري؟

لا شيء!

لكن شيئاً واحداً نستطيع أن نفعله: ندعو لحياة السلام.

المغني بوسعه أن يغني للبنان،

الرسام يرسم للبنان.

الصحفي يكتب للبنان.

وترى كل من هند ومي أن المقاومة السلمية، هي الطريق الأمثل.. فقد شبعنا من رؤية الجثث والدم على شاشات التليفزيون، وتضيفان: أن يرد للبنان اعتباره لتنتصر الحياة بدلاً عن الموت والفجيعة، لماذا لا يتم تبادل الأسرى بسهولة؟

وتستكمل هند حرقتها، فتقول: بحيث لا يخسر كل من الطرفين أحبابهم وشعوبهم، وتسود المحبة بين كل الأطراف، وبين كل الأديان، فنحن في النهاية، كلنا بشر.

أما مريم ذات السنوات الثلاث، والتي لم نستطع أن نبعدها عن نشرات الأخبار، فتعلق بشكل دائم:

إسرائيين/ إسرائيل تلعب بالطماش

قح.. قح

النونو يبكي: أهي.. أهي.. أهي

حرام.....

فكيف تشوفووووووووو!!!

● «النداء»، العدد ٦٨، الأربعاء ١٦ أغسطس ٢٠٠٦

جنازة المرأة من الباب الخلفي للرئاسة

أروى عثمان

جنازة المرأة من الباب الخلفي للرئاسة

بعد رسائل تليفونية مشتعلة، داعمة لدعوة إحدى الزميلات، للقيام بمسيرة سلمية إلى قصر الرئاسة والسؤال: لماذا الأحزاب السياسية أحجمت عن ترشيح النساء إلى المجالس المحلية بالنسبة المحددة والموعودة؟

وعلى هدي ما جاء في الرسالة: ".. فمن أجل العدالة والمساواة، وحقوقنا المهدورة، نرجو منكم ذكوراً وإناثاً، ألا تتأخروا"..

ولأننا من العرب العاربة، الذين يهبون لنجدة الملهوف، خصوصاً عندما يطعَّم الخطاب (باسم، ومن أجل)، فقد هرولنا تحت راية هاتين الجملتين اللتين طالما حولتانا إلى قطعان.

وتلبية لنداء الرسالة انتشرنا (من يا الله رضاك) وكانت في ذهني صورة ثورة البرتقال التي قادتها المرأة الكويتية بكل اقتدار. وارتكزت معادلتي على أن الشرشف يمكن أن يثمر برتقالاً، وإن لم.. فعلى الأقل يمكن أن يلوح في الأفق لون برتقالي.

طلوع.. نزول

وركبنا الباصات، ونزلنا من الباصات، وطلعنا سيارات، ونزلنا من السيارات، وترجلنا، و"حبينا" حتى وصلنا إلى القصر الرئاسي، ولم يبرق أمامنا خيط قشرة برتقال. لا شيء يلوح في ذلك

السديم.

فـي هذه الأثنـاء كانت الصور تنتثـر من حولنا، والمايكرفونات، بأشـكال وأحجام وألوان تناسـب سوادنا، فالأسود يمشي مع كل الألوان.

"يا الله ببرتقالة"، وإلا حتى ليمونة حامضة، وإلا حتى بلسة، حتى لو كانت من البلس الشوكي، لا ثمرة تلوح غير الغوغائية المثمرة الطافحة التي دلقت للمايكروفونات بأحاديث الموتى.

لكن للأمانة كانت هناك نخبة من نسـاء المجتمع المدني، سـلّين على قلوبنا وسـط هذه المهزلة بقليل من "الحشوش".

وتصدقـوا، "مـدري" كيـف نزلنا من الباصات وما درينا إلا ونحن نحتشـد مـن الممر الخلفي لقصر الرئاسـة، ومعنـا عدتنا من لافتات مضادة للموروث الشـعبي الذي يصادر حـق المرأة، ولافتات تدافع عن حقوقنا الطبيعية والمشـروعة، وزامل شـعبي مع شـورية الانتخابات، وعن.. وعن.. وعن... إلخ، فكنا مثل تلك الكائنات البشـرية التي كان يحنطها البروفيسـور "جونس" في رواية "إيفالونا" لإيزبيل الليـندي. (وبالمناسـبة لو تكرمت حكومتنا باسـتقدامه ليحنط لنا عشـرين مليونـاً.. قبل أن ننقرض، ستفعل خيراً).

وللأمانـة أيضـاً، كان أول مطلب شـعبي آتياً من رحم الموروث الشـعبي: فالنسـاء لا يدخلن إلا من الدهاليز، على غرار المصلى، حيث تحشر المصليات في ملحق، معتم، بينما يدخل المصلون الرجال من الباب الرئيس للمسجد. فالكشف على النساء عيب.

فلا يجوز أن نطالب بحقوقنا في مكان مكشوف، لمن هب ودب.

انقسمت الجنازة، أو بالأحرى تحنطنا إلى ثلاثة رزم، "معاصب":

الرزمة الأولى: الزعامة / القيادات ذوات العقول الوقادة التي تسوق الرعية (القطيع الأسود). أو ما يطلق عليهن تجاوزاً: نساء (وأشك أن الشوارب ملصقة في مكان مخفي من أجسادهن وأنهن متنكرات في زي بالطوهات نسائية)؛ فما يقطر من ألسنتهن، يشير إلى أنهن أكثر فحولة من الفحول.

الرزمة الثانية: اللواتي صدقن أنهن سيذهبن إلى مسيرة، محفوفة بظلال البرتقال.

أمـا المعصـب الثالـث: الغالبية، وهن نسـاء لا يعرفن لماذا أتين، مجلوبات من بني حشـيش، وربما السدة، وشبوة، والمهرة. فقائدات "المعصب" الأول يمتلكن عصاً سحرية، ويفقن السحرة في "الحزاوي" بـأن كيدهـن أعظم وأوجع، وإن بمقدورهن جلب جمهرة عريضـة من أي صنف وبثانية واحدة، بحيث تجلس المرأة "تتعصور" بأسئلة: مابه؟ أيش؟ ما قالوا؟ ما قالين؟ ما جينا نعمل؟ وين إحنا سايرين؟ ولا مـن مجيـب غير إجابـة وحيدة يعرفنها، وهي أنهن "مصبِّحات"، فالبعـض منهن قد أتين دون أن يفتق ريقهن.

إحداهن قالت: والله ما في غيرها الخمسين الريال!

مسكينات، بعضهن عجائز، "تكرضحين" في درجات القصر، وهن يحملن شعارات لا تنفع للتعكز.

لقد مارست النسوة عنفاً أكثر من مؤسساتهن التي يزعقن من عنفها، وكان عنفاً أسود مخفياً ومخيفاً.

بعد التفتيش الدقيق جداً دلفنا إلى القاعة الكبيرة. كانت الخطابات كلها تشرب من كؤوس الموتى: أروى، وبلقيس، هن فعلين، هن تركين، هن طحنين، هن عصدين.

إحداهن رفعت نقطة نظام: لقد أغفلت زعيمتنا منظمات المجتمع المدني من قائمة المتحدثات.

"تدكم" زعيمتنا صدرها: "سعليكن يا بناتي"، أنا أتكلم باسم المجتمع المدني، وباسم الحكومة، باسم الحزب، وباسم أم الصبيان، وباسم الملائكة، جملة، ومفرق، أنا الواحد الذي لا تالي له.

داخل السلة

كنا اندلقنا إلى قعر السلة الحاكمة، وتساوينا جميعاً على خط الفحولة. (نسوان) من الحزب الحاكم، على نسوان حزب اشتراكي، على إصلاح، على مجتمع مدني، على ناصريين ديمقراطيين، على حزب خضر، وصفر، وزرق، على جن مخفيين، وظاهرين، وتحققت المساواة بـ٩٩،٩ الله أكبر.. لكن لا برتقالة، ولا قشرتها تلوح خارج السلة.

زندنة

ونحن نتدافع في بوابات القصر، هلَّ علينا أبو الفتاوى الشيخ الزنداني. سألته زميلة: فين الـ١٥ من مرشحات الإصلاح؟ رد ببرود: في البيت!!

ذهنية العبيد

فلتفشل المرأة في المجالس المحلية، والمراقد الخارجية، والمداكي الإقليمية، والمساند الدولية، ليس هنا المشكلة، المشكلة أكبر وأعقد بكثير فلن نردد ما يقال: ماذا تعمل النسوة في الحكومة العطل؟

المشكلة نحن بحاجة إلى مزيل لبقع الدهون المستعصية في الذهنيات النسوية قبل الرجالية.

فبالرغم من الشعارات النسائية المطالبة بحقوقنا، إلا أننا نعمل ضدها، فمازلنا قُصَّر، ونحتاج إلى ظل راجل، وظل حاكم، مازلنا نساء من عبيد، نحتاج إلى محرر، ومنقذ حتى لو كان من ظل، المهم يكون (جَعيل / فحل / ملء السمع والبصر) عقولنا محكومة بسلاسل العبيد، والإماء.

ومازلنا ضعيفات، يتيمات، نحتاج إلى أب، وأب حاكم، حتى لو كان من "زارقة"!! – مع الاعتذار للأستاذ القدير عبد العزيز الزارقة.

مازلنا حتى اللحظة، برغم مناصبنا، وأدبياتنا القصصية والشعرية، ومعلقاتنا الخطابية الحماسية، لا نفرق بين لغة الخطاب في البيت، أو الخطاب في حضرة الرئيس بقصره الجمهوري. مازلنا محصورات بثقافة الاستظلال، والمظلات: أن نتنور، من نوره، وبجنح الرجال لا بجنح الحجار، ومازلنا نلهث وراء سراج البيت وضوئه على صراط علي بن زايد.

خلصت الخُبارة

إلى الزميلات العزيزات: سرنا وجينا للمطالبة بحصص النساء في المجالس المحلية، ورجعنا بحصص ومقررات دراسية ابتدائية، بل وتمهيدي، يجب أن نصغي إليها، ونحفظها عن ظهر قلب، وأيضاً لا ننسى أن نتربع، مع حضرة الدرس: أبي صالح، أمي بلقيس، أختي أروى، أخي أحمد.. فرددن أيتها النسوة: إ/ كسرة، أُ/ ضمة، أَ/ فتحة. أ، إي، أو.

وإلا كيف تشوفووووووو؟؟

● «النداء»، العدد ٦٩، الأربعاء ٢٣ أغسطس ٢٠٠٦

مـــاذا لـــو بـكـت الـــرجـــال؟!

أروى عـثـمـــــان

■ إلى اللحظة الإنسانية المتجلية: فؤاد السنيورة

8

بين برنامجين وشخصيتين

امكانية الحوار

ماذا لو بكت الرجال؟!

ماذا لو فكر الرجال بشكل جدي، وأطلقوا إنسانيتهم لتمارس وجودا طبيعياً، تتنفس، وتتكلم بصوت مسموع؟!

ماذا لو تخلى الرجال عن سلطتهم ليوم واحد، أربع وعشرين ساعة فقط، فيتحررون من تراث متاريس الذكورة، وعناقيد ومليشيات الفحولة والرجولة واشتقاقاتهما وصواريخهما من: خيبر ١،٢،٣، حتى لو أطلقت على بعد، بعد (تنكا بلاد النامس)، عن مدافع الكرامة، وبوازيك الصمود، وكاتيوشا الردع، وسكود الشهامة، وسيوف الجهاد، وراجمات صواريخ الشرف، وحروب الأمة، وبوارج السيادة الوطنية، ومفاهيم كثيرة، وكبيرة؟!

أن تتخلوا أيها الرجال ولو مرة واحدة عن تركة استفحل ثقلها ألف عام، ألفين، مليون عام، وتطلقوا العنان لإنسانيتكم، وتبكوا، وتبكوا، وتبكوا، تطعموا ملوحة الدموع في ذهنياتكم، قبل ألسنتكم، وتنهمر مآقيكم لتكنس رجولة الإنسان العربي التي لا تُعرّف إلا بعتاد ثكنات الحرب، والدم، والأشلاء، والجثث، والذأبنة، والأسدنة، والقطرنة، والضبعنة، والمحارب / الصامد الذي لا يقهر... الخ.

لقد أعطتكم الثقافة والتاريخ والحضارة والدين والملاحم والسير الشعبية، البطولة، وجعلتكم رجالاً هِماماً، لا يطرف لكم جفن، تنحرون، وتحرقون العالم، تشربون وتقذفون الدم، وتنتفون اللحم من الجثث نيئاً ومحروقاً، وتسيرون، في جسور من جثث، وجماجم، وأشلاء، وأغلب الأحيان أحياء.. هذا

الموت المجاني العابث، المجنون لأجل مفاهيم كانت لها وظيفتها في سالف الأزمان، وكان ياما كان.

آلهة الحكايات

منذ أن انقلبتم ذلك الانقلاب الدامي، واستوليتم على آلهة الأنثى المعشوشبة بالحب والأمومة والحكايات، قلبتم موازين الطبيعة رأساً على عقب، وصنعتم آلهة من ذكور لا تعرف إلا لغة الكراسي، والسواطير، والمارشات. سطرتم ملحمة قابيل وهابيل، التي تجددون أدوارها يوما بعد يوم، تدمرون بها الكون، وتحرقونه، حتى وصلتم إلى الأوزون، فثقبتموه، بما في ذلك السماء والأفلاك، والقمر مفجوع، متيبس، يئن من وطأة قدمكم، وكأن شهوة الدم سبقت وجودكم، بل وكأنكم كائنات صنعتكم مصانع بيولوجية، ولستم بشراً.

فما رأيكم بخلع هذا التاريخ الذي تفاخرون به ليس بكم الحياة الإنسانية، ومساحة الأخضر فيه، بل بكم الأشلاء، وأنهار الدماء، بمساحة الدمار والخراب، ثم تبتسمون مصدقين أنكم انتصرتم، وصنعتم الثورات، والثورات المضادة، وجددتم مساراتها، وأبجدياتها، وواحدياتها، ونسيتم في لجة الانتشاء والتجشؤ أن ثوراتكم ما هي إلا مسارب/ ميازيب تخر مياها إلا على من حطبها واحتطبها.

رجولة مجانية

يوم واحد أيها الأشاوس/ الأفذاذ، يا ظلال الله على الأرض، يا أحزاب الله -إن لم تعلوه درجة، ففي أضعف تواضعكم، تتساون معه- يوم واحد تتحررون من عباءة هذا التاريخ الذكوري/ المتعالي، وتحتفلون بعيد البكاء، وتجهشون فيه. والبكاء بكل بساطة ليس علماً، ولا به معادلات كيميائية، كل ما يحتاجه الرجل في هذه اللحظة أن يتأنسن فقط. والأنسنة لا تعرف مصطلحات من: مقدسات، ومكدسات، ومقدرات الذكورة الفائضة/ المجانية/ المجنونة التي نشفت ريق الحياة.

نحن النساء سنشارككم هذا الاحتفال.. سنهديكم دموعنا ليوم واحد. سنهديكم (ضعفنا) لأربع وعشرين ساعة. سنهديكم ثرثراتنا عند عتبات أبواب بيوتنا، وأحواشنا ليوم واحد. سنهديكم أغاني الحب والقمر التي "نهجل" بها عند الأصيل، وعند مناجاتنا لعين الشمس. سنهديكم لوعتنا لغياب حبيب، ونهداتنا لفراق جار. سنهديكم "مشاقرنا" وهدهداتنا لأطفالنا قبل النوم. سنهديكم حكايانا، وخرافاتنا، وهمومنا الصغيرة، وأصابع تلثم الجبين. سنهديكم خفقاتنا، وحتى إخفاقاتنا، مسامرتنا، أنسنا، وحتى سهادنا. سنهديكم إنسانيتنا التي غابت عن سمائكم مليون عام متحجر.

أنسنة الكواسر؟

لو بكت الرجال، وتخلت ليوم واحد عن تاريخ المليون فروسية، للخيل والليل والبيداء، وجلاميد الصخور التي تحط من عل، دون النظر إلى الكائنات في الأسفل (الأرض)، لعبقريات الكواسر

والجوارح، لنياشين ثارات الكرامة والرجولة والشرف، ستتأنسنون، وستأنسون العالم من حولكم، سيخضر الكون، وسيرقص القمر، ستنتعش المخدات، ستزهر الحكايات، وستتحول الأسرة إلى حدائق أقحوان.

لعبة الاشتياق

لقد اشتقنا منذ مليون عام لأن نلعب معاً لعبة: غاب القمر ولا عادووووووو؟!

مشتاقون لأن تتنسم عقولنا وأجسادنا عطور النرجس، وتزهر أرواحنا بتباشير المستقبل.. مشتاقون لأحضان تقطر حباً، وشجناً غاب عنا منذ أبد الآبدين، مشتاقون لأغنية، لرقصة مشرعة للشمس، لضحكة تهتز لها قامات الأشجار، تذوب جليد مليون سنة من: عبقريات، وبطولات، وأمجاد، وأساطير "البحر من أمامكم والعدو من خلفكم"، وأعاصير "بالروح بالدم نفديك يا..." و"ورؤوس يانعة حان قطافها ".. مشتاقون لنضحك، ونضحك على تاريخ هزلي، عمره مليون عام، نستخف به، ونلعنه، ونكفر به، وبمن خلق لنا أساطير الوهم، و"شوربانيات" الملك وانتصارات خيوطها كذب مهترئة.. نضحك حتى تغرورق أعيننا بالدموع. لحظتئذٍ، سنأخذ نفساً وتنهيدة، ونقول: ياااااااالله ما أجمل أن يكون الإنسان خفيفاً، كريشة محرراً من التاريخ وأصفاده، متحرراً من كل الأساطير بكل مجدها، ولذتها، وعنفوانها.

عندما نضحك، وتتصاعد قهقهاتنا إلى مشارف السماء السابعة، عندها لن نخاف من "رفة العين" التي تعقب ضحكاتنا وقهقهاتنا، ونتهجد في أساريرنا بتعويذات الرعب "خير اللهم اجعله خير".

فمتى ستدعوننا إلى حفلة "عيد بكاء الرجال العالمي" نتمنى أن تكون قريبة جداً، أقرب من حدقاتنا. ويا حبذا لو كانت قبل الانتخابات الرئاسية.

صوتنا لمن يبكي

في الانتخابات الرئاسية القادمة فلنعط صوتنا لمن يبكي، لا لمن يدق الطاولات بمقارع التاريخ والحضارة.

وإلا كيف تشوفووووووو؟

● «النداء»، العدد ٧١، الأربعاء ٦ سبتمبر ٢٠٠٦

"القشعة" التي قصفت ظهر الزغير

أروى عثمان

8

تجاذب غير معقول

الزغير بشكل مغاير

القشعة" التي قصفت ظهر الزغير

هذا الزغير لم يكن زغيراً، فكيف اختزل ذلك الجسد الإنساني، الشبيه بغيره من الكائنات الآدمية، ليصبح وزنه رطلين ناقص وقية.. ويحمل بجدارة لقب الزغير، الذي يتناقص باضطراد، ولا تعرف الزيادة طريق جسمه مطلقاً!!

تقول ذاكرة الحاضر.. إن الموطن الزغير أصيب ببلاء، لم يعرف كنهه حتى الآن، أدى إلى كل ذلك الاختزال. في البداية اختزل وجهه إلى أربعة أخزاق صغيرة، "خزقتين" أطلقا عليهما عينان، وخزقين آخرين قيل إنهما أنفه -والله أعلم- ثم ذراعين ملتصقتين بفوديه، ورجلين معلقتين بصدره الشبيه بعلبة الكبريت.

أما دواخله، فقد كشفت تحاليل الأشعة الكثيرة عن معدة بمقدار حوصلة كتكوت في يومه الأول، وعن خيوط مشعبكة يطلق عليها أمعاء. أما الفاجعة الكبرى فقد أظهرتها الأشعة عندما كشفت أن الزغير لا يملك قلباً. وبعد ذلك ذهب الأطباء يفتشون كل الأنحاء المتبقية من جسده: صدره، خلف البنكرياس، تحت الحجاب الحاجز، داخل رأسه، وواصلوا بحثهم في قدميه، وبين أصابعه، تحت أظافره ولسانه.. فلا قلب للزغير.

أما عقله المتقزم بحجم مخيخ أرنب فقد وجدوه سابحاً في رغاء "قاتي" أخضر. فحمدوا الله شاكرين أن الزغير خرخ بفص عقلي، ولا مافيش!

أين ذهب جسد الزغير؟!!

تقول أجندة الذاكرة: إن جسمه بدأ بالانكماش، مع ولادته، واختيار اسمه (حُمادي) ثم مع توالي مسلسل الموانع والنواهي من: "اسكت لك عُجمة"، و"يقصف عمرك"، "جني يتحملك"، "أم الصبيان تفقش قلبك" -مع أن الجميع يدرك بأن الزغير لا يملك قلباً- وأخيراً: "قل، ولا تقل" و"افعل، ولا تفعل".

يقال إن الانكماش تضاعف من أول يوم مدرسي والتصاقه بكرسي الفصل، واستماعه لأول درس: هيا هيا نحو المسجد، وأرنب أمي يقفز ويقفز، وأبي اشترى لي ساعة.

في الإجازات كانت الأم تحاول إنعاش جسده ببعض المأكولات الدسمة، سرعان ما كانت تمتصه قاصفات الكرة في الشارع، وراجمات الصواريخ يا "صُعبي" و"الطعفرة" النفسية والعقلية في الأزقة والأسواق، فلا مسرح، ولا سينما، ولا، ولا. كذلك المساجد والتقدم في الصفوف الأولى والاستماع إلى خُطب الجمعة التهمت جزءاً لا بأس به من جسده. أما المقايل فقد "شفطت" الكثير من ذلك الجسد، وخصوصاً "تفاريط" السياسيين، والمثقفين، والمجتمع المدني!

وللإعلام نسبة عالية من جسد الزغير لم تكتف بلحمه، بل امتصت نخاعه الشوكي، وقرّطت عظامه تقريطاً..

مع موجة الانتخابات وهستيريتها، حدق الزغير ذات صباح مشمس إلى جسده في المرآة، أصابه هلع مريع كاد يصيبه بالسكتة، لكن لم يدر ما نوع السكتة، وهو لا يملك قلباً، حتى يطلق عليها سكتة قلبية، وإن أطلق عليها سكتة دماغية، مافيش دماغ، ولذا كانت سكتته غير جديرة بالنِّسب لقلب أو دماغ، فوصفها بعد ذلك بالسكتة الشاملة الجامعة المانعة.

كيف اختصرت أربعة وأربعون "قارحاً" من عمره إلى ما آل إليه الزغير؟ ولماذا لم يكن يتساءل عن ضياع وتلاشي جسمه؟ ولماذا سمح للجميع بأن يسموه الزغير؟ ولماذا كان يسوّف ويهون من أمر تناقصه بالقول إن هذا التناقص سيتوقف مع طلة كل صباح؟

عندما حدق الزغير ذلك اليوم في المرآة كانت الأحداث الوطنية "من قرح يقرح" والأمجاد الثورية، وثوابت الأمة، والعرس الديمقراطي تتناوب بهستيريا للانقضاض على ما تبقى من جسده.

قال الزغير: أخاف إذا استمر جسدي تحت هذا القصف الوطني والزخم الانتخابي، أن أتحول إلى حبة "بِلسن".

حاول الزغير أن يوقف حد الزحف على ما تبقى من جسده، فقرر، قائلاً: لا بد من "قشعة" تُطيّر بكل المسبقات والأحداث والأفكار والمدرسة والمسجد والجامعة والمقايل والانتخابات والصور والبرع والجنبية، والبرلمانات ومساجلات الشورى والديمقراطية والدبابات والمونيكا والشرشف والعشش والقصور ومباني الصفيح وسير سير نحن بعدك بالمسير ويا حنان يا منان... ووووووووووو..

كان من شأن مضادات القشعة أن تقصف ظهر الزغير -إذا ما تجاوزنا واقع حاله وأطلقنا على ذلك النتوء ظهراً- وأن تقول له: من يطالب بعموده الفقري خارج المرجعيات فليقصف ظهره، وينعصف

عصفاً حتى يتفرق نخاعه الشوكي، على القُبل والأمصار.

في مجتمعات الصبر، وحِكم "من مشـنقة لمشـنقة فرج" فلتنقصف الظهور و"الدحون" ليبزغ إنسـان جديد يعطي للحياة معنى...

وإلا كيف تشوفووووو؟؟؟؟

● «النداء»، العدد ٧٢، الأربعاء ١٣ سبتمبر ٢٠٠٦

سأخونك أبي.. سينمائياً

أروى عثمان

■ إلى حسين شيباني مدير عام السينما في عدن، الذي وافته المنية (نوبة قلبية) في صنعاء وهو يتابع مرتبات موظفي المؤسسة العامة بعدن.

سأخونك أبي.. سينمائيا

المعارضة وسياسة ما بين الحدين

وعود الرئيس والكليب الرخ

درست الابتدائية في مدرسة الثلايا في الجحملية بتعز، وعرجت على مدرسة الكويت، واستكملت ثانويتي في مدرسة أسماء في صالة – تعز.

مدرسة الثلايا، الذاكرة اللدنة، حيث الأزقة الطرية. أعرج من زقاق حافتنا في حوض الأشراف، ومن مسجد "شعرة" إلى مشروع المياه. نمر من أمام بيت العُبيدي، وبيت الحجاجي، ونعرج من منعطف بيت الربيع، وجبران العنسي، ونصل إلى ميدان الشهداء. قليلاً، وينتصب على يسارنا مبنى صحيفة "الجمهورية"، أما قبالتنا فيقف المنزل الكبير لزايد شبرين. نصل المدرسة تسبقنا ضحكاتنا المدوية التي لا تتسع إلا لرائحة الأزقة، وجدائل شعرنا المدلاة بشرائط بقايا ثياب أمهاتنا، لا تتسع إلا لطعم الباجية والبطاط مع البسباس، و"بُرادة" أمي فاطمة في ركن من مدرجات "ميدان الشهداء".

كان ذلك في منتصف السبعينيات.. حيث العالم يكبر مخترقاً جدران المدرسة، وحصص الدين والحساب والعربي، إلى العالم الأجمل والأكبر الذي تبثه صاحباتي في وقت الحصص المملة، ووقت الراحة، والفيدوس، وهن مزهوات يتواعدن للذهاب إلى السينما (يسينمين) ولأول مرة سمعت لفظة سينما منهن.

"سينما النجاح" تعز هذا العالم السحري الذي لم أعرفه إلا من صاحباتي وهن يتحدثن عنه بمتعة

منقطعة النظير: أفلام، وأغان، رقصات.. ولم أعرف صور نجوم السينما والفنانين إلا من دفاترهن حيث تلتصق في ثناياها عشرات الصور، وكلمات الأغاني العذبة.

"سينما النجاح" التي كانت نافذة ثقافية للعالم الخارجي، الفن السابع الذي لم نعرفه حتى اليوم، تذوقته العائلة اليمنية فترة من الزمن، كأنه حلم ولى مع اندثار زمن جميل وطامح.

عالم مواز كنت أسمعه وأطربه مقابل عالمي المحدود الذي لا يتجاوز ما ذكرته سلفاً عن أزقتي الطرية، فعالمي كان لا يتعدى "معلامة" بن حمود -الله يرحمه- في "سوق الصميل"، وشارع "٢٦ المدينة" المرتبط بنزولنا له في الأعياد لشراء ملابس العيد فقط. وأخيراً حارة "شعب الدبا" لأن أبي يملك بيتاً مؤجراً آنذاك.

راودتني نفسي أن أقتحم عالم السينما وأقفز فوق خوفي و"أسينم" لأرى تلك الوجوه الإلهية للممثلين والممثلات، والمطربين والمطربات، وأخون عقيدة أبي من أن السينما عيب، وما يدخلها سوى (...).

ليس ذلك فحسب، بل وأسجل معجزتي في تقليد الحركات خفيفة الظل لسعاد حسني، وأدندن بنجاة الصغيرة، والأهم أن أرطن الأسماء الأجنبية، وأعلق في "بوكي"/ دفتري صورة عبدالحليم حافظ، حتى لو كان سراً.

وسط هذا الإدهاش اليومي الذي تمارسه صاحباتي بفنية عالية، أحدق بحركاتهن، وأغانيهن، ضحكاتهن الصاخبة أحدق في العيب الأجمل الذي تقترفه صديقاتي كل يوم، وهن ينشرن الفرح الذي لم نذقه، أبحث عن الخطيئة الأروع وهن يخلقن لنا عالماً مغايراً، عالماً جميلاً افتراضياً، لا يتحقق إلا في الفن السابع.

ثقافة الشطب

لقد ضاعت، وشطبت مني أحلى سني طفولتي، في أن أعتب دار سينما، و"أسينم" وألفظ أسماء: سعاد حسني، وميرفت أمين، وشاكا، ودارا مندرا، و.. و... إلخ، ويتواصل شطبي بإصرار وتحدٍ حتى الألفية الثالثة. وجر هذا الشطب الجبار طفلاتي فهن لم يذقن حلاوة أن "يسينمن"، أن يدلفن ذات يوم إلى دار سينما، ويشاهدن فيلماً مثل بقية خلق الله حتى في بلاد طالبان.

كم يلزم؟

إذن سبعينيات القرن الماضي كانت حافلة بالفن والثقافة والفكر، بالحرية والانطلاق، والجرأة، والملبس الآدمي، حياة حافلة بالمعاني الإنسانية الجميلة، ولو استمرت حركة التطور، كيف كانت ستكون حياتنا الآن؟

وفي ظل هذا التردي، وهذا الانحسار المخيف والمخجل، لحياة عصرية، مدنية، كم يلزمنا من عقود

من الزمن لأجل أن نسترد لحظة من لحظات المدنية في السبعينيات؟ كم يلزمنا من اعتذارات للمدن التي استبيحت نهاراً جهاراً جراء جرأتها ومطالبتها بأن تكون على قدر الاسم الذي حملته (مدينة)؟ كم يلزمنا من جلد الذات لما اقترفناه ضد الفن السابع، ضد غنائنا، ورقصنا، ضد إنسانيتنا التي تخلينا عنها في غمضة عين تحت مبررات الجنة والنار، والتقاليد، ضد ما ارتكبناه من جرائم في حق سينما النجاح، وسينما حدة، وهَريكن، وسينما الحرية، و٢٣ يوليو، والمنتزه بلقيس... إلخ، وتحويل معظمهن إلى ماخورات، وإلى صالات أفراح بدون أفراح، وأعراس بدن أعراس عدا (أعراس ديمقراطيتنا وانتخاباتنا)؟ وأخيراً كم يلزمنا من الوقت لأن نتمدن؟

مدن الدجاج

كتمة، عتمة، واختناق، ثلاثية يعيشها الإنسان اليمني ليس فقط من الظروف الاقتصادية والاجتماعية السيئة، ولكن السلسلة تتغذى على هذه الظروف من تحريم وترهيب لمتطلبات عقلية وفكرية ووجدانية للإنسان اليمني، حيث يمارس ساطور تلك الثلاثية تقتيلاً تارة باسم الدين والعقائد المفخخة، وتارة باسم العيب والتقاليد والأعراف. أما حكومتنا ومؤسساتها الثقافية فهي تشتغل عليهما براحة وسرور، ولذا تخلفت الفنون، والثقافة، والتعليم، والصحة والحياة العصرية؛ والنتيجة أننا تحولنا إلى اثنين وعشرين مليون دجاجة، نرقد من المغرب، بعد ذبلنا للقات، فلا مسرح، لا سينما، لا نادي، لا ملعب، لا متنفس، لا.. لا.. لا.. وعندما نرفع حناجرنا نطالب حكومتنا بمؤسساتها الثقافية والإعلامية، بأنا مستغنون عن الديمقراطية، والوطنية، والوحدة، وانتخابات نزيهة، واستثمارات، لهم كل ذلك، نريد فقط مسرحاً، وسينما، أن "نسينم".. فترد علينا دولتنا، لا يوجد عندنا طلباتكم، لكن ما معنا غير بضاعتنا نردها في نحوركم بمزيد من الديمقراطية، ومزيد من الوطنية، تجريعكم مزيداً من الاستثمارات، من الأمن والأمان، ومزيداً من محاربة الفساد والمفسدين. تلك البضاعة الحكومية لم تزدنا إلا كأكأة، نناقم وننقم بعضنا البعض..

القُفَّة ثقافة

والدي! تمردت عليك، وعلى منظومة "القفف" العتية، قفة ثقافة "اليسك"، أكان عيباً أو فقهاً دينياً، أو فقهاً سياسياً. ومع ذلك لم أستطع لا أنا، ولا أطفالي منذ أن خلقنا، وحتى اليوم أن "نسينم".

فهل سيأتي يوم، أقول لطفلاتي: يا الله، البسن ملابس السهرة، فنحن اليوم سنسينم، وسنسهر لنشاهد فيلماً أجنبياً حائزاً على جائزة الأوسكار..؟

البرع والزامل لا يخلقان سينما

نريد سينما أيتها الدولة تكون جزءاً من تكويننا ونسيجنا مع الأيام، وألا تجلسوا تزيدوا علينا أن

السينما والمسرح والغناء والرقص خارج ثقافتنا العربية الإسلامية، وخصوصياتنا، وتقاليدنا و..و.. الخ، فتزملوا، وابترعوا، فهما ثقافتكم الأصلية "برعة" لا شرقية ولا غربية..

فلكم برعكم وزاملكم، شـرقوه وغربوه كما شـئتم، ما نريده أن تحقق الدولة شـرط وجودها الذي لا يستقيم إلا بمؤسسات مدنية، ومنها مؤسسات الفنون، ومؤسسة الفن السابع: سينما.

وإلا كيف تشوفووووووو؟؟

● «النداء»، العدد ٧٦، الأربعاء ١١ أكتوبر ٢٠٠٦

(١) الفن قبل التعليم..

أروى عثمان

■ إلى: نوارة المدينة.. نورا

8

الإعاقات من اللغة الأسبانية

لبنان وجليد الأزمة

(١) الفن قبل التعليم.

"إذا أردتم أن تحسّنوا القدرات الإدراكية والعقلية لأطفالكم، فعليكم أن تنموا هواية الموسيقى عندهم" هذا ما اقترحته دراسة نشرتها مجلة "برين".

الباحثون في علم النفس من جامعة "ماك ماستر" قاموا على مدى عامين بمتابعة ٦ أطفال تتراوح أعمارهم من ٤ إلى ٦ سنوات. قسم هؤلاء إلى مجموعتين: الأولى خضع أفرادها لبرنامج يتضمن التدرب على سماع الموسيقى وتعلم العزف على آلة موسيقية معينة. أما المجموعة الثانية فترك أعضاؤها وشأنهم من دون برنامج محدد. الدراسة دامت سنة واحدة جرى خلالها إخضاع المشاركين فيها لاختبارات قياس نشاط الدماغ ٤ مرات. فماذا كانت النتائج؟

"النتائج كشفت أن الأطفال الذين تابعوا البرنامج التعليمي الموسيقي كانوا أكثر حساسية ويرتكسون في شكل أسرع تجاه الأصوات الموسيقية ذات المغزى. إضافة إلى كل هذا وجد البحاثة أن قدرة الاستيعاب وحفظ المعلومات كانت أقوى عند هؤلاء، وذلك اعتباراً من الشهر الرابع من بدء الدراسة. أما المجموعة الأخرى التي لم يتابع أفرادها البرنامج التعليمي فلم يسجل المشرفون على الدراسة أي نتائج ملموسة، وبناء عليه ينصح البحاثة بقوة بحض الأطفال على تعلم الموسيقى إصغاء وأداء، فهذا من شأنه أن يعطي زخماً لقدراتهم العقلية والإدراكية" عن: صحيفة "الحياة".

فلذات أكبادنا: حي على الموت

لعامين كاملين -تقريباً- وأنا أستمع إلى إذاعة صنعاء برنامج (الإذاعة المدرسية) الذي يبدأ بجمل إنشائية نسمعها من قبل مليون سنة: "فلذات أكبادنا تمشي على الأرض" وينتهي البرنامج بها.

السادسة صباحاً أغاني الصباح تصدح من مذياعنا من فيروزيات، وأغان يمنية تنثر الفل والكاذي والنـدى، والحـب، والبن حتى يأتـي هذا البرنامج الذي ينـزل علينا كالصاعقة وأولـى مدرعات، إنهم أطفـال انتحاريـون يتلذذون بالموت و"على الريق" وتصبح هذه (الفلذات، والأكباد، والطحال، والقلوب والكلاوي) لا تمشي على الأرض، بل تجثم جثما على كل مسامات الحياة فلا تختصر فيروز، ورياحين الصباح، فحسب، بل وتختصر الحياة.

وأصبـح مذياعنـا الجميل الذي نعشـقه، يـزرع قنابل موقوتة من حيث لا يـدري، مطمئناً بأنه يقدم خدمة للعلم، ولفلذات الأكباد.

أحادية في المنهج، والتدريب، والتفكير، إلغاء للعقل، تنمية الاستبداد بكافة ألوانه، إذكاء نفي الآخر، تلكم العلوم التي تسـكب في سـاحة (العلم والمعرفة) وهي سـاحة لا تختلف عن سـاحات "تورا بورا" بلا علم، ولا معرفة، ولا أنسـنة، سـوى علوم الفقهنة التي فقهنت ليس علوم الدين واللغة العربية، بل والفيزياء، وعلوم الحاسـوب، والفضاء، ويحمل ألويتها أساتذة وأستاذات خرجوا من بطون متاحف الأمم المنقرضة، يتوحدون بأصفاد الخيل والليل والبيداء، بلا قرطاس ولا قلم.

أساتذة أشك في أنهم لم يستخدموا عقلهم ولو لمرة واحدة، أساتذة حولهم وقوتهم تحويل الفيزياء والرياضيات وعلوم العصر إلى فقه يفتتح بالوضوء، ويختتم بالتيمم والجهادية.

وبكل أسـف أصبحـت إذاعتنا الحميمة إذاعة لانطـلاق حناجر ببغاوات متحجـرة "مقنبلة" بقنابل موقوتة تسـمى تجاوزاً أكبادنا، ولا ندري أين تمشـي، ليس لها سوى طريق الهاوية المنظمة بالفقهنة في سنوات الانحطاط والظلام.

إذا كانت ساحة العلم والمعرفة» تتقيأ كل صباح وكل مساء في وجوهنا، وآذاننا هذا الغثاء لعامين عبر الإذاعة، فكيف بعقود من الزمن يطلي مدارسنا، ومناهجنا؟.

سلطتان.. ولا موسيقى!

ونحن نسـتمع لثقافة (الفلذة)/ سـاحة العلم والمعرفة، بعد سماع القرآن الكريم، والحديث النبوي، وحكمة الصباح، تأتي جحافل (الأطفال) ومن أول كلمة حتى آخر كلمة تسمع تمجيداً ببغاوياً لسلطتين لا ثالث لهما: سـلطة (الدين) ليس الدين الذي نعرفه، ولكن الدين الوهابي، ثم سـلطة المؤتمر الشـعبي العـام ممثلـة بالرئيس والزعيم، مشـمولة بتنويعات الفلذات بالإنشـاد الانتحاري لهاتين السـلطتين ناضحة بكل أدوات وتعابير العنف المؤدلج.

لا آلة موسيقية تلوح في الأفق، حتى ولو كان خطأً، فثقافتنا التعليمية المستمدة من ابن العثيمين، وبن باز، وبن لادن، والزرقاوية، وابن تيمية، تحرم الموسيقى، والفن، والحياة، وما العلم إلا (علومهم) فقط.

كنت أتمنى خلال عامين، أن أستمع لأغنية، لا أنشودة، أغنية تحتفل بالصباح، وبالقلم، وبالدفتر، تحتفل بالحياة، بالحب، بالطفولة، بالتسامح. كنت أتمنى أن أسمع صوت آلة موسيقية حتى لو كانت بدائية كأصوات دق الحجار، طرطقة أخشاب أو ملاعق أو أصوات الطبيعة.. لا شيء من هذا حدث، ولن يحدث في ظل هذه الأجندة التعليمية الملغمة، لكن ستسمع بالتأكيد أناشيد لها رائحة الدم والقبور، وتقديس الزعيم كـ: "قلبي حديد، نهاري لظى، شربت كأس المنايا، فرش التراب يضمني وهو غطايا، حول الرمال تلفني، يهناك النصر يا قائدنا، وهنيئاً لشعب أنت قائده..الخ".

فهل هذه هي طفولتنا من شرق الوطن إلى غربه، شماله وجنوبه؟! هل هذا هو علمنا؟! هل هذه هي مدارسنا؟! أم ثكنات عسكرية؟ هل العاملون في حقل التدريس أساتذة تخرجوا من جامعات علمية أم مجاهدون تخرجوا من ساحات الرمادي والفلوجة، وأم المعارك؟

والنتيجة

أطفال مشوهون، حاقدون، كارهون للحياة، كارهون للآخر، أطفال يتدثرون بثياب الغباء، والعته، أطفال تختم على شهاداتهم ختم بأنهم "معجزاتنا تمشي على الأرض".

ونحن نعترف بأنهم معجزات لكن صنع خصيصاً لليمن، معجزات لا تعرف إلا عن طريق قوة العادة طريق/ مخلف واحد لا غير.. ولا تمشي إلا إذا ضربتها وقلت لها حي.. حيييييييييييي.

فكم سيتحمل هذا الكبد المريض والمعلول ابتداء من المأكولات السامة التي تنتجها أرضنا إلى ألغام ساحة العلم والمعرفة، إلى الفلذات التي تمشي وتتوكأ، وتتقيأ، وتدوس عليه!

أخيراً

يا تربية، ويا تعليم، ويا إعلام، ويا أهل المجتمع المدني، ويا حكوووووووومة:

لي ثلاث زهرات، وأنتم كذلك، كيف أستطيع أن أحميهن، وأدافع عنهن كأم من: مضادات وقذائف الموت، والجهاد، وتقديس السلطة أياً كانت التي تزرعها ساحات (العلم والمعرفة)؟ كيف أجعلهن يمتشقن القلم بجانب فرشاة الرسم، والدفتر بجانب آلة العود والبيانو، وبأن الغناء رسول المحبة..؟

ولا كيف تشوفووووووووو؟!

● «النداء»، العدد ٨٣، الأربعاء ١٣ ديسمبر ٢٠٠٦

(٢) الزي المدرسي.. لون العسكر والحِداد

أروى عـثـمـــــان

8

فلسطين وتآكل الحلم

(2) الزي المدرسي.. لون العسكر والحداد

لأن من ينظّر للفلسفة التعليمية في اليمن، ومنذ عقود من الزمن كائنات شـطبت كل الإبداع الإنسـاني في الفن والقص والشـعر والرسـم والتمثيـل والمسـرح، أغلقـت نافذة للتأمـل والتفكير. ألغـت العقل، جرمـت المنطق والفلسـفة، وحولت الحياة بكل تفاصيلها إلى عورة كبيرة مسـتفحلة. واستخدمت بدلاً عن ذلك ثقافة الرموز والطقوس والشـعائر الشكلية في الدين والسياسـة والثقافة، لتغدو ثقافة: تشميت العاطس هو الدين كله، والسلام عليكم بدلاً عن صباح/ مساء الخير، هي مسـألة حياة أو موت للهوية الإسـلامية، وجزاك اللـه خيـراً بدلاً عـن شـكراً، هو الإسـلام الحقيقي للمؤمن الحقيقي والاستمتاع بأغنية شعبية غزو فكري، وقـراءة أي رواية لنجيب محفوظ وغيره هي الكفر بعينه، وإذا لم يقل المرء عقب كل حرف أو إشارة "يا سبحان الله".. فالإسلام في خطر، فشدوا الرحال لإنقاذه من مخالب الفرنجة.

ونفس الشكل يطغى على السياسة من أن الديمقراطية خيارنا، وأن الإنسـان اليمني إنسان خمس نجوم (وقدوه بغران من الترف وعيشـة الملوك) أو ثقافة تسـتجلب شـعراء وفنانين من مختلف العالم، ولا يوجد مسرح، ولا سينما، أو قاعات.

الطالبات.. ضفادع بشرية، وسلاحف النينجا

فـي ظل هذا التشـيؤ خرج خبراء العلم والتعليم بمناهج مدرسـية مفرغة مـن العلم والتعليم تأخذ

شكل الدين لتفرغه من مضمونه على أنه رمز للطالب المسلم الحقيقي المختلف عن اللامسلم حتى لو صليا في سجادة واحدة، وبدأ هوس التنظير لدى هؤلاء بالتصنيف والجدولة بماراثونية عجائبية لتوزيع صكوك الإيمان الحقيقي، والكفر الأصلي بين الطلبة، ليصيِّروهم قنابل تتطاير شظاياها على الجميع باعتبارهم جند الله، وغيرهم جند الشيطان.

ولم يكتف هؤلاء المنظرون بالسياسة التعليمية للمناهج، بل وبجنون العظمة ارتكبوا -كما يقول صديق عزيز- فكرة الزي المدرسي، خصوصاً لبناتنا الطالبات، والذي لا يخرج عن لون القات، ولون العسكر، وأصبحت ترى الطالبات صباحاً ومساء، وكأنهن ضفادع بشرية وسلاحف النينجا، هبطن من عوالم ما بعد الخيال. طالبات تراهن حاملات أسفاراً (المناهج المدرسية) التي لا تقل خطورة وفتكاً عن الكلاشنكوف، والقنابل والألغام وأسلحة الدمار الشامل. فنتساءل هل طالباتنا سيتوجهن لمدارس مدنية أم سيقدن حرب عصابات في الغابات، مع العلم أننا لسنا نملك غابات فحسب، بل ولا حتى "شُجري".

الزي المدرسي (الأخضري) لم تبدعه عقول أصحاء، بل منظرون مثواهم جناح الأحداث، والمصحات النفسية، ذلك الزي الكابي الكابح للفرح، والضحكات، والانطلاق، بل كابحاً للحياة، فمن تلبسه يجب أن تكون عجوزاً تلوك ياالله حسن الختام، إن لم تكن عجوزاً تتحاور مع منكر ونكير -طبعاً ليس في

"ديمتها" العتيقة بل في القبر- سيقول قائل: إنه لون الطبيعة والخضرة، وأرد: إن رغوة القات لونها أخضر أيضاً.

عسكرة الطالبات

كل من الزي المدرسي والزي العسكري طالعان من تربة واحدة، فمثلما العسكرة رمز للولاء والانقياد الأعمى للقائد الأعلى وولي الأمر، وكذلك هو حال طلاب وطالبات المدارس، العزل من الأسئلة إلا من إجابات تتناسل إجابات ولا إجابات، تكرس طاعة عمياء لمنظري السياسة التعليمية من المدير، المدرس، حتى رئيس أو رئيسة الفصل، ويجب أن نقدم تعظيم سلام، وإلى الخلف در.

ونتساءل: ما هي الجريمة التي ارتكبتها بناتنا الطالبات ليعاقبن بزي كهذا، وبأسفار تغتال عمودهن الفقري الغض؟! لماذا نتلذذ باختراع العاهات المستديمة لبناتنا بزي كئيب وحقيبة متفجرات؟

الطالبة.. المستقيمة والسقيمة

وبنفس التنظير والتصنيف المريض، يتم تقسيم بين زي الطالبة المستقيمة الحقيقية النموذجية، الذي يحجب عورتها بإحكام (مدرسات يتلفظن بهذا اللفظ جهاراً نهاراً) فإذا ظهر جزء من ظفرها، أو جفنها، محت كل ألقاب الفتاة المسلمة المستقيمة. كما يجب أن يتميز الزي، باستطالة تجعله يكنس كل "قصع" و"أتناك" الحي، ويلتصق بكل مشمعات الشارع، ولا بأس من جرف أعقاب السجائر، والأحجار، والعوادي، وكل "الكداديف" طريق.. طريق، حتى يرتفع ميزان حسنات الطالبة التي تحملت كل ما يقذفه الشارع. فالطالبة المؤمنة ممتحنة، ويجب أن تبحث وتبتكر صنوف العذاب والتعذيب لتدخل الجنة.

أما الطالبة غير المستقيمة (القليلة الحياء) هي التي تتزيأ بالأخضري، لكن حجابها، لا يسدل على (كنوزها) الأمامية والخلفية، بل والأدهى من ذلك، لا يجرف قمامات الحي، بل وربما يخترقه شعاع الشمس، والنتيجة: ضاع الإيمان و"راح فطيس". لذا يجب أن يكون حجم الحجاب بحيث لا يقل عن "طراحة" أو بطانية "كمبل" عسكري أبو خط أحمر، حتى لو كان بدون صرف كدم.

كتب + ونش

وكلما كرس العسكر (الأساتذة والأستاذات) علم العورة في الطابور والفصل وأوقات الراحة، زادت من سماكة الزي الأخضري، ولا مانع من أن يفصّل الزي المدرسي في العام القادم من نوع السجاد الغليظ، ويتميز بأن يكون أثقل وأحكم وأفتك من "الطربال" بحيث عندما تتحرك العورة (الطالبة) إلى مدرستها، تكون مختومة من كل الجهات. ولذا نقترح على وزارة التربية والتعليم ومنظري السياسة

التعليميـة أن يصرفـوا للطالبة بجانب الكتب "ونش" من نوع خاص، حتى يحمل العورة بأسـفارها.. وللمدرسة في عوراتها شؤون.

بالأسود كفَّناها:

فـي الطـرف الآخـر سـترى الطالبات وهن يتدثرن بالأسـود الحـداد الدائم، فما الـذي يحدث؟ وهل هؤلاء الطالبات اللاتي لا تقل أعمارهن عن السابعة، ولا يتجاوزن العشرين طالبات أم فرق موت؟ هل سـيذهبن إلـى المدارس، أم لتنفيـذ عمليات انتحارية؟! -انظروا لعصابة الـرأس وحدها- أعتقد إذا لم يكن سبيلهن هو العمليات الانتحارية، فمن المؤكد أنه الشقيقة والصداع المزمن.

فتلـك العصابـة السـوداء لا تختلف، جملـة وتفصيلاً، عن عصابـة "جمل المعصرة" الـذي لو نزعت عصابته، واكتشف أن مالكه يشتغل به ليل نهار، لحقد عليه وافترسه.

فالساسـة التعليميـة، التـي جرمت الإبـداع بكل أشـكاله، أنتجت هـذه الكائنات التي تشـبه جمل المعصرة.. وإن استمرت هذه السياسة بمثل هذا الابتلاع للحياة، قطعاً ستحول طالباتنا، وبناتنا إلى كائنات بأربع قوائم.

وإلا كيف تشوفووووووو؟

● «النداء»، العدد ٨٤، الأربعاء ٢٠ ديسمبر ٢٠٠٦

(٣) تحية الألم: الله - الوطن - الثورة - الوحدة

أروى عـثـمـــــان

(3) تحية الألم: الله - الوطن - الثورة - الوحدة

خلال سنوات عمري التي قضيتها في التعليم في المدارس (١٢ عاماً)، وتدريسي في المدارس لمدة ٨ سنوات، بالإضافة إلى ما عرفته من خلال تعليم أطفالي، ومن أعرفهم: إن تحية العلم ما هي إلا تحية الألم بكل مقاييس الألم النفسي، والخلل العقلي، والاعتوار الجسدي.

ولا أبالغ -ولا أمتلك الرؤى السوداوية في حديث كهذا- لنحدق قليلا في هذه التحية السرمدية القهرية التي شنجت رقابنا وعمودنا الفقري لعقود من الزمن تحت علم ممزق أغبر، أدبر، مليء بذرق الطيور. هذا العَلم الذي لا يختلف عن أجندة تعليمنا، وأنتج المزيد من التهتك والتمزق العقلي والوجداني لطلابنا..

ما سر تحية الألم/ العَلم التي ونحن صغارً وكبار، نؤديها في الشموس، وعز البرد، نتخشب ونذوب لأجل هذه التحية المصحوبة بالمارشات العسكرية، والزعيق الصارخ صفاه - انتباه ٣/٢/١ إلى الخلف در، والى الأمام اطلع، وإلى الخلف انزل، وإلى الشمال "اتكعدل" وإلى الشرق اقتلب. سنوات عمرنا وعمر أطفالنا، ونحن نتقفز على خطوط الجهات الأصلية والفرعية، حتى مدارات الجدي والسرطان سُرمدنا عليها لتحية العلم "تحيا الجمهورية/ تحيا الثورة/ يحيا الوطن... إلخ".

تحية العلم/ الألم في ساحة (العلم والمعرفة) ليست رياضة تحرك الدورة الدموية للطلاب، كما

غرسوا في عقولنا، و"غرّزوا" بها يلعبون بها ككرة قدم، بل على العكس تسمم الدورة الدموية. فكيف تكون رياضة، وعلى حد علمنا أن حصص الرياضة ألغيت، مثل الفنون، بحجة الكفر وأنها ستعلم البنات القفز و"الشلخات" ومن ثم سيضيع شرفهن وشرف العائلات والمجتمع والتاريخ!

يتحول الطابور، المعد أصلاً لتحية الألم، والأناشيد الوطنية الهادرة إلى معسكر، ويتحول الطلاب والطالبات إلى جنود مبتدئين، أما أساتذة الطابور فهم كأي قائد عسكري يحاول أن يثبت حنكته في لجم أي حركة خارجة عن الطابور، لكن حنكته تفشل في الفصل عند شرحه للدروس.

يجب أن تكون زعقته المارشوية ذات قدرة على اختراق جدران المدرسة، فوق تشققاتها المتراكمة حتى يثبت أن الوطنية في هذه المدرسة تفوق وطنيات المدارس الأخرى، ومن ثم يثقل ميزان حسنات: الله/ الوطن/ الثورة/ الوحدة -فلا أدري كم الزعقة/ الصرخة الواحدة تساوي في ميزان الحسنات ومقدار تخشب الطلاب وطاقم التدريس لتحية الألم- يقال إن هذه الحسنات هناك من يرصدها لتصل إلى أبواب الحكومة من أن المدرسة الفلانية تمتلك فيلقاً تصهر الفصول، والكتب، والطلاب وتحولهم إلى سوائل تفور وطنية.

على حد علمي كم من الطلاب وخصوصاً الطالبات (بحكم التكوين الفيزيولوجي) يُدخن، ويتكسحن وهن واقفات مثل عواميد الكهرباء لتحية الألم، فلا مجال لعفوهن أمام سلطة قدسية تحية الألم.. بل

على العكس كلما اشتدت أمراضهن وغرزت في أجسادهن اكتسبن أجراً وثواباً فداء لعلم الوطن.

ففي سبيل تحية الألم يجب أن نجوع، ونعطش، وندوّخ، ونتكرضح، ونتدقدق، ونشل، ونموت فداء لهذا الألم المقدس: "الله – الوطن – الثورة – الوحدة" العمود الفقري للعَلم، رباعي مقدس لا يمكن أن يمر يوم دراسي دون أن تنتفخ لوزنا وتلتهب ونحن نسبح بحمد هذه المقدسات، بل تشحذ عقولنا بأن الموت أفضل إذا لم نؤدها بالمسطرة..

لقد أفرزت مقدسات تحية العلم ثنائية مريضة لدى طلابنا، ليس فقط بتقديس الأركان الأربعة حد الهوس اللاطبيعي، بل بالموت إذا لم نتمثلها بالشكل الذي تريده منظومة تحية العلم.. فمثلما ظهر شعار "الوحدة أو الموت" ينطبق على بقية الأركان: فالثورة أو الموت، والدين أو الموت.. هذه الثنائية هي نفسها الثنائية الملغمة في كتب المدرسة، بل وفي حياتنا الفكرية والوجدانية وممارساتنا اليومية.

فأي خير نتوقعه من هذا التعليم الذي يُصرف عليه مليارات، ومخرجاته أجيال يستخلفون الأرض والشجر والحجر، متأهبون للاستشهاد لأي مقدس ابتداء من الله والوطن والثورة والوحدة إلى الاستشهاد من أجل البطاط، والطماطيس، والبلسن، والبرعي، وأجرة الدَّباب.

تحية الألم بمقدساتها الأربعة تجعل الطالب متيقناً بقطعية مطلقة أن الله حقه وحده، وكذلك الوطنية، والثورة، والوحدة، ملك له، فوطنه هو الوطن الحق، وبقية الأوطان كاذبة خادعة، ودينه هو الدين الأصلي، وبقية الأديان لا وجود لها، وكذلك ثورته ووحدته، حتى بطاطه المليء بالسموم هو البطاط الذي لا يضاهيه بطاط الكون، كل الأمم والشعوب لا تعرفه، ولأننا خير أمة، فبطاطنا خير بطاط.

السؤال الأهم إذا كانت تحية العلم في ساحة العلم والمعرفة تحفل بالمقدسات الأربعة، فأين العلم من هذه المقدسات؟ وكأن الله/ الوطن/ الثورة/ الوحدة، المقدسات الوحيدة، أما العِلم ليس مقدساً بدليل لا وجود له في المقدسات الأربعة، بالرغم من المقدسات تنطق في أماكن العلم/ أي المدارس؟

كان من المفترض أن تحية العلم مادامت تمارس في ساحة العلم والمعرفة يكون العِلم في المرتبة الأعلى من تلك المقدسات، بل عبر العِلم سنعرف الله، وسنعرف الوطن، والثورة، والوحدة.

إذن هي مدارس لا علاقة لها بالعِلم البتة، هي مساجد ومعسكرات فقط لا غير.

في اليمن، مثل بقية الدول العربية، تجند الأجيال على مدى عقود من الزمن ليس للعِلم والتعليم، بل للعَلم (بفتح العين)، علم حكومات العساكر المتعاقبة، ومدارس أشبه بالمتاريس، وأرى أن يحول اسم "مدارس" إلى "متاريس" لتثبيت اليقين، وتعليم فنون الآخرة.

ولا كيف تشوفووووو!!

● «النداء»، العدد ٨٦، الأربعاء ١٧ يناير ٢٠٠٧

تجـــــريم.. لحـظـة حـــب

أروى عـثـمـــــان

تتصـل بي إحدى صديقات الطفولة على الدوام، وتهرق في كل اتصـال وفـي كل مقابلة كؤوس الندم الهسـتيري على اسـتراق لحظة جميلة فعلتها ببراءة أثناء دراستها الثانوية.

أحبَّـتْ صديقتـي. هـذه كل جريرتهـا. وحبهـا لـم يتعـد "خرجتـين" إلـى مـكان قصـي، موحـش، لا يمر فيه إنسـي ولا جنـي. الحركـة فيـه خـوف ورعـب يستشـرس فـي قلبهـا الصغيـر. الرجفات المتسـارعة وبـرودة الأطراف ونشـفان الريق ليس من خفقة الحـب لمقابلة الحبيب، وإنمـا من الخوف لـو افتضح أمرها، ولـو مر طيف "مصلـح مـا/ حامـي حمى الشـرف" فيهلـل ويكبر أنْ رزقـه اللـه بفضيحـة، مـن خلالهـا سـيصول ويجول ليحارب الفسـاد والرذيلـة والانحراف، ثـم يقودهـا كالذبيحة إلى أي سـجن، لتتخرج منحرفـة بامتيـاز، كما هـو حادث في سـجون النسـاء المكتظة بعشرات الشابات اللواتي كانت جريرتهن خفقة الحب اللعينة تلك.

في تلك "الخرجتين" القاتلتين لم تتعد سـرقتها قُبلة مرتعشة باردة مـن الخـوف والرعـب، أو لمسـة حانية، وكلمـات متقطعة لا تلتئـم. فضاع الحب والهدوء النفسـي، لسـماع كلمات الحب واللوعة والشـوق، وتبادل النجوى، فقد كان الحضور طاغياً لحـرق الأعصـاب لمملكات ترضع تـراث الخوف، وتحيي تقاليده لآلاف السـنين: تُدنـس الحب، وتقتل الوجد، وتحرم النجوى، وتقتل المرأة العاشـقة مليون مرة، ويخرج الحبيب الفاتح مقدسـاً، منزهاً عن

كل خفقة، دينية أو اجتماعية (لننظر إلى عقوبة الاختلاء مثلاً).

هذا كل ما فعلتْه صديقتي.

تكييس الفراشات

أتتني صديقتي قبل سنوات، خيمة سوداء، بلا حياة. لم أعرفها، ولن أعرفها، حتى لو كشفت عن وجهها، وخلعت أكياس أيديها وأقدامها وكل جسدها. روحها الشفافة التهمتها أكياس الخطيئة والدنس. تكيست ضحكتها المجلجلة، ولمعة عينيها، والصخب الذي كانت تملأ به أي مكان تحل فيه. صديقتي الفراشة الشقية التي كانت تملأ أجواء المدرسة والبيت بالضحك والتنكيت. لا تستطيع في حضرتها أن تنطق كلمة، دون تعليقها الذي يخلف الضحكات الصاخبة. صديقتي الشقية تُذوِّب عتمة الفصل، وتجاعيد وجوه الأساتذة المتجهمة (خصوصاً أساتذتنا المصريين)، فتضحك الوجوه والجدران والسبورة وطباشير الكتابة.

صديقتي تعشق الحياة، والغناء والرقص. حفظتُ منها أغنية "تك، تك، تك يا ام سليمان.. تك، تك، تك جوزك وين كان" ونحن في الصف الرابع، ولم أكن أعرف لمن هذه الأغنية. وعرفت من خلالها أغاني عبدالحليم. كنت أتمنى أن ألبس مثل ثيابها على الموضة، وأن أرقص الرقص الغربي على أنغام مادونا سمر، والشرح اللحجي بطربية فيصل علوي، وأقرأ روايات عبير (فأنا في تلك الأيام كنت مشغولة بقراءتي الجديدة عن الطبقة العاملة والبروليتارية الرثة، وما قاله ماركس، وما رد عليه إنجلز ولينين... فضلاً عن ثقافة العيب في بيتنا).

هذه هي الفراشة الشقية. صديقتي التي صلبتْ جسمها وروحها في أكياس سوداء معتمة لا تصلح إلا للنفايات وجثث القتلى في الحروب، بل وصلبتنا معها. فمن أين لنا روح صاخبة تخربش العتمة، وتستفز السكون؟

صديقتي الجديدة أصبحت شخصية هرمة، كابية. لم تكتف بالتكييس العقلي والروحي والجسدي، ولا بالصلوات الكثيرة المتدفقة في كل الأوقات، ولا بانخراطها حد الهوس بحلقات "الكيسنة" في المساجد، والبيوتات، والمدارس، تحت الأرض، وفوق السماء، لتخفف وطأة دنسها المتناسل بذاك الحب؛ بل خلدت إلى قبر، ولا بد أن ينضوي الجميع في تلك الحفرة.

نجاسة

انقلاب حياة صديقتي رأساً على عقب مربوط بتلك الخفقة في ذلك المكان المقفر. فحياتها كلها نجسة، ملوثة بالخطيئة، وقد انتقم الله منها، وحل عليها العقاب الأبدي. فكل انتكاساتها الحياتية، وظروفها الاقتصادية المتقلبة، هو نتيجة لتلك الخفقة!

وكلما دخلت حلقة دينية، حاملة نجاستها معها، ليخف ثقلها، خرجت بأغلال أثقل وأعظم لنجاستها. وكلما كثرت سجداتها، وهوسها بالأذكار وكتب القبر، أحست أنها أكثر دنساً من ذي قبل.

فلـم تعـد الصلاة والقرب مـن الله يغفر الذنوب، كما نعرف، بل يذكـي هجيجها، ليحولها إلى جريمة لا تغتفر.

فراشـتنا أصبحت سـاقية من الدموع، تبكيتاً وندماً على الدوام. وموقنة -بقطعية- أن هذا العقاب الرباني سيظل يفتك بها حتى آخر يوم في حياتها، بل وسيلازمها في آخرتها أيضاً.

ثقافة الحرام

تجريم الحب والعلاقات الإنسـانية الجميلة، تتحـول تحت وطأة ثقافة الحرام، إلى خطايا وجرائم لا تغتفـر. خفقـة صديقتي لا تتعدى لحظة مجتزأة من أفلام الأربعينيات، بل لحظتها المرتعدة تقتل كل رومانسـية. فكيف تتحول اللحظة الطبيعية في علاقة الأنثى بالذكر إلى نيران مسـتعرة، وكلما نشـب استعارها واضطرم، بالغن في التدين وحرَّمن كل شيء؟! يحاصرن حياتهن بالاختناق، وتتسع مساحة الاختناق لتشمل الأطفال والبيت وكل ما حولهن. أما نزعات الشك والريبة فهي تطال كل شيء!

صديقتـي المتكهلـة تخـاف عليّ مـن إغراقي فـي الضلالة والجاهليـة الأولى. فهـي جاهدة تحاول أن تحيدنـي عـن حياتي المليئـة بالآثام، فتهديني بعضـاً من أكياس الفضيلة من كتب مبشـرة بالموت والآخرة، وأشرطة بكائية مأساوية تجرم اللفتة والإيماءة، بل وما داخل النفوس والعقول، والضحكة، وكل مـا هـو إنسـاني جميل. ترميها لي وتقول: "علها تشـفع لك يوم القيامـة" وتمتص آثامي من أول روايـة قرأتهـا (آنا كارنينا) مروراً بخفقات الحب في ضوء الشـمس والقمـر، التي "ارتكبتها" وأنا في الجامعة، إلى كتب الفلسفة والقصائد.

كفن وريحان

نسـيت أن أخبركـم أن صديقتـي أيضاً لا تنـام. تقوم الليل وهـي غارقة بالدمـوع الحارقة؛ فالدنيا غرورة، ضيقة مثل اللحد، كخرم إبرة، مكّارة. والحياة الآخرة هي الحياة الحقيقية. الآن تنتظر الموت. بـل لقـد جهزت كفنهـا للحياة الأبدية. كفن يلازمها ليل نهار. حتى قوارير العطر، و"مجاول" (أصص) الريحان يزدان في حوش بيتها، ليس للاستمتاع، بل هو واكف جاهز للحظة أن يوافيها الأجل. وهي الآن تجتزئ من لقمتها ولقمة أولادها لتشتري تابوتاً.

صديقتي المنتظرة للموت نسيتْ أنها قد تجاوزت البرزخ، فهي ميتة منذ أن جرمت حبها، ولم تُمِتْ نفسـها بـل وتميـت أطفالها وزوجها، فالبيـت والحياة ما هما إلا قبر صغير ملـوث بالخطيئة التي لا تغتفر ولن تغتفر.

قبل سنوات كانت صديقتي على أتم الاستعداد لأنْ تتخلى عن كل مسؤوليتها تجاه أطفالها القُصَّر، وتتوجه إلى أفغانستان لمقاتلة "الفرنجة الكفار". وهي الآن مستعدة للتوجه إلى الرمادي أو الفلوجة، وتقول إنه سـيدخل الجنة من سـيتبرع لها بحزام ناسف لتقتل الشـيعي، والكردي، والسني... المدني

قبل الشـرطي. أتعرفون؟! كانت أحلامنا آنذاك -في معمعة اجتياح بيروت في الثمانينيات- أن ندافع عن فلسطين.

شيخات الموت

المحزن أنه لا يكفينا تجريم العادات والتقاليد، وانتقاصنا ودونيتنا في ثقافتنا الشعبية والرسمية والدينية، بل تزيد أخواتنا الشـيخات، الأميرات، المفتيات في تأثيمنا ونحن أحياء، بل وجعل حياتنا خرقاً أسـود، موتاً نترنم به ليل نهار. فكان مفترسـان يفترسـاننا أحياء وأمواتاً: هذا التأسلم الديني السياسي، وجور الموروثات.

والمفـزع أكثـر أن ثقافة التأثيم والتجريم تتفشـى فـي المدارس بين طالباتنا وبناتنا. ومن يسـتمع لأطفاله سيجد ثقافة القبور، ثقافة الموت، تنضح من عقول ونفوس أطفالنا.

ألا يكفي أن الحب، هذا الترنيمة الأسـمى في الحياة، مدنس من وطأة التقاليد، يزداد دنسـه بفعل هذه الجماعات؟!

أمم الاستغفار

هذا الجسـد العربي المحاصر، والروح المحاصرة بآثام متعددة من آلاف السـنين، ماذا سـينتجان؟ ماذا سيبدعان؟! ما نراه إنما هو إبداع الاستغفارات والتمتمات والاستعاذات الدائمة بشكل هستيري، ونصائـح البنوك ووسـائل المواصلات والوزارات الحكومية والطرقـات: إذا وجدت ثانية للتنفيس، لا تتنفس، بل استغلها في الاستغفار، فـ"اجعل دقائق الانتظار بالاستغفار".

هذا الطوفان الذي جرم لحظة حب مرعوبة عند صديقتي، هو المسـؤول عن تحويلها إلى شـخصية سيكوباثية مركبة، سادية ومازوخية تتلذذ بالعقاب، الفصام لسان حالها، فلا تدري ماذا تفعل!

أنا أيضاً عاجزة: ماذا أفعل حيال صديقة الطفولة؟! كيف أسـتطيع أن أجدد ذكرى سـطح بيتنا في "حوض الأشـراف": أن نأخذ كتبنا، وأكواب الشـاي الأحمر بالنعناع، نقذف بالكتب المدرسـية جانباً، وعند أسوار السطح نغني: "أول مرة تحب يا قلب"، ونرتشف الشاي الساخن... آنئذ يكون جبل صبر وقلعة القاهرة قد استفاقا من قيلولتهما يفتحان ذراعيهما مرددين معنا:

"إفرح واملا الدنيا أماني

لا انا ولا إنت ح نعشق تاني".

فكيف تشوفووووووووو؟!

● «النداء»، العدد ٨٧، الأربعاء ٢٤ يناير ٢٠٠٧

وداعاً وريقة الحناء

سـؤال المـرأة فـي المحكـي الشعبـي* (١)

أروى عـثـمـان

وداعاً وريقة الحناء
سؤال المرأة في المحكي الشعبي* (١)
شاشة 15

بدلاً من المقدمة:

ارتأيت في هذا البحث، وبالأحرى القراءة (وداعاً وريقة الحناء)، أن أدخل عمق الحكاية الشعبية، نظراً لأن الحكاية أكثر أشكال التراث الشعبي قرباً إلى نفسي؛ فهي، بجانب الأغاني الشعبية، تمثل لي شرياناً أنهل منه في كتاباتي، أكانت القصصية أم الكتابة الأخرى.

كنت قد قمت بجمع الكثير من الحكايات الشعبية لأكثر من عقد من الزمن. وتعمق خلال ذلك احتكاكي بالريفيين والبسطاء الذين حفزوني لأن أتوغل في متن المحكي الشعبي، والفلكلور بشكل عام.

لماذا "وداعاً وريقة الحناء"؟

برغم شغفي بالحكايات، إلا أن هذه الحكاية لها طعمها الخاص، فأنا وجيلي، بل وطفلاتي، مثلت لنا "وريقة الحناء" الحلم الجميل واللذيذ الذي كنا نتفيأ ظلاله من خلال بطلته: وريقة الحناء. فكل فتاة منا تتماهى بشخصيتها، ولكم حلمنا بفستانها الحرير الذي منحته إياها الساحرة لتحضر به حفلة ابن السلطان، وكم تمنينا أن نغتسل في مياه "البركة" الراكدة حيث كانت تغتسل، وأن نخرج منها ونحن مكسوات بالذهب والجواهر، وأن يكون لدينا حذاء مثل حذائها

نتركه بعد تعب الرقص مع ابن السلطان، فيأتي جنده يحملون الحذاء ويطرقون الأبواب ليعرفوا من هي صاحبته. فنغيظ خالتنا، وأختنا "كرام" حتى ولو حولتنا إلى "جولبة" تظل تطير وتبكي وتنتحب حتى يسقط المطر، ولا ضير إن غرزت خالتنا أجسامنا بالإبر، فابن السلطان حتماً سيأتي وينزعها، بل وسيأتي بالساحرة لتحيلنا مرة أخرى، وريقة الحناء، ونعيش سعيدات في القصر السعيد!!

كانت أحلاماً لذيذة، لذة طفولتنا المنسية، كبرنا ولم يرسم في هويتنا الحناء، ولا حتى أوراقه، ولا ساحرة تلألئنا بفستان حرير، ولا رقص في بهو السلطان، والحذاء ضيق كضيق حركة أقدامنا، وقبله ضيق ذهنياتنا، هذا الحذاء لا يريد أن يضيع في سلالم القصر أو في الشارع، إنه حذاء صامت لا يعرف الرقص، حذاء مازال يتوسدنا.

ولذا وداعاً وريقة الحناء، حتى وإن كنا نحتاجك في أوقات كثيرة –والليل أشد الأوقات التي نحتاجك فيها.

أعتقد، أنه لا بد من وقفة، قطيعة مع الخيال المحكي، ولا ضير في أن نتصالح، وننفصل معه، وإلا فعصا الساحرة لن نجدها إلا معقوفةً لتنهال علينا. وكذلك الجن والكائنات الغيبية ستذوب، وتذوبنا معها، ونصبح خارج الحكاية، وخارج الحياة أيضاً.

نريد أن نتقاطع مع المرأة داخلنا، والمرأة في متن الحكاية. لن نكون وريقة الحناء، إلا متى أردنا أن نكون، وفي كثير من الأحيان يجب أن نكون نحن.

"وريقة الحناء" مثلها مثل كثير من بطلات الحكايات الشعبية، حيث المرأة البطلة منطمسة، لا اسم ولا هوية. ووجودها مشروط بأن تكون إما ضحية، وإما العكس: شيطانة!

وفي كلا الحالتين يتوجب الركون للعوامل المساعدة: جني، إنسي، حجرة، شجرة، ذبابة، طائر... إلخ.

ستبقى في داخلنا وريقة حناء، وريقة الجنة، وريقة الحب والمحبة. وسنحتاج أن نمد أيدينا في يديها، وأن نطرح رؤوسنا على حجور جداتنا الساحرات، ونسمع دعواتهن: "زادكن فوق عقولكن عقول" لكن لا بد أن نقول لـ"وريقة الحناء": وداعاً.. وداعاً.

قُسِّم هذا البحث إلى عدة فصول:

الفصل الأول: عن الحكاية/ افتتاحات. يتعرض عبر السؤال: لماذا تنتقص الذهنية الذكورية من المحكي الشعبي؟

الفصل الثاني: أخزاق المحكي.. أخزاق اللغة. وهو يتناول المرأة في النصية الفلكلورية، حيث يتعرض إلى صورة المرأة في التعابير الشعبية، والأقوال السيارة، والحكم الشعبية.

الفصل الثالث: من بلقيس إلى مسعدة.. ثقافة تنكيس وتكنيس الملكات.

والفصل الرابع: في الليل تزهر الحكايات. يتناول تحليل مضمون الحكايات، ويتعرض إلى تفكيك بنية الحكاية الشعبية، وتحليلها. وقد اخترت ثلاث حكايات شعبية: "الجرجوف"، "جليد أبو حمار"، و"صاحبة التويقت".

اعتمدت في هذه المقاربة على المنهج التحليلي للتفكيك والحفر في متن الحكاية الشعبية، وخصوصاً الحكايات التي تلعب المرأة أدواراً أساسية فيها. إنه تحليل وإعادة قراءة للنصوص بلغة مفارقة لما كان ثابتاً وراسخاً في ذهنياتنا منذ آلاف السنين.

استندت في هذا الإبحار إلى نصوص الحكايات الشعبية الواردة في: "حكايات وأساطير يمنية" للأستاذ علي محمد عبده، و"حكايات شعبية يمنية" للأستاذ محمد أحمد شهاب، و"قراءة في السردية الشعبية اليمنية + ٧٠ حكاية شعبية" للباحثة صاحبة هذه الدراسة. كما استندت إلى كتابين مهمين يلعبان، إلى جانب كثير من الرؤى التقليدية، دوراً هاماً في تشكيل الذهنية اليمنية ورؤيتها للمرأة، وهما: "قضايا اجتماعية في الأدب الشعبي اليمني" ترجمة ودراسة وتحقيق/ جانيت واتسون، وتأليف مسعد ومسعدة/ عبدالرحمن مطهر، وهو البرنامج الشهير الذي يعبر عن وضع المرأة داخل أقبية الأعراف والدين، والقوانين للسلطات الأبوية الذكورية والقبلية.

ثم أجزاء من كتاب "القضاء في اليمن" للقاضي الدكتور يحيى بن محمد هاشم الهاشمي، عضو محكمة استئناف محافظة حجة، عضو جمعية علماء اليمن، الذي يستند إلى الفقه الأسود في رؤيته للمرأة.

إنها "عقلية القبة/ العمامة" مثلها مثل بطن الجرجوف المعطوفة "سع" (مثل) قبة الصوف. هكذا هي المرأة في عقولهم.

إذن وداعاً وريقة الحناء/ الخارجة من خصوبة الليالي. وداعاً لمسعدة، المرأة الخارجة من بطون التراث الأسود، والأيديولوجية المخصبة للإرهاب والاستقصاء والاستئصال. وداعاً للمرأة التي

مازالت أسفل غمد الجنبية(*)، ومازالت تقبع داخل فوهات البنادق، وتتكدس داخل أحزمة الرصاص. وداعاً مسعدة يا "أم المال والرجال"، يا "أم القبيلي العسر".

لا نريد هذا المناخ الذكوري الخالص الذي خصب بذكوريته كل شيء، جاوز بمفعوله تخصيب اليورانيوم، وأصهر كل شيء يمت بصلة للإنسانية، فصنع وريقة الحناء، وصنع مسعدة.

عالمنا لم يعد يستوعب ثنائية اللوغوس، والأيروس، العقل للرجل/ مسعد، والغريزة للمرأة/ مسعدة، الكون أرحب يتسع بالمحبة لكل الكائنات بلا قطبيات، ولا ثنائيات مريضة. نحتاج لحركة الكون، وللفصول، ونحتاج أكثر للربيع، وأكثر للمطر، وأكثر للإنسانية.

هذه القراءة (وداعاً وريقة الحناء) التي تعد مدخلاً لتناول الطرف المقصي المطموس المخصي (المرأة) في المحكي الشعبي، وسوف تليها دراسات في المستقبل.

وقد أنجزت هذه الدراسة بتكليف وبمباركة ودعم من منظمة اليونسكو، وتواصل الأستاذ الدكتور علي محمد زيد. وأشكر الدكتور أحمد الصياد، مدير عام اليونسكو. ولا أنسى فضل مكتبة الإسكندرية هذا الصرح العظيم، الذي جعلني أقرأ برؤية جديدة، أثرت وستؤثر في مجرى حياتي، إنه مشروع المرأة والسلام الذي ترعاه صاحبة الفكرة السيدة سوزان مبارك. الشكر العميق والعرفان لهؤلاء، ولكل من: الدكتورة عزة الخولي منسقة المنحة، وإدارة مكتبة الإسكندرية.

وأخيراً الشكر الجزيل للأستاذة القديرة أمة العليم السوسوة وزيرة حقوق الإنسان التي سارعت إلى ترشيحي عقب استلامها أوراق اليونسكو من قبل أمينها العام في اليمن، لترشح من تراه مهتماً بموضوع "المرأة والتراث الثقافي".

للجميع حبي وتقديري..

مدخل فواصل الضديات

سأستعرض في هذا البحث صورة المرأة في الحكايات الشعبية بملمح أنثروبولوجي/ اجتماعي/ نفسي، وسأحفر في اللامحكي، المخفي/ المسكوت عنه، أو كما أسميته "تحت/ أسفل التختة" أي أسفل الصندوق أو أسفل الشنطة.

فكما يقول رولان بارت: "لا يوجد شعب لا في الماضي ولا في الحاضر ولا في أي مكان من غير قصة"(١). ونحن في هذه الاقتطافات نريد أن نقرأ هذا المخزون بمنأى عن القراءة المسبقة والشمولية التي لا تتجزأ. القراءة الأولى وكفى.

سوف أحرص على أن أقرأ ما بين السطور وبالأحرى ما تحت السطور، ووراءها واستكشاف الخفايا والخبايا التي تمثل الجزء الذي نفتقده في هذه القصص الكونية -كما يطلق عليها- لنعرف كينونتنا أمام هذا الكون الكلي.

لا أريد أن أطرح الرجل في المقابل الضدي للمرأة، فيصبحا النقيضين اللذين لا يتفقان أبداً، الشرق والغرب اللذين لن يلتقيا. نريد أن نتمثل كما تقول الأسطورة اليونانية: "أن أصل الإنسانية ذرة انفلقت نصفين أحدهما الرجل وثانيهما المرأة، وظل كل نصف يحن إلى النصف الآخر حتى التقيا"(٢).

محاولة للتحرر من التي تتجه إلى التعاكس وتنزع إلى الترجيح بين القوتين، قوة الرجل مقابل هشاشة المرأة، الثور والحصان مقابل الحمامة والقطة.

في هذا المنحى سوف نعمد إلى نزع صفة المقدس عن الثقافة، وإلى تعرية الأيديولوجيات المتحيزة بإخلاص للرجل لحساب تهميش وإلغاء المرأة. تلك الايديولوجيات التي منحت -بكرم باذخ- المطلقات للرجل، والثنيات والانحدارات والهشاشات للمرأة.

وعليه فإن هذا البحث المتواضع محاولة لاختراق الثابت. محاولة لتفتيت نصية الوهم باسم المقدس، تقويضها. محاولة لفضح استشراسها المتلون داخل الثقافة النصوصية التي جعلت كلاً من الرجل والمرأة يتعبدان بمحرابها، ويكونان عبدين للثقافة.

عبدا الثقافة النصية (المعممة)، (الرجل والمرأة)، صدّقا، وآمنا بصنمية وأخلاقية "القوة للرجل، الآلهة القادرة على كل شيء. والتبعية للمرأة، الممتثلة والمنفذة للقداسة المزيفة للآلهة الصنمية الذكورية. ولا يخفى على لبيب فضل الرجال على النساء. ولو لم يكن إلا أن المرأة خلقت من الرجل فهو أصلها وله أن يمنعها من التصرف إلا بإذنه فلا تصوم إلا بإذنه ولا تحج إلا معه"(٣).

ونسيا في غي أمرهما أنهما: السيد (وهم السيادة والتماهي بها)، والمرأة العبدة، وتمثلها والتماهي بها). نسيا أنهما عبدان لهذه الثقافة الصنمية/ المعممة، أو الخارجة من رحم حداثة المظهر.

دائرة تكرر نفسها، وتتكرر فيها الأدوار، وحتى أشكال المقاومة لها مكرورة، ما يعني الانحباس في دائرة ولم نخرج بعد من أسر دائرة، أو بالأحرى تدوير جدلية السيد والعبد، وكلاهما عبدان للنص.

*** منح اليونسكو/سوزان مبارك/ الصداقة اليابانية المصرية لتمكين النساء في دراسات السلام وشؤون المرأة - (دورة ٢٠٠٥-٢٠٠٦)**

(*) الجنبية: خنجر يمني يتزيا به الرجال، ويتباهون به كرمز للفحولة والأصالة والشرف، والقبيلة.

■ **هوامش:**

(١) رولان بارت، مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص، ص٧، ترجمة د. منذر العياشي، مركز الإنماء الحضاري، الطبعة الأولى ١٩٩٣م.

(٢) الأستاذ عبدالله البردوني، الأدب الشعبي، ص٤٩.

(٣) د. يحيى بن محمد بن هاشم الهاشمي، القضاء في اليمن، ص١١٨، مكتبة خالد بن الوليد، عالم الكتب اليمنية.

● «النداء»، العدد ٩٢، الأربعاء ٢٨ فبراير ٢٠٠٧

وداعاً وريقة الحناء

سـؤال المـرأة فـي المحكـي الشعبـي* (٢)

أروى عـثـمـــان

12

وداعاً وريقة الحناء

سؤال المرأة في المحكي الشعبي* (2)

الفصل الأول: عن الحكاية

مفتتح

قالت الجدات: عندما يأتي الليل، تأتي حياتنا، نستردها بعد استلاب، دام ضوءاً، وشمساً، وريحاً، وبرداً. دام شهرزاد، ووريقة الحناء، وجرجوف، وسلطان الزمان، وسيد المكان. دام الذكورة الوعرة. دام الأمومة والخصوبة المفقودة. دام حبة رمان، وحبة مرجان. دام بضع بلحات، وقرون الدبا/ القرع. دام الهواء، والنور، والظلمة. دام الضحكة، والاغتسال في بركة الغمز واللاغمز. دام في بركة الماء الراكد الصامتة. دام طائر النار، والغراب، والجولبة. دام البساط الطائر، وعصا الساحرة، وكُم الثوب/ الزنة، وأثداء أمنا الذئبة. دام ضاط وضاطة، والقميص الطقطق. دام الحضور، وقبله الغياب. دام بنت الحطاب، وبنت صين الصين، وذات الوجه الأبلج. دام علي ابن الجارية. دامت كنزاً، فلم نجد الكنز سوى الأرض. دام أحمد شوربان، وحقل مزروع، وبقرة تاهت طريقها، وثور ينطح الهواء، ثور يغيب، هو غائب، لكن حضوره مستبد، طاغ إلى أقصى حدود العتمة، وحصان جموح يعتلي الغبار في صحراء الوهم والسراب، خيل طوح بغبار

حوافره فراشات لا تأتي إلا في الليل تستل من روحها المنهك. دام بلقيس، وقميرة البان. دام الحكي. دامت الحكاية.

حكاية ينشتل بذورها ورداً في أتلام الليل، ويتضوع زرعها بالنسمات الملقحة، تدخل التلم، تغوص في مسامات التربة، أعمق، وأعمق، تسقيها بدموع وعرق، وأمزان، زخاتها طويلة طول الليل، فتبزغ: "كان ياما كان!".

كان، حيث يسمع ويدون. كان، هو، كان، حيث الورقة والقلم، والعقل، والذاكرة.

كانت هي الليل، حيث تحكي، حيث تنهيدة ولسان، حيث حلمة تتشقق متفجرة بالحياة.

كان هو المتن. وكانت هي الهامش، المقصي، حتى أصبح هو كائناً ويكون، يكون سرمدية المبتدأ والخبر.

في محطة متقيحة من تسيد الكان ويكون، ظهر الهامش ملتحفاً بالحكاية حيث العروق المتفجرة باللبن. قالت: أنا أكون الآن، آه! آه! لا بد أن أحكي، أن أكون..

السُّمَّاية القذرة

ما انفك القائمون على الأدب، والقائمون على الفقه، رسميو الفكر والثقافة، ينعتون المحكي الشعبي، بالسُّمّاية، الحُزاية، الخريفات، سمامي مكالف[١].

ولا ندري لماذا الاستصغار، وتكريس دونية هذا الإبداع الشعبي؛ هل لأنه شعبي؟ أم لأنه مرتبط بالمرأة، تبدعه، وترويه، للصغار؟

في غمرة التساؤل، يرد سؤال:

لماذا يظل الطفل متعلقاً بحضن جدته لتحكي له حكاية، وعندما يبدأ ينعت بأنه "رجَّال" -في اللهجة الشعبية اليمنية- رجال البيت، مَحرم النساء، يبدأ بالابتعاد عن حضن الجدة، ينكمش عن مجالسة أي أنثى داخل البيت، ليمارس الدور الرجولي، حتى وهو في السابعة من عمره، وكلما ثقلت عليه أردية الفحولة، انتشى وتوشى بتمزيق الحكاية، وتقطيع أوصالها، وردمها أسفل غمد الجنبية، وفي ركن قصي، حيث يخلع الفحولة، ويحن للحضن، ولسورة الحكاية؟

لماذا تظل الطفلة لصيقة بحضن الجدات، ولا تشبع من الحكايات، حتى لو رددتها الجدة ألف ألف مرة، تكبر وتشيخ وفي كل منبت تورق وتخضر مئات الحكايا؟

عندما كانت الوحدة والوحشة "سيكولوجية الوحدة"[٢] تساوي المرأة، كانت السماية/ الثرثرة/ النُّسيعات/ الحزاوي، هي المعادل الموضوعي للحياة. من سيل اللعاب المتدفق أثناء الحكي كان الإحياء والاستشفاء من الخوف واللا أمان، ذلك الكائن المتوحش الوريدي المتحكم بمجرى الدم والروح، حتى وإن كانت الحكاية تقتص منها.

"هذه الأساطير التي امتلأت بها رؤوسنا وآذاننا في عهد الطفولة بالقرى، أخذت تتبخر وتتلاشى

من أذهاننا تدريجياً بعد انتقالنا إلى المدن والاستقرار فيها، ولم نعد نرى فيها سوى أنها كلام عجائز و"سمامي نسوان"[٣].

اللاقيمة، واللاجدوى، واللامعنى، الدونية، صفات أضحت لصيقة بالنساء والأطفال، لأنهما متكافئان في التفكير، ولذا أول ما يكبر الطفل، يخضع لتصفية ذكورية ممنهجة من شوائب الحكاية ليتطهر من دنسها، وينتقل إلى طور الرجولة، فتصبح الحكاية امرأة، وامرأة فقط.

من أين أتت النعوت على مكون الوجدان، ترياق الأنس (الحكاية) المخصبة للجدب، والتشقق في النفس الإنسانية؟

ولماذا ظلت الثقافة الرسمية تتجاهل هذا النوع من القصص؟

"إن الثقافة العربية –الإسلامية قد جعلت الحكايات تحت الرقابة، وقد جعلت منها أدباً للأطفال، أو تمرينات للتسلية، غير جديرة بالاحترام، ولم تعتبرها أبداً جزءاً متمماً لها"[٤].

وسواء أكانت تحت الرقابة السلفية الإسلامية، أو أي رقابة من الأيديولوجيات، فالسرد قد بدأ حيث تبدأ الممارسات الفطرية. حيث تبدأ المرأة في استعادة كينونتها المهدورة في العمل، والمهدورة قبل ذلك في الذهنية الذكورية الصرفة. بدأ السرد حين يبدأ الليل، فـ"السرد يحتاج إلى الإعلان عن نفسه.. وما عبارة "زعموا أن" إلا لتعلن للمتلقي أن السرد قد بدأ وتحدد نوعه"[٥].

وأياً كانت ملابسات النوع، فإن السرد لا يتحدد إلا بنوع المرأة.

موت وحكاية

في اليمن كانت الحكاية "مغالبة للموت، والتخلص منه"[٦] ففي الوقت الذي تعيش فيه المرأة اليمنية، وخصوصاً الريفية، العزلة القاتلة، بسبب هجرة الرجال إلى المدينة، أو هجرتهم إلى بلاد الاغتراب (الغدرة)، أو الهجرة النفسية، فضلاً عن الطبيعة القاسية، والعمل/ العقوبة الشاقة المؤبدة:

يا والدة قد زلجوني أحطب

لا به حطب ولا لقيت ما احطب

كان الحكي "هذيان عقل مشوش"[٧] هو المرادف للحياة، يبدد الموت النفسي، وحتى الجسدي، فهو "الدواء... والعلاج لترميم أو إصلاح أي جانب من الجوانب المهدمة في النفس نجده في القصص"[٨].

خلقت المرأة الحكاية، ونفثت فيها من روحها الخصبة/ الغيث اللامتناهي، فكستها لحماً وعظاماً مثل الإصبع المبتورة لأخ فتاة الدوم في حكاية "الجرجوف" –التي سنستعرضها أثناء التحليل– لقد أخذتها فتاة الدوم، ودفنتها في مشقار[٩] وتعهدتها بالرعاية والحماية، فنبتت قرعاً، وخرج طفل جميل، ومثل حكاية "بنت الدبية" أيضاً.

كسوة الحياة الجرداء بلباس الحكاية، لباس الحياة، تعويضاً عن الحرمان والفقد، فقد الذات، أو تحويلها إلى ذاتيات منشطرة، متشظية، فقد الحبيب، الطبيعة الوعرة، وعورة ثقافة المنحنيات

والمنعرجات التي تنتقصها، وتئدها في الأرحام، وما قبل الأرحام.

بالسماءة/ الحزاية/ الحدوثة/ الحكاية دجنت المرأة ذلك المتوحش إنساني أو حيواني أو غيبي، على غرار ما فعلت شهرزاد التي روضت ودجنت المستلب لحياتها، وحيوات بنات جنسها، فحكت لتحيا، وتحيي من حولها.

ومن السماية/ الحزاية خلقت أنيساً، يبدد وحشتها القاتلة.

حلت الحكاية محل الجدب، أذابت الصقيع، حل الأنس، أطلقت فضاء حيوياً مؤنساً، مضافاً لفضاء اللغة العجائبية.

إن المرأة اليمنية لا تقل عن شهرزاد. عند شهرزاد كان هناك الموت الجسدي لكل امرأة يفتض بكارتها شهريار، ويفتض حياتها معاً. وفي اليمن كان الموت الجسدي يومياً يفتض شهرزادنا القابعة خلف الجبال الوعرة، والوديان، الأشغال الشاقة المؤبدة التي تنتظرها قبل أن تخلق. حتى إن المرأة في بعض مناطق اليمن، كانت تُستخدم عوضاً عن الثور لحراثة الأرض، بصورة تنضح بأقسى درجات الوعورة الإنسانية التي تركتها للوحدة والوحشة لهجر الحبيب الذي تركها إلى بلاد الغربة، وهي في شرخ الشباب، ولا يرجع إلا وهي عجوز فانية[١٠]. مثلها مثل جمل المعصرة الذي يظل عمره يدور ويدور بأعين مغمضة، فلا يلاقي الزيت ولا العصار[١١]. فظلت شهرزاد الجبال تحكي في المساءات، لكن لا تنسى في الصباح الباكر أن تفتتح يومها الجديد بأغنية، وتظل تغني، وتغني، وتغني حتى يأتي المساء، والمساءات اللامتناهية لتبدأ الحكاية من جديد:

هجرتني يا عيبتك وقفيت
خليتني مثل الحجر قفا البيت

قلبي جريح يشتي يطير مع الريح
يطير إلى باب الكريم ويصيح

لا تنقدوني ليش وجهي أسود
هذا وجهي ما القلب قد أدود

في ليالي المرأة اليمنية، حيث القمر يستمع تنهيداتها، وصراصير الليل تبادلها الحكايا والخفايا، مع حفيف أوراق الخريف تهسهس الصمت، حيث الثريا تنفش بحفنة أضوائها نحو صدرها وحجرها، فتلألئهما، حيث قهوة القشر بالزنجبيل عند المساءات الباردة، وحيث كسرة من "الكبن"، أو "القفوع"[١٢]، وحيث جرة الماء الباردة التي نسيت أن تغطي فوهتها، حيث أطفالها الملتفون حولها،

والملتحفون صدرها، المتكومون عند أقدامها المتشققة. في هذه الليالي المتعاقبة، تكون المرأة نفسها، فتخرج مكنونات أسفل التختة عارية متوجة تلك المرأة الحكاية، تتسيد كل شيء، وقبل أن تصيح الديكة مؤذنة بانتهاء الحكاية، تنسل مكنونات التختة، لتكون أسفلها، حيث مقرها الأصلي.. وهكذا تكون المرأة الليل، والمرأة الحكاية. إنه الليل الذي "يجعل من المرأة سيدة نفسها تترك نفسها تنقاد لغرائزها، وتشكل تهديداً للنظام والقانون الذي يضفي هذه الشرعية على هذا النظام"[١٣]..

عندما يهمد أسفل التختة، هل تنام المرأة؟

عندما تصيح الديكة لا تسكت المرأة/ شهرزاد عن الكلام المباح لتنام، ينام شهريار المتملي بسحر الحكاية، بل تواصله بالغناء حيث تطالبها تفاصيل الحياة اليومية الوعرة، الشاقة بأن تعمل، فتنتصر على هذا الشقاء بالغناء.

الموت المتواصل الذي يحف شهرزاد، تغالبه وتبعد شبحه في الليل حكياً، وفي النهار غناءً.

في كل بقعة من هذا الكون، ثمة شهرزاد...

أسلمة الحكاية الشعبية

عندما كنت أجمع بعض الحكايات الشعبية أو أغاني النساء، من أفواه كبيرات/ كبار السن، كان هناك تيار ذكوري متشدد يبدو أنه عرف الإسلام قبل أيام فقط. فقالوا لي وبالحرف الواحد: "تقطعين هذه المسافات لأجل الخرافات، و سقاوق النسوان؟!" (أي التفاهات.). كان من المفروض -كوني متعلمة- أن أقوم بإرشادهم لمعرفة الدين، وما ينفعهم، وما يضرهم، فهذا هو الأفيد.

أما البعض الآخر فكان يغرق في الضحك ساخراً من السخافات التي أرصدها، وكنت أخرج مثقلة بالألقاب الوضيعة، ونظرات الإشفاق المتوجة بـ"لا تبكِ على من مات، وابك على من فقد عقله".

كما قلت سلفاً إحياء الخرافة وتشجيعها (مع التحفظ) أراه حاجة إنسانية، خصوصاً للمرأة، حيث لا بد من قليل خرافة. ولأن مساحة الحلم أصبحت ضيقة ضيق أنفسنا، جدباء كجدب أرواحنا الجافة المتشققة، فما أحوجنا إلى ليل وحكاية!

وبما أن الحكاية ترجع إلى الأزمنة السحيقة الموغلة في القدم من أساطير، وخرافات ومعتقدات[١٤] -بتصرف- إلا أن هذا الإيغال من الحياة البدائية قد جرى تشذيبه لصالح الأيديولوجيات الدينية، والأعراف، والتقاليد.

وهكذا انفسح المجال لمساحة كبرى من الحكايات التي تحمل طابعاً إسلامياً، أو يشتم من رائحتها عمامات الفقهاء، بدليل أن في منطقة "بُرع" يطلق على الحكايات أسم "فتوى" والفتوى هي "ما أفتى به الفقيه"[١٥].

ولغمت الحكايات الشعبية بالكثير من المحاذير ذات الصبغة الإسلامية. ففي استهلالات الحكاية، لا يبدأ الحكي إلا بذكر الله، والرسول، وآله من أصحاب البيت، أو "كان في واحد، وما واحد إلا الله، ومن

عليه ذنب يستغفر الله"، وفي وسط الحكاية أو عقب أي حدث جلل، تكثر الاستغفارات، والتكبيرات.. الخ ومقولات مثل "والفائدة والمغنم في الصلاة على رسول الله"، أو التذكير من قبل الراوي بين الأحداث، صل على النبي وآله، ثم تكرار الأمر للمتلقين، ثنوا بالصلاة على النبي وآله، وحتى بعد الانتهاء من الحكاية تأتي القفلة: "إن صدقنا فالصادق الله، وإن كذبنا أستغفر الله".

أما المتن الحكائي، فمليء بالصيغ الإسلامية الظاهرة أو المضمرة داخل المتن، كالزوجة الساحرة التي يريد الزوج أن يعلمها "الخير والفضيلة" والتدين"(١٦). أو حكاية "الشقي.. والموت" عندما أتى ملك الموت ليقبض روحه، قال له: "هيا دعني، وتوضأ وصل ركعتين"(١٧)، وحكايات الآباء الذين يذهبون للحج، ويأمرون بناتهم ألا يفتحن الباب ولا يظهرن لغريب، ولا يختلطن، وحكاية "جليد أبو حمار" ووصية المنجمين بوأد ابنته التي ستكون خراباً على الأسرة (سنتحدث عنها في تحليل النصوص).

أرى أن الصورة الدونية أو السلبية للمرأة في متون الحكايات الشعبية صارت تعبر عن روح الذهنية الفقهية التي قطّعت جسم الأساطير والميثولوجيات، والمعتقدات الشعبية، بل شوهتها، وخلقت من رحم هذا التشوه التدجين الفقهي، أو المدجن الفقهي للحكاية، فأظهرتها ضعيفة باهتة، أو صوراً وحشية. لقد رضعت تلك الصور نفس التشوه وبذا اكتسبت وجهها المعمم. فـ"لم يبق من الأم الكبرى سوى جانبها السالب المعتم الذي ما فتئت الأسطورة الذكورية تكرسه وتفرزه عن بقية الوجوه العشتارية، حتى لم يبق من عشتار سوى جنية الظلام، والغولة، والنهالة، والساحرة العجوز"(١٨).

ولعل الذاكرة الشعبية لا تنسى أفعال الفقهاء الذين وظفوا الدين لصالح أيديولوجيات ضيقة، فأذاقوا الناس عبر الدين العذاب، فالأمثال الشعبية اليمنية شاهد على بعض تلك الممارسات، وأورد الكثير منها العلامة إسماعيل بن علي الأكوع في كتابه الهام "الأمثال اليمانية":

- "إذا غريمك القاضي فمن تشارع؟!".
- والتعبير الشعبي "عقل فقيه" كناية على سقم التفكير.
- الفقهاء فئران الأرض.
- الفقهاء نسور الميت.
- فقيه القرية حمار إبليس.

ولعل القصيدة الشهيرة للسيد أحمد القارة في الفقهاء قد عبرت عن ضيق الناس بالفقهاء وبأفعالهم. يقول:

ضاعت الصعبة على الخلفاء... خبط عشواء والسراج طغى

شيطنة جاءت من الفقهاء... مفجعين لا إله إلا الله

خلوا الدنيا تلف لفيف... أسكرونا خمر غير رغيف

ولعل الحكاية الشعبية عن المرأة التي أخذت بحق زوجها الضائع في أروقة المحاكم، تقدم لنا خير مثال، فهي تعرفنا كيف استطاعت أن تستخدم جمالها للإيقاع بالفقيهين/ الحاكمين بعد استرداد

حقها المغتصب، فجعلتهما عاريين في الشارع[١٩].

تلك هي ثقافة الفقهاء الذين لا يعرفون من المرأة إلا العورة فقط. "بلبس العمامة يدخل الولد في زمرة أهل العلم لتزييه بزيهم... كما يمتنع عن مخالطة الصبيان، وملاعبتهم، ولا يمارس ألعابهم التي يمارسونها، كما يمنع من مخالطة النساء غير أرحامه ولا اللعب مع الفتيات، أما وقد صار معمماً فقد حرم عليه كل ما يجوز للصبيان عمله، وتحتجب منه النساء الأجانب"[٢٠].

وهذا يدل على أن الصبغة الإسلامية المتطرفة طبعت بقوة الحكاية الشعبية في استهلالاتها، وانحشرت في متنها، وجرى بذلك "أسلمتها".

شرر الأسئلة

من أين للمرأة كل هذه الشرور داخل بنية الحكاية الشعبية، بل وداخل المحكي، والأدب الشعبي برمته؟ من أين هذه السوداوية البادية فيها حتى عندما يرد الحديث عنها في الحكاية كحمامة؟ ولماذا يتعاظم وصفها بالغباء، والمراوغة والخداع والوقيعة؟

لماذا هذا التاريخ الأسود الذي لا يحتفي بالمرأة إلا ككائن متخم بالشرور ومغلق على الإثم والخطيئة؟

لماذا يعيد التاريخ سوداويته حاضراً مع كل بزغ جديد للمرأة، ويستشرس عندما يبدأ حديثه، وحديثه بالمرأة، وعن المرأة؟

لماذا كل هذه الكلبية و"الجرجفة" و"الدجرنة"[٢١] للمرأة؟ لماذا خصوبة الخيال عندما يلتصق اسم المرأة بهذه الكائنات المتوحشة؟

لماذا هذه الفصامية والسادية المتمادية في صنع تماثيل المرأة من الحلوى، أو صنعها من التمر، آلهة يعبدها، وسرعان ما ينفك يأكلها، ويبتلعها؟

لماذا تتعمد الذكورية المنفعة الجنسية لإشباع غريزتها بأنانية مفرطة، فتعمد -كما تقول المرأة اليمنية بالمثل الشعبي- لأخذ حقها عبر " أول الليل يا مقلتي، وآخر الليل يا نقرتي" أو "أول الليل يا روحي، وآخر الليل يا جحري" أو "العشي يا مرتي، والصبح يا قحبتي"؟.

لماذا ميزان العقوبات -أكان القائم على الفقه أم على العرف، أم على القانون المؤسلم/ والمتعرفن (العرف)- يحتفي بشرور المرأة، ويبالغ في معاقبتها بطرق خرافية، وسحرية، وفي تحويل الخطأ إلى خطيئة؟... فقد أمرت "طبق البنور أن يأتوا بجمل جوعان وجمل ظمآن ويضعوا الماء أمام الجوعان والعلف أمام الظمآن، وتربط كل رجل من رجليها في رجل أحد الجملين. وربطت، وكان الظمآن يشدها إلى العلف حتى ماتت عقاباً لها على جريمتها الشنعاء"[٢٢].

لن تخرج الصورة عن بنية المحكي، من أين أتى كل هذا المحكي؟ الصورة واحدة تتناسل منها كل الصور السلبية. منطق: "إما أن تكون المرأة سلبية، وإما لا تكون على الإطلاق"[٢٣].

ومع ذلك، فحتى لو تكالبت الأيديولوجيات على تشويه المرأة/ الحكاية، فسوف تبقى هناك صور ناطقة عن العوالم الفطرية التي يجب أن ننصت لها. والإنصات يعني أن الحكاية بدأت تفعل مفعولها، فهي "الدواء... والعلاج لترميم أو إصلاح أي جانب من الجوانب المهدمة في النفس نجده في القصص"(٢٤).

*** أجزاء من بحث مقدم لمنح اليونسكو/سوزان مبارك/ الصداقة اليابانية المصرية لتمكين النساء في دراسات السلام وشؤون المرأة - (دورة ٢٠٠٥-٢٠٠٦)**

■ هوامش ومراجع الفصل الأول:

(١) السمّاية، الحزاية، حزاوي، سمامي نسوان أو مكالف، كلها تندرج ضمن الحكايات الشعبية، أو ما يسمى بالحدوتة.

(٢) سيكولوجية الوحدة، علم الدلالة، ص١٧، كلود حرمان، ريمون لويلان، ترجمة د. نور الهدى لوسن، دار الفاضل.

(٣) حكايات وأساطير يمنية، علي محمد عبده، ص١٤، دار الكلمة، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م.

(٤) القول الأسير دليل الحكاية، جمال الدين بن الشيخ، ص٢٦، ترجمة محمد برادة، عثمان الميلود، يوسف الإنطاكي.

(٥) الحكاية والتأويل، عبدالفتاح كليطو، ص٣٤، دراسات في السرد العربي، دار توبقال – الطبعة الأولى، ١٩٨٨م.

(٦) القصيدة والنص المضاد، عبدالله الغذامي، ص ١٢٧، المركز الثقافي العربي، ط. أولى.

(٧) القول الأسير دليل الحكاية، جمال الدين بن الشيخ، ص٢٨، ترجمة: محمد برادة، عثماني الميلود، يوسف الأنطاكي.

(٨) نساء يركضن مع الذئاب، كلاريسا بنكولا، ص٢٤، ترجمة مصطفى محمود محمد، مكتبة الأسرة.

(٩) مشقار: قطعة أرض صغيرة تزرع فيها النساء باقات الريحان، والنعناع، وكثيراً من النباتات العطرية.

(١٠) مأساة الغربة جسدتها قصص محمد عبدالولي، القاص اليمني الكبير، الذي رحل عن دنيانا في السبعينيات من القرن المنصرم بحادثة الطائرة المليئة بالدبلوماسيين. مات، ولم يتجاوز عمره السادسة والثلاثين. من أشهر قصصه: يموتون غرباء، الأرض يا سلمى، صنعاء مدينة مفتوحة.

(١١) العُصار: هو بقايا عصر حبوب السمسم، وتأكله الأبقار.

(١٢) الخبز، والقفوع، والكبن: أكلات شعبية يمنية.

(١٣) القول الأسير، جمال الدين بن الشيخ، ص٤٣.

(١٤) الحكايات الخرافية، فردريش فون ديرلاين، ترجمة د. نبيلة ابراهيم، مراجعة د. عز الدين إسماعيل، مكتبة غريب.

(١٥) تسمى الحكايات الشعبية في بُرع، باسم "فتوى"، ومعنى الفتوى في القاموس المحيط للفيروز أبادي، مؤسسة الرسالة، ص١٧٠٢، الطبعة الثالثة.

(١٦) الزوجة الساحرة، ص٢٤ ، من الحكايات الشعبية التي قام بجمعها الأستاذ الراحل محمد أحمد شهاب، دار ابن خلدون، طبعة الأولى.

(١٧) حكاية الشقي والموت، ص١٨٦ من كتاب الحكايات الشعبية، محمد أحمد شهاب.

(١٨) لغز عشتار، فراس السواح، ص٩٧، دار علاء الدين، الطبعة السادسة.

(١٩) ذكاء امرأة، قراءة أولية في السردية الشعبية اليمنية، جمع وتدوين أروى عثمان – تحت الطبع.

(٢٠) صفحة من تاريخ اليمن الاجتماعي وقصة حياتي، الأستاذ محمد بن علي الأكوع الحوالي، ص١٢٧، الجزء الثاني، مطابع مؤسسة ١٤ أكتوبر.

(٢١) نسبة إلى الكائنات الخرافية في الذهنيات الشعبية اليمنية، والذين ينتمون إلى السعالي، والغيلان.

(٢٢) حكاية بدر وزهرة، الحكايات الشعبية، محمد أحمد شهاب، ص١٥٢.

(٢٣) صورة المرأة في روايات المرأة العربية، أ/ صبري حافظ، ص٢١٦، عن بحوث ونقاشات نظمتها دار المرأة العربية للنشر، المعرض الأول لكتاب المرأة العربية في مواجهة العصر.

(٢٤) نساء يركضن مع الذئاب، كلاريسا بنكولا، ترجمة مصطفى محمود محمد، ص٢٤.

● «النداء»، العدد ٩٣، الأربعاء ٧ مارس ٢٠٠٧

يا خطباء المساجد: ارفعوا فتواكم عنا

أروى عثمان

8

يا خطباء المساجد
ارفعوا فتواكم عنا

أيمن من السلطة وحدها يحرج الصحفيون

محاولة لنقاش هادئ حول مهنة محتقرة

قرأت للأستاذ العزيز نبيل الصوفي موضوعاً عن ٨ مارس: "حديث خائف عن قضية المجتمع المعطل خوفاً على العفة" في صحيفة "النداء" العدد ٩٣ بتاريخ ٧ مارس ٢٠٠٧.

وما حفزني لكتابة هذا المقال هو توجهه الصادق إلى خطباء المساجد ليعيدوا النظر في حق المرأة كإنسان تحت فقرة "يا خطباء المساجد.. هذا دوركم".

دعوة صادقة أيها الأخ النبيل، لكن دعوتك كمن يجتر دعوة آلاف السنين، بل كمن يأكل قيء -وعفوكم من تعبير كهذا- فكأننا لا نتصور أن نخطو "دادو حبة حبة" أو نحيا حياتنا الطبيعية دون مرجعية خطباء المسجد، وفتاوى رجال الدين الذين غدوا يسيِّرون كل شيء في دنيانا حتى أدمغتنا وطحالنا..

ونحن لا نختلف عن الديكتاتوريين في العالم الذين يطبقون بمخالبهم على الانتخابات ويستحوذون على كل بشر وجن وشجر وحجر البلد... فترى بعض الجموع المعارضة، لثقافة التوريث.. وقد بدأوا يلينون: "يا جماعة الخير، لنترك لزعيمنا فرصة.. فنختبره.. فبهذه الانتخابات ستحصل الديمقراطية، والحرية، والمساواة، ولن ترتفع الأسعار، و"سيبغر" المواطن من عيشة الجنة... فلننس الماضي ونبدأ صفحة جديدة، لنحرق الملفات، ونفتح صفحة بيضاء".

وكأن عقوداً من الزمن لم تكف زعيمنا ليؤسس ألف باء الديمقراطية، أو يمنع ارتفاع الأسعار، أو

يمنع إهدار كرامة المواطن و يعيش آمنا مثل بقية خلق الله.

والشيء نفسه ينطبق على إخوتنا في المساجد، وكأن مئات القرون التي مضت لم تكن كافية لإصلاح الكون، وأن الآتي المشرق سيبدأ والعهد الجديد والمشروع الإنساني هما قاب قوسين أو أدنى... إلخ.

كلا الثقافتين أيها العزيز تنبع من منبع واحد، بأنهما الأوحد والمطلق، البداية والنهاية، بل ولا نهاية لهما سيفنى الكون إلا هما.. إنها الذات المتعالية التي تحس بأنها لولاها، لخربت أحوال البلاد والعباد..

وبهذه المناسبة ٨ مارس ٢٠٠٧ لن أستجدي المسجد والقائمين عليه، بأن يعيدوا دورهم، وحوارهم ليناقشوا إمكانية تغيير النظر باتجاه المرأة ككائن إنساني.. بل أجدني أقول: "ستكلل آدمية الإنسان، ذكراً كان أم أنثى، عندما ترفع ثقافة المسجد عن الخوض في غمار هذا الإنسان الذي تتقاسمه المرجعيات وكلانيات الثقافات والمعتقدات"، فكل له طريقه وله دوره.

ونقول للخطباء، وللمرجعيات، كثر الله خيركم مليون مرة -إلى هنا وبس- كفيتم ووفيتم خدمة الإنسان والمرأة لقرون من الزمن..

وأخص بأن تكفوا عن فتواكم بالذات في شؤون المرأة والفنون، وشؤون الإبداع.. فمتى ما تحقق هذا الكف، فإن الخصب سيبدأ، سنصح ونتعافى.. سنغدو أمما، ونساء لا نختلف عن بشر العالم. فبجدب الفتاوى تخصب الحياة، ويتحرر الإنسان، ويبدع.

فهل سيأتي يوم ٨ مارس مستقبلاً بدون خطب لفحولة الأقحاح القابضين على النار والرماد، أكانوا ذكوراً أم إناثاً.. نحلم بـ٨ مارس بلا ميكرفونات، وبلا منصات، وبلا مآذن، وبدون يجوز، ولا يجوز؟؟

هل سيأتي للمرأة في مارسها وأبريلها، وأكتوبرها عام تستطيع فيه المرأة أن ترضع طفلها دون خوف من أن تكون قد تجاوزت فتوى الشيخ الفلاني، وما رد عليه الشيخ العلاني؟ أن تعاشر المرأة زوجها دون حجب وسحب الفتاوى، كيف عملت عائشة، كيف انتهت فاطمة في حدث كهذا؟؟

هل سيأتي يوم تتوقف فيه فتاوى نتف الشعر؟ هل هو فرض عين أم فرض كفاية؟ وهل يجوز أكل العصيد من الدست مباشرة؟ وماذا لو "شحر" كحت امرؤ دست العصيد؟ وما حكم من أكل عصيدة، وترك البقايا في قاع الدست؟

وبهذا اليوم الإنساني الذي يحتفل به العالم.. هلا رفعتم أيديكم، وأرجلكم، ولحاكم، وحناجركم، وكتبكم وكروشكم عنا.. لنعيش.. لنستعيد آدميتنا، وتنتعش، ونحيا.. فهل تكّفون؟

ولا كيف تشوفووووووووووو!؟

● «النداء»، العدد ٩٤، الأربعاء ١٤ مارس ٢٠٠٧

وداعاً وريقة الحناء

سـؤال المـرأة فـي المحكـي الشعبـي* (٣)

أروى عـثـمـــان

12
وداعاً وريقة الحناء
سؤال المرأة في المحكي الشعبي* (3)

الفصل الثاني:

أخزاق المحكي.. أخزاق اللغة

هنـاك مقولتـان الأولـى للدكتورة آسـيا جبـار: "إني لا أكتب بالعربية لأنها لغة الذكورة"، والأخرى لا يحضرني اسـمها: "الحضارة التي تقمع المرأة، ليسـت حضارة". هاتـان المقولتـان تحيلاننـا إلـى اللغـة والمعنى، لأن المعنـى كينونة المرأة فقط، أمـا الفكر، واللفظ، فهما كينونتـا الرجـل، كما يتحدث النقـاد، وخصوصاً الأستاذ الدكتور عبدالله الغذامي في كتابه الهام "المـرأة واللغة"، لذا فإن كلاً مـن اللغة والكتابة والحضارة تختزل في "رجل".

سـتظل المـرأة تحفر في جـدران اللغـة، لكنها لن تضيف سـوى أن تسـجل كينونة نفسها منذ أن بدأت، حتـى وإن خرجت بثياب تجديدية، فكونهـا تمارس، وتفكر، وتكتب بلغـة الفحـول، إذن هي بشـكل واع أو غير واع "فحلة مؤنثـة"، إن جازت هذه التسمية، وليعذرني القارئ على جرأتي في نحت اشتقاقاتي الخاصة بي.

وعلى هذه الرقعة من الجدل المعقول، والعبثي في أحايين كثيرة، غالباً ما نجدنا نشعر بالسأم، ولا

نخرج إلاّ بمزيد من العبث.

لقد سئمنا الأفكار التي تقف على الخط نفسه، الأرضية نفسه، النص نفسه، وتنطلي بألفاظ، تبدو كأنها ملصقة، ومُرقعة، تزيد الأرضية تشويهاً ليس إلا. من هذه الأفكار التي تتخم بها الكتب، والصحف، والمؤتمرات، وتهيج، ويشتد عنفوانها عقب كل كارثة تحف العالم العربي والإسلامي، خصوصاً عندما يكون الخطاب/ الكارثة يتعلق بالمرأة والدين والسياسة ويزدان على سبيل المثال بألفاظ: التجديد، الإصلاح، رؤية، تعديل... إلخ.

أرى أن هذه الأفكار لا تخرج في الغالب عن مجرى الهذيانات، ولا تزيد عن كونها مجرد خطابات متمسحة/ أو ممسحة، تبريرات، اعتمالات تزيد التقليدية، والنصية ثباتاً، وقوة ومنعة، حتى وإن لبست لبوساً مغايرة من مفاهيم التجديد، والآخر، والمدنية، ومفردات كثيرة تدخل قاموس الضحك على "الوجوه –وليس الذقون" مجاراة لما يعتمل في العالم.

سنجد البوق الفضفاض يردد على الدوام، وعقب كل انتكاسة للفكر العربي شعارات مثل: تجديد الفكر الديني/ أو إصلاح الفكر الديني، لكن لم نسمع قول: "فصل الدين عن الدولة"، إلا بصوت خافت كأنه السكوت.

فلنقلها جهاراً، وكفى، بهذا الفصل بين الإلهي –الديني، واليومي الدنيوي– وبهذه القطيعة الأبستمولوجية، ستغير بنية الفكر، كل الفكر رأساً على عقب. وسنبدأ الكتابة معاً إناثاً وذكوراً.

وبهذا سنكتب عنوان بداية الخلق الجديد، وعدا ذلك فإن كل ما نسمعه، ونقرأه، ليس إلا رغاءً لزجاً، تفوح عفونته كل يوم.

"إذا كان المرض بالرأس، من أين ستأتي العافية" مثل وتعبير شعبي خطير يقوم برفض التعديل، والإصلاح في الأطراف، فيما الرأس هو هو، ثابت، لا يتزحزح، وهو فاسد، ولن تأتي العافية مطلقاً، لا بد من رأس جديد، وستكون هناك عافية بالضرورة، فالخلايا الجديدة لا تسكن إلا الرأس الجديد.

فازدواجيات الخطاب أنهكتنا وسدت في وجوهنا باب السؤال عن: ماذا سيجدد هذا الخطاب؟ أو ماذا سيعدل إذا كان الإله فحلاً، والحضارة فحلاً، واللغة فحلاً؟! إذن أين الطرف الآخر، القطب الآخر الذي لا يستقيم الكون إلا به؟

ماذا سنعدل؟ وماذا سنصلح؟ وما هي الرؤى التي ترتدي لبوس التجديد، وهي لم تخرج بعد عن نسيجه، ومن أنساقه ذات الأعمدة الصلبة العاتية التي لا تتغير لا في الزمان، ولا في المكان، فالحاضنة الذهنية للفحولة لا تنتج إلا أفكاراً من المصب نفسه.

لا اسم.. لا هوية

هكذا تلهث المرأة في الفراغ، وتشكل من السديم حقيقتها، لحضارة تقصيها، وتنفيها، تسلبها الحياة، إذن لا حاجة لها بها، ولا حاجة لها بدين وملة تخلقها من ضلع آدم، بل وضلع أعوج، ويظل

هذا الضلع الأعوج مسار حياتها الدنيوية والأخروية، هذا المسار مليء ليس بالمنحدرات الشاهقة، والمزالق الظاهرة والخفية، بل وبالاستتباع؛ لأن المسار أعوج في الأصل. فلا بد من حصان يجر العربة ذات العجلات المركبة في غير مكانها، مثل عقل المرأة المركب في درمها. حتى الفكر، والشعر، والحكاية والموسيقى... إلخ نغماتها، وإيقاعاتها معوجة.

وتظل المرأة ملحقة بالثقافة الذكورية وتجلياتها من بدء الاسم، وضرورة انتمائها للأب، ذي الجسد المستقيم، فتحمل اسمه، فهوية الأعوج تكون في وجود المستقيم، العقلية البدوية نفسها/ القبلية للمواطنين الأقلية، كاليهود الذين يدفعون الجزية، ويجب أن يكونوا في حمى الشيخ ذي الأصل المستقيم، الذي تخلق من ضلعه النساء.. الشيخ، المكتمل فحولة وهوية.

عندما تتزوج لا بد من هوية جديدة/ قديمة، جديدة باسم الزوج وعائلته، وقديمة بنظام الأعوج/ المستقيم نفسه، حتى اسمها يختفي في حالة وهب الهويتين، عندما تكون بنتاً تسمى بنت فلان، وعندما تصير زوجة تصبح زوجة فلان، تلحق بزوجها وباسم بيت زوجها مثل: مرة/ زوجة الغراب، فبيت كزم تسمى الزوجة بكزمة، أو اسم شارد، تكنى الزوجة بشاردة، صالح، صالحة... الخ.

إذن أين اسمها؟

لا وجود له، لا شيء.

المرأة اللاهوية، يجب أن يكون لها هوية ملحقة بعائلة الأب، وعائلة الزوج الذي تذوب فيه ليس هويتها، بل ووجودها، فمعروف في بلادنا، وحتى يومنا هذا أن الفتاة تتزوج لتكون طاقة عمل في بيت الزوج، حتى إن الأب/ الأم، يقولون لابنهم، متى ستتزوج، وتأتي لنا بخادمة/ خدامة تخدمنا، في الحقل، والبيت؟

إنه زواج المنفعة، تتكرس المرأة كمغزل من لحم، ودم، يظل يغزل، حتى نومها مغزول بثقافة الإهلاك، رق غير مفارق لنظام الرق القديم، حتى وإن كان بلباس شرعي، ولذا نجد كثيراً من شباب الريف، خصوصاً، يأتون بالخادمة/ الزوجة، للعمل والإنجاب، أما الابن/ الزوج فإنه يشتغل في المدينة أو يدرس، فيأتي فقط في الأعياد يرمي ببذرة "الذرية الصالحة" الممتدة، ليرجع إلى المدينة في مدة أقصاها عاشر العيد!

وتشيخ المرأة قبل الأوان من سرعة الإهلاك المنظم، فيما يحتفظ الرجل بحيويته المنظمة، وتمر السنوات ويستمر رمي البذار في الأعياد، تتكاثر الذرية الصالحة، وتعمر البيت والحقول، لكن لا بد من خادمة أخرى جديدة تناسب المدينة، وتناسب حيوية، وشباب، وفحولة الزوج المقبور مع زوجة كأمه، ولا ضير إن كانت الزوجة الغضة تحمل اسماً خاصاً بها، لكنها لا بد أن تستتبع بزوجة فلان الفلاني.

خادمتان ملحقتان بالذكر المفرد، وبالعائلة النووية

خادمتان لمقبرتين: مقبرة الأب القصيرة، ومقبرة الزوج والأبناء الممتدة، والأخيرة هي الأقسى،

والأشرس، ولذا أتت الثقافة المتسربلة بعباءة الدين لتقول إن المرأة لا تخرج إلا لقبرين، قبر على عتبة بيت الزوج، والقبر عند الموت. وقد تكرم السيد عباس مدني، رئيس الجبهة الإسلامية للإنقاذ بإضافة قبر ثالث فيقول: "إن المرأة لا يجب أن تخرج سوى ثلاث مرات فقط في حياتها، من رحم والدتها -يوم مولدها- من بيتها يوم زفافها.. والمرة الأخيرة يوم وفاتها"(١).

وسواء كان قبرين أو ثلاثة، أو مليوناً، فما هو إلا قبر واحد كبير.

فالمرأة كما تقول أمثالنا الشعبية: "المرة/ المرأة مثل الطلية: ساعة، وقالوا خلي" أي مثلها مثل الكبش/ النعجة التي تقاد للذبح، فالمرأة موجودة لتوقيت محدد في بيت/ قبر الأب، وبعد ذلك تنتقل إلى قبر/ بيت الزوج/ العائلة.

وعندما يقال إن النساء "مراجيم الغيب"، أظن تجاوزاً يسمى الغيب، فالغيب مكان معلوم في الذهنيات الأبوية الطوطمية رجمة صغيرة (التربية في بيت الأب)، والرجمة الكبيرة والقاتلة في كثير من الأحيان (الزواج/ القبر طويل الأمد).

حتى إذا ذهبت المرأة إلى المستشفيات لتقطع روشتة للعلاج، تسجل اسم العائلة اسم الزوج، ومن المعيب أن تلفظ اسمها فهي ابنة فلان، أو زوجة فلان، أو أم فلان "هذه الفلايين هي أقحاح الذكور".

في النقوش اليمنية وجد هذا الإلحاق يقول: "ولم شمله مع المرأة -امرأته- المسماة (تحي إيل بنت جراف والصعق) ووصولها إلى بيته بيت (تزأد)... وليمتحن (ألقه ثهوان بعل أوأم) عبة (ريعيث يغنم) أولاداً ذكوراً صالحين من زوجة (تحي إيل) التزادية"(٢).

أما عند توقير المرأة بصفة كدلالة الاحترام فإنها تأتي ممتلئة بالمعنى الذكوري مثل: "امرأة بعشرة رجال"، "صُفة ولا مائة دقن"(٣).

من الأمومة إلى الرجولة/ آلهات

تراجع حضور المرأة في الثقافة المكتوبة، وفي الشفاهية أيضاً، هامش نراه في كتب التراث، ويحمل في أغلبه صوراً لا تخرج عن الثقافة المُجهزة على الكائن الآخر (المرأة)، تستأصله من النص، أكان شعراً، حكاية، ملحمة، مخاطبة... إلخ.

لحظة استيلاء الرجل وانتصاره على الآلهة الأنثوية (الأمومة) وقيامه بتذكير الحضارة أو (فحللتها) استخدم المرأة دعامة لبناء حضارته (المرأة/ الزوجة الخادمة) وقتلها في صحائف التاريخ، والحضارات، وتبددت روح المحبة، والخصوبة، والمعاني الإنسانية، لقد كان مناخاً "أقرب إلى مناخ فردوس فقده الإنسان بحلول مجتمع الذكر الذي ضيع السلام والدعة ربما إلى الأبد"(٤).

وحلت الأسلحة، والرماح، والسهام، كل أدوات القتل (رموز الذكورة) محل الحمائم، والأشجار والجداول. يحدث ذلك على غرار ما تفعله سلطات الحكومات العسكرية التي ما إن يتوج رئيسها حاكماً للبلاد والعباد، ويصنع لعرشه آلاف الشعارات، وآلاف الأعياد الطبيعية، وليس حتى الوطنية،

والدينية، ويسقيها بألفاظ: الأول، البكر، حتى يأتي انقلاب عسكري آخر، يمحو كل ما فعل سابقوه، ليخبز على طريقته الأعياد، والشعارات، والمعارك، وبطولات لا تتناسب إلا والإله الواحد الأحد.

ومن "الأم الربة/ الإلهة" إلى الأب الإله المهيمن على كل شيء، والذي تتبعه المرأة، وكل الكائنات من حوله، نضبت الخصوبة والزراعة التي تطلق على المرأة "الإلهة الأنثى ظلت الشكل الأسطوري المسيطر في عالم الزراعة في كل من منطقة ما بين النهرين، وفي وادي النيل، كما في بقية الحضارات الزراعية القديمة"[٥] نفس ما نراه في الحياة اليومية وفي الزراعة.

معركة الشواخ

في المنحوتات والنقوش القديمة واليمنية منها تظهر المرأة متضخمة الأثداء والأوراك، والبروز للأعضاء التناسلية علامة الخصوبة.

هكذا بدأ ظهور المرأة كالآلهة التي على هيئة دمى "آلهة لاوسيل، وآلهة ليسبوغ، وآلهة ويلندروف" في جنوب النمسا هذه النماذج الثلاثة ذوات الأثداء المتضخمة "تحمل دلالة التكاثر والولادة عند الإنسان، وارتباط ذلك بالأعضاء الجنسية الباذخة لدى المرأة باعتبارها مصدر التنوع البشري"[٦].

وإذا كان تضخيم العضو الذكري في بعض المنحوتات دليلاً للخصوبة والنماء (تماثيل العضو التناسلي الضخم للرجل الموجودة في المتحف الوطني بصنعاء، وهيئة الآثار في صنعاء من خولان وشبوة، الحديدة، جبل العود)[٧].

فإن ما رسب في الذهنية السائدة يشير إلى إخصاء وتعطيل تلك الخصوبة والتنوع البشري وحصر وظيفة ذلك الثراء في الأعضاء الباذخة الخصوبة لكل من الرجل والمرأة في "الشواخ" ضاعت اللعبة الإيروتيكية للتكاثر والنمو لتختزل في المبارزة والمساجلة، والمباراة بين قطبي القوة والضعف، السيد والعبد.

والوظيفة الجديدة للأعضاء هي الشواخ/البول، من أي سقف من أي طاقة/ نافذة، ولمن ستكون الغلبة؟ النتيجة المحتومة طبعاً للذكر كما يقول المثل الشعبي المعروف "فما مرة شخت من طاقة".

فأصلاً طبيعة المقارنة جائرة، وتنم عن محدودية الخيال أيضاً، فثقافة الشواخ لن تفرز إلا خيالاً من شواخ أيضاً.

(ثنائية العقل والدرم)

هذا الخيال المرضي (الشواخي)، هو الخيال نفسه الذي قسم المرأة والرجل إلى أيروس، ولوجوس، عقل ودرم[٨] هو الذي أعقل الغريزة عن تأدية وظيفتها.

هنا تحضرني حادثة سجلتها الصحافة اليمنية، أن حافلة مليئة بالطالبات الجامعيات (يقال إن عددهن في حدود ٢٥ تقريباً) يدرسن في تخصصات مختلفة انحرف بها سائقها المستهتر عن الطريق

الرئيسي، ولم تجد الطالبات وسيلة للدفاع عن أنفسهن سوى الصراخ، حتى انقلبت الحافلة بهن، وذهبت مجموعة منهن ضحايا لتلك الحادثة.

وتقول هذه الحادثة، إنه رغم الكم الهائل للفتيات، إلا أنهن عجزن عن الدفاع عن أنفسهن، وكان الصراخ وسيلة احتجاجهن الوحيدة، فلم تتجرأ واحدة منهن، على ضربه، أو تقييده، أو على أبسط وسائل الدفاع عن النفس التي تفرضها الطبيعة الغريزية لدى الكائن الحي، ونرى أشكالها تتجلى لدى الحيوانات مثلاً القطة، وكيف تدافع عن نفسها، وأولادها، أو الدجاجة، والكلبة،... إلخ.

وعلى ذلك قالت إحدى المتشددات دينياً، ببساطة: "لو كنت في محل واحدة منهن سأخنقه، نعم سآتي من الخلف، وأكتفه".

لماذا طالبات الجامعة لم يدافعن عن أنفسهن ومنهن الطبيبة، والمهندسة، ودارسة الأدب، وباحثة العلوم الاجتماعية، والنفسية؟

لماذا اكتفين بالصراخ فقط، أسهل طريقة؟

طالبات الحافلة كانت وسيلة الدفاع عن حياتهن هي الصوت/ الصراخ. والصراخ ينتمي إلى لغة ما قبل الكتابة، الإنقاذ هنا أتى في حالاته الأضعف باللسان، وليس باليد، بالأسنان، بالأعضاء الأخرى.

أين كان العقل؟

خمس وعشرون امرأة بالغة راشدة (عاقلة) لم تسعف إحداهن بداهتها إلى اللجوء إلى الطبيعة الغريزية، أو العقل لإنقاذ أنفسهن من رجل واحد، ربما كان مسلولاً، معلولاً من جراء سوء التغذية، مخدراً من تعاطيه القات[٩]، وربما لم يكن يزيد على ظل رجل، وليس رجلاً بالمعنى الذكوري، البنيان المرفوع، والزند المفتول؟

لماذا تعطل العقل، وقبله الغريزة؟ لماذا أُصبن بالسكتة؟

هل النص الديني المسؤول عن تعطيل الغريزة، والعقل: "المرأة ناقصة عقل ودين"، ومن الموروث الثقافي الأخلاقي البدوي/ القبلي: "عقل المرأة في درمها" ثنائيتان قاتلتان، الأولى: النقص/ عدم الاكتمال/ الضلع الأعوج، والثاني، حتى لو وجد العقل، فهو في الدرم، أي معطل لا يستفاد منه.

ولذا كانت فكرة المحرم، مع المرأة حتى لو كانت أماً، فمحرمها طفل صغير في الخامسة من عمره، وهو بلا شك عقلها المتمم أو المكمل للنقص، وهو الذي يفكر عنها بدلاً عن تفكير الأقدام.

ولا يغيب عن بالنا أن شهادة المرأة لا تقبل في المحكمة نتيجة هذا اللاعقل/ أو العقل المنقوص، فلا بد من توافر امرأتين للشهادة، فشهادة إحداهن تظل ناقصة.

هل لأنها خلقت من ضلع أعوج، كان يجب أن يدافع عنها الجسد المستقيم/الكامل؟

في الصلاة نجد رأس المرأة يتدلى خلف أقدام الرجال، فتنكس رأسها عند أقدام الرجال المصلين، فهل كانت رؤوس الطالبات منكسة عند أقدام الرجال من مصلين، وغيرهم ساعة وقوع الحادث؟

وماذا عن الغريزة؟ أين كانت مغلولة ومعتقلة؟ لماذا لم تنهض للدفاع عن نفسها؟ هل لأن المرأة كما يقول المثل الشعبي: "المرة مرة، ولو تنمره"، أو "ما بقرة تحاير ثور"[١٠]؟

لماذا اختفت الغريزة الغائلة التي أجمعت الثقافات بأنها المحرك الوحيد للمرأة أينما أقبلت، وأينما أدبرت؟

الصوت/ الصوات، هو الشيء الوحيد الذي لجأت لإطلاقه الطالبات، بل حتى هذا الصوت وجوده قد تعدى النصية الدينية: "صوت المرأة عورة". فكيف نفسر هذا؟

إن ثقافة النقص عقلاً وديناً، و"تدريم" العقل، أي جعله في الدرم، هما اللذان خلفا ثقافة النفسية الهشة الخائفة، الخانعة الانهزامية فـ"لا يحمل الجور إلا الذليل" الذل المضاعف للمرأة، الجور المتعاظم، النفسية نفسها التي تجعلنا عبيداً أمام سلطان غاشم، أو زوج مستبد، يجمعهما السادية، النفسية نفسها التي تجعلنا نخاف أمام الظلال والأشباح.

تنمية الخوف

ظلت الذهنية الذكورية الكاملة، الثابتة، والراسخة رسوخ الجبال الأسطورية تقولب التصورات للمرأة، وتصنفها، وتؤطرها في براويز "المرأة الشريفة" الخارجة من رحم الشرف العربي القح.

و"الشريفة" لا تنبس ببنت شفة، لا تتململ من أي سلطة وبالأخص سلطة الزوج مهما كان الأمر، فلديها مكانان، إما الزوج، وإما القبر، وكلاهما موت وقبر واحد.

فطاعة الزوج/ السلطة، من طاعة الله:" لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد غير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها"[١١].

هذه النفسيات الامتثالية، القدرية، الخائفة، المرتهبة للهواء، والشمس، نفسيات لا تنمو إلا في الظل متسلقة بين الفروع، يعتليهن الكساح العقلي والجسدي، هذا السقم النفس جسدي هو الذي جعل الطالبات الجامعيات على اختلاف تخصصاتهن يسلمن قيادهن لسائق مجنون يتحكم بحياتهن، بخاصة وأن التعليم والعلم في جامعاتنا لم يؤنسن بعد، ومازال شبح "قطرنة" الإمام الكلي الدنيوي والأخروي، الإنسي والجني يفور، ويمور، ويترسخ، ويتجدد في ذهنية المواطنين، والمرأة/ الطالبة الجامعية بشكل أكبر[١٢].

القطرنة نفسها التي لطخت عقولنا ونفوسنا قبل جبهة رؤوسنا. أتذكر عند دخولنا الجامعة، كنت وبعض الزميلات القريبات من رؤاي الفكرية، نفتعل الصرامة في سلوكنا، فمشيتنا مثل العسكر، أتذكر حتى بعض الزملاء الذين ما إن يرونا من بعيد حتى يتهامسوا، ونسمع همسهم الزاعق: "الحكومة جت/ جاءت".

وخُلعت علينا ألقاب لصقت بقوة في شخصياتنا كـ"الشرسة"، لأننا مقطبات الجبين، ونتعامل مع الزملاء برسمية شديدة، كل هذا كان لأجل ألا يقال عنا إننا صائعات/ منحلات/ قليلات حياء.

وحينذاك حاولت التماهى بجدتي التي كان يشار إليها بالبنان "مرة بعشرة رجال" "صفة ولا مائة دقن"، يقولوا رحمه الله ولا لعنه الله؟

بعد فترة اكتشفت هؤلاء (المن) ما هم إلا الذكور، ما هي إلا الثقافة، التي نمّت داخلي الخوف وأكبرته لتتشرف عائلتي بلقب (رحمه الله) فيبعدها عن شبح (لعنه الله)، حتى يقال لعائلتي، بعد الرحمة، أحسنتم التربية.

وهكذا قتلوا تلقائيتنا، وإنسانيتنا، عندما زاوجوا في أنظارنا بين الأنوثة والانحلال، فيقال عنا مسترجلات خير من أن يقال عنا قليلات حياء.

مرة أخرى أكتشف أن لا فرق بيني الشرسة/ المسترجلة، وبين الأنثى التي تستعرض مفاتن جسدها للفت أنظار الآخرين، فكلتاهما، أو الاثنتان، عبارة عن واحدة تعمل دونما كلل على تشكيل طبيعتنا لأجل ثقافة الذكورة، لأجل الرجل، إما لتفوز بلقب "الشريفة"، أو المنحلة.

إنها تنمية الخوف وإعادة صناعته، وهي تنمية تأخذ صوراً مختلفة، فصورة: كلما صبرت المرأة على قمع زوجها، وتقتيلها اليومي، زادت احتراماً عند الآخرين، وكبرت حسناتها في الآخرة. والمحكيات الشعبية تصور كماً من النساء اللواتي اتهمهن أزواجهن زوراً وبهتاناً تحملن أقدارهن وقبلن بالنصيب، حتى يأتي منقذ آخر يكون جنياً، أو إنسياً، أو طائراً، أو أي هائمة.

وعلى سبيل المثال يرد في حكاية "وسيلة" أنه بعد أن يخطف العفريت أولادها الرضع الثلاثة عقب كل ولادة، ويلطخ فمها بدم الولادة، على أساس أنها أكلتهم، يقرر الزوج سجنها عقاباً على أكلها لأولاده، ويتزوج بأخرى: امضت "وسيلة" في سجنها عدة سنوات عاشتها قانعة بحياتها، راضية بما كتب لها، وهي تردد باستمرار "ما من المكتوب حيلة"[١٣]، المقولة نفسها التي رددها الغراب/ العفريت عندما كان ينقر نافذتها، ويردد عليها هذه العبارة "يا وسيلة، يا وسيلة، ما من المكتوب حيلة". ومنها خرجت وسيلة لتبحث عن قدرها، وصبرت على السجن حتى يؤتى لها بحجرة الصبر ومفتاح الفرج، لترجع الأمور إلى نصابها الطبيعي، فالطائر هو الذي أخرجها تبحث عن قدرها، وهو الذي خطف أولادها، وعبر الحجرة والمفتاح اللذين أتى بهما الزوج، ليكونا المنقذ (طبعاً هذا حسب التحليل الظاهري للحكاية).

وهنالك الكثير من الأمثال والحكايات الشعبية التي تكرس هذه الروح الميتة الفائضة عن الحياة، لما ترتضيه من هذا الموت الغرائبي، فصبر بطلات الحكايات لأقدارهن يعد صبراً ربانياً.

* أجزاء من بحث مقدم لمنح اليونسكو/سوزان مبارك/ الصداقة اليابانية المصرية لتمكين النساء في دراسات السلام وشؤون المرأة - (دورة ٢٠٠٥ - ٢٠٠٦)

■ هوامش ومراجع الفصل الثاني:

(١) مجلة حواء المصرية – لم أستطع معرفة العدد والسنة، فما وجدته أوراق متناثرة من المجلة.

(٢) نقوش مسندية/ مطهر الإرياني، المسند رقم ٢٤، ص ١٦٩، مركز الدراسات والبحوث اليمني.

(٣) الصُّفة: مقدمة شعر رأس المرأة، وتسمى في بعض اللهجات، النبعة.

(٤) لغز عشتار، فراس السواح، ص٣٤/٣٣، دار علاء الدين، الطبعة السادسة.

(٥) قوة الأسطورة، جوزف كامبل، ص٢٤١، ترجمة حسن صقر، وميساء صقر.

(٦) أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ، خزعل الماجدي، ص٤٥ – ٤٩، الطبعة الأولى.

(٧) الفـن المعماري والفكر الديني في اليمن القديم قبل الميلاد، منير عبدالجليل العريقي، ص٥٤٥ – ٥٤٦، مكتبة مدبولي، طبعة أولى ٢٠٠٢.

(٨) الدرم: كعب الرّجل، وقدم المرأة دليل على جمالها، فكلما كان القدم بضاً وناعماً، كانت المرأة المخفية جميلة، والعكـس، وهنـاك بعض الرجال يوافقون على الزواج من نسـاء متغطيات/ مشرشـفات مـن خلال أيديهن وأقدامهن.

(٩) القات: نبات يتعاطاه اليمنيون.

(١٠) تنمره/ أو تنمرت: توحشت مثل أنثى النمور.

(١١) القضاء في اليمن، القاضي يحيى بن محمد الهاشمي، ص٨٠، مكتبة خالد بن الوليد.

(١٢) القطرنـة: مادة كان يسـتخدمها اليمنيون أيـام الحكم الملكي، حيث كان الإمام أحمـد حميد الدين، يجبر المواطنين على وضع هذه المادة السوداء على جباههم، حتى يعتقد اليمنيون بأن الإمام له قوى فوقية، فهو قادر على جلب الجن، وتصريفهم.

(١٣) حكاية وسـيلة، من مجموعة كتاب حكايات وأساطير يمنية، قام بجمعها الأستاذ علي محمد عبده، ص ٩١، دار الكلمة، الطبعة الثانية.

● «النداء»، العدد ٩٤، الأربعاء ١٤ مارس ٢٠٠٧

٨ مـــارس.. وطـاقـيـة الإخـفـاء

أروى عـثـمـــــان

■ إلـى السـيدة بريجيـت جيـراردا، وزيـرة التنميـة والتعـاون الدولـي الفرنسـية، بمناسـبة منح اتحاد نسـاء اليمن وسـام الـوزارة، تقديراً لدوره في النهوض بواقع المرأة اليمنية.

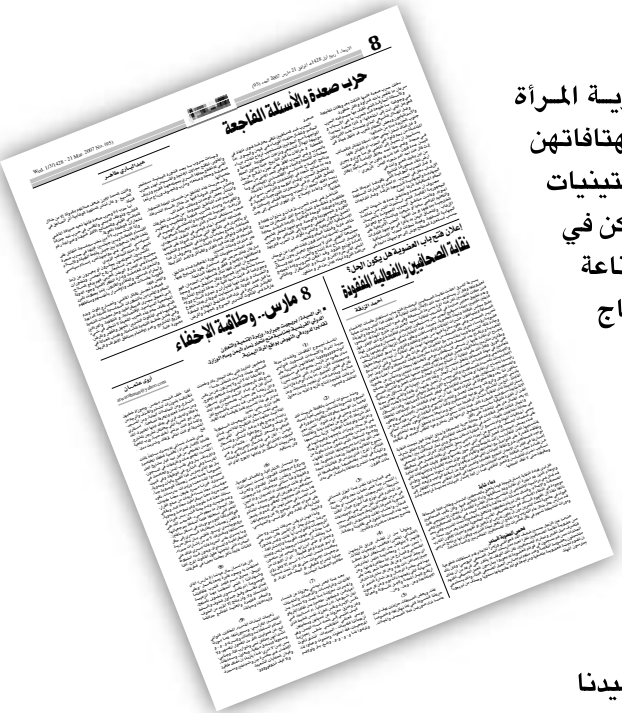
8

حرب صعدة والأسلحة الفاجعة

8 مارس.. وطاقية الإخفاء

نقابة المحامين والعباءة المنقوبة

(١)

أتأسف لجموع "المثقفات" وقائدات حركة حرية المرأة والاتحادات النسوية، اللواتي "أدوشوووووووونا" بهتافاتهن التحررية على مدى عقود من الزمن خصوصاً في ستينيات وسبعينيات القرن المنصرم، التي أنتجت تحرراً لكن في قشور المجتمع، أما بناه الوعرة فازدادت صلابة، ومناعة ضد أي تغيير وتحديث، ومن ثم كانت النتيجة إنتاج المزيد والمزيد من معاول التخلف والجمود.

(٢)

ومنذ سنوات ليست بالقليلة خرجت تلك الجموع النسوية لتتساكن، وتلعب لعبة إمساك العصا من الوسط، بمقولات تنظيرية مكرورة في المؤتمرات، وحتى في غرف النوم: "نتحرر نعم، لكن شريطة ألا نخرج عن تعاليم ديننا وتقاليدنا وأعرافنا وثوابتنا الوطنية" لازمة ستسمعها في كل حين، ويزداد تأججها وهيجانها في يوم ٨ مارس، خصوصاً في حضرة الزعماء ووجوه السلطة، التي تكون عادة مكونة من نفس تلك اللازمة بمرجعياتها الثلاث: الفقهاء، شيوخ التقاليد والقبيلة، وزعماء الحكومة. هذا الثلاثي (المرح) الذي يترأس كل الكائنات الحية والميتة في البلاد، يفصفصها، ويقصقصها ثم يوصوصها، لتخرج مكأكئة بامتياز على مدى مئات القرون..

(٣)

في البداية كنا نظن هذا الغزل النسائي (المتحرر جداً على نغمات: نعم، ولكن... نعم، شريطة...) للمرجعيات، لأجل منصب، أو مكرمة من المكارم التي توزع كما توزع عيدان "القات" في عرس تقليدي. لكن حتى في الاجتماعات النسوية الصرفة (التفاريط) حيث تتعالى سحب الدخان، وأعشاب القات، والحشوش (النميمة)، تجد هذه البسملة تتغول في تفكيرنا وخيالنا، فنسبح بحمدها حاضرين وغائبين.

(٤)

وخوفاً من أن تفتش أوراق تاريخهن (النضالي، المتحرر) فتغضب المرجعيات الثلاث، فإنهن لا يتوقفن عن الاستغفار لكل لحظة (تحرر -تمرد ، وبعصابية يلكن اعتذارهن الضمني والصارخ عن أية مظاهرة قدنها، وعن أي جينز لبسنه، وعن كل خصلة شعر لمعت على جبين إحداهن ذات يوم، وعن كل مشاركة شاركن بها في حضرة الرجال، وعن شارة النصر أو الشهادة التي رفعنها ذات يوم، وعن كل صوت ارتفع لأجل المحبة ولأجل المساواة والعدالة الاجتماعية وعن.. وعن.. وعن...

(٥)

كنت، وبعض الصديقات، حزينات كيف تردت حركتنا النسوية التي كنا نهلل لها، وخصوصاً عندما نرى صورهن تملأ الصحف والمجلات، وخطبهن النارية التي دكت الجبال دكا، وطحنت الصخور طحنا، وداست التخلف دوساً!

واكتشفنا أنه لا تردٍّ ولا يحزنون، هن من نفس نبع تلك المرجعيات الفحولية، ضلعهم الأعوج، الذي كان في أيام "الزخم الثوري" بسفور، والآن زخماً عبر حجاب. فصحيح أن قيم: الدك والطحن، والدوس، قد رصت بالضجيج لكن لم نر في هذا السديم كلمة نقيضة لهذه القيم، كقيم: نزرع، ننمي، نحيا.

هي نفس شعارات المرجعيات السلطوية الثلاثية، مثلها مثل التلقيح الثلاثي، الذي رأيناه يرجع بقوة برغم "المشلى" التي تعلم كل كتف وعضلة رجع بقوة الشلل، والسعال الديكي، والسعار الحكوكي. فاتحادا نساء اليمن -أكان في الشمال الإمبريالي وفي الجنوب الاشتراكي، قبل الوحدة- هما تفريخات، وتخريجات السلطة، بل وذيلها الأعوج الذي لم، ولن يستقيم.

(٦)

مع انحسار الاشتراكية، وانقصاف القومية، وبزوغ مرجعيات الفتوى، لبست (محرراتنا) الحجاب، ونظّرن لأفكار الفتوى والعرف، والقبيلة، وغداً ستأتي مرجعيات، أية مرجعيات، حتى لو كانت

مرجعيات أم الصبيان، وأم الجن، سيتدافعن من قبورهن إلى قبور جديدة -قديمة، فما شاء الله حجابهن العقلي وحجاب التمائم ضد الصدأ في حضرتهن على الدوام، يلمعن على الدوام، يفنى الجميع إلا هن ومرجعياتهن الضاربة في القدم، وفي الكراسي، والحياسي، والبُجم.

ولذا فهن لم يقدن حركات تحرر، ولا حتى حركة "جاري جمل" لأن التحرر فكر، تمرد على المرجعيات والثوابت أياً كانت، وليس قشوراً كما حدث في عهود القومية والاشتراكية.. فلا يختلف إن حكمتنا مرجعية ماركس ولينين وإنجلز أو علي بن زايد والحميد بن منصور، أو أبو هريرة وأبو قُطيطة.. أي أن الأموات من يحكمنا، فنحن النساء لا نسير إلا وفق رؤى مرجعيات الأموات، حتى لو كان تحت تسمية جدلية الصراع الطبقي، أو العنف ضد المرأة، أو مفاهيم الجنوسة الجندرية.

(٧)

بعد هذا العمر أجدني معزولة عن النساء القائدات، والرئيسات، والزعيمات، والشيخات، والمديرات. معزولة بلا لمعة، ولا نجمة، عن أعيادهن، وخطبهن. مقصية عن ثقافة التريكو أكان شيوعياً، أم رأسمالياً، أم إسلامياً، هي نفس الإبرة، ونفس الغرزة، نفس الخيط الذي وهن وتمزق، معزولة عن أمميتهن ومحليتهن.

كيف أنتمي إلى اتحاد نساء اليمن، وفي يومي العالمي تتقاذفني خطب إعجازية لزعيماتنا القديمات -الجديدات: "لنشكر ثالوث المرجعيات، فقد أعطونا، ومنحونا، وعملوا لنا، وتركوا لنا" و.. و.. و.. وإلخ، بل ولولاهم لكنا "خلف الشمس بخمس". وبموزاة خطبهن تتقاذفنا بلدوزرات الشتم والقذف والرجم من الشارع، ومن الحافلات العامة، ومن المسجد، ومن ساحة العلم والمعرفة تصفعنا: "استتري يا عاقة والديك، قري في بيتك أيتها الفاجرة، الله يلعن أبو الحرية التي جعلتكن تخرجن للشارع، والله لو كنتِ مرتي أدفنك حية، ورب الكعبة المشرفة لو كنت أختي لمزقتك، وشربت دمك"... إلخ.

فأي اتحاد نسائي لم يحرك ساكناً لمئات قضايا الإهدار للمرأة (كقضية الطفلة المغتصبة سوسن المضلعي من قبل أحد كبار مشايخ البلد) للنساء المفجوعات والمرهقات في السجون، والأرياف، بل وفي قلب المدن والعاصمة، في المدرسة وفي الشارع، في الوظيفة، وفي البيت، بل هو الذي يمارس هذا القمع بآليات وحدوية، خصوصاً عندما تعدد زعيمتنا الوحدوية جداً: "تحمدوا الله معنا وزيرات، مدرسات، نقود السيارة، غيرنا محرم عليهن، معنا طبيبات، مهندسات، معنا نساء قريبات من صنع القرار، معنا حرية، معنا ديمقراطية، معنا كدم، ومقالي سلتة، معنا كم ملوجة، وكم لحوحة وحدوية، وكم طنجرة، وكم جمنة قشر، بس غيرنا في دول الجوار ما معهم شيء.. فلنحمد الله على النعم التي أسبغتها علينا السلطة بمرجعياتها، فلولاهم لكنا اليوم موءودات في أسفل سافلين". وتقفز زعيمتنا بمنطادها السحري إلى حقل بروبوجاندي أوسع، لتفتي بأن لكل حرية حسناتها ومضارها، لا بد من إشارات حمراء، وما يسري على الحرية فإنه يسري كذلك على الديمقراطية والمساواة، وبدون هذه الخطوط الحمراء التي أنتجتها عقول الثالوث المرح، لكنا كائنات غابية نأكل

بعضنا بعضا في الطرقات.

(٨)

كان هـذا لسـان حـال عيدنا (٨ مارس)، الـذي احتفلت به وجوه كثيرة لامعة تُغسـل -وعلى الريق- بمرق دسـم كثير "الثرب" فثقافتنا وشـهاداتنا (التي أتحفتنا بها الزعيمة الوحدوية) لم تضف سـوى الخـوف الممنهج، الذي نفلسـفه وفق جداول الخوف والسـلط المتناسـلة، ولا، ولن يتنـج إلا المزيد من الخوف، والحفر الكثيرة والعتية لتبتلع حركتنا وإبداعاتنا وحياتنا.

(٩)

زعيمـات اتحـادات النسـاء، المعتقات، اللواتي اغتصبن الكراسـي، وسـيورثنها، كما يورث الحاكم السـلطة له ولأبنائه ولأسـرته و.. و.. و الخ، هن فحوليات أكثر من الفحول أنفسـهم، ولا أشـك أنهن يمتلكن لحى وشوارب كثة، وجنابي، وسيوفاً وبنادق مخفية، ومعاوز، وسماطات، بس أين؟ لا ندري! هذا يلزمنا أن نفكك طاقية الإخفاء، في حضرة جن وشياطين وسحرة، وغيلان الحكايات الشعبية.

وإلا كيف تشوفووووو؟

● «النداء»، العدد ٩٥، الأربعاء ٢١ مارس ٢٠٠٧

«قل لهم يا طير»: الحكاية.. وطن وحياة

أروى عثمان

■ إلى العزيزة يمنى البطران

«قل لهم يا طير».. الحكاية.. وطن وحياة

9

رجال أعمال وفنانات وتجار

"إنهم لا يحاكمونني، بل يحاكمون التراث والحضارة، من خلال هذه الخطوة، وهذا ليس من حقهم، فهم ليسوا مؤهلين لمحاكمة حضارة".

د. شريف كناعنة، موثق حكايات «قول يا طير»

****

قال الحكيم أحمد الشرواني: القاضي لا يعاند، والسلطان لا يوادد، والوالي لا يخاصم، والأب لا يحاكم".

في مجزرة كتاب "قول ياطير" اجتمع القاضي، والسلطان، والوالي، والأب -ولو أنهم كلهم واحد- على محاولة عاجزة لمحو ذاكرة فلسطين: المحكي الشعبي، قتل الطير رسول المحبة والسلام الذي أودعته نساء فلسطين باسم محمد وباسم يسوع، أن يبلغ الأمانة، ويكون لسان حالهن، المعبر عن تفاصيل حياتهن، أشجانهن، همومهن، حياتهن اليومية، أفراحهن وأتراحهن، عن حيوات أخرى لإنس وجان، وغيلان، لأميرات، وساحرات، وعن ابنة السلطان التي تزوجت فقيراً، عن ساحرات ناصرن المظلوم من جور طاغية مستبد ليحق الحق، ويملأ الحياة عدلاً، بعد أن ملئت جورا..

«قول يا طير» روح فلسطين، همس الجدات، روح المجتمع وذاكرته الجمعية.. محكي أبدعته المرأة الفلسطينية، وحافظت عليه، كما حافظت على بيارات البرتقال والزيتون، وقهرت به الموت، بددته،

أزاحت الجدب وحولته إلى خضرة وحياة.. فمثلما فعلت جدتها شهرزاد بلياليها عبر العصور وقهرت الموت المجاني، الصمت، وألجمت شهوة الدماء التي سيّلها شهريار عقب كل ليلة يفتض فيها بكارة فتاة، من تلك الليالي لألف حكاية وحكاية، انتصرت شهرزاد لنفسها ولبنات جنسها وللحياة كلها.

المحكي الشعبي في العالم، وفلسطين على وجه الخصوص، رفيقا مؤنساً من وحشة الظلم والقهر الاجتماعي، وقهر أبشع استيطان عرفه التاريخ.

هو شريان الحياة.. وكلما أجدبت رقعة الحياة في أزقة غزة، والجليل والضفة أراقتها الأم الفلسطينية من ماء الحكايات لتخصب ما حولها..

لم تستطع أية مرجعية أو سلطة دينية، سياسية، أو أية أيديولوجية، أن تقترب من النص المحكي، أو تمسه بشر، إلا في حضرة فقهاء الرباعي الواحد (الفقيه، والأب، والسلطان، والوالي) ليرتكبوا مجزرة حرق الزيتون، حرق القلم والمداد، وقبل هذا وذاك تقتيل المرأة، الأم، الجدات الفلسطينيات.. خنق أرواحهن بقلب بارد، من أجل الدفاع عن الخلطة العجائبية المكرورة، لقاموس غامض من: الشرف والعرض، والسترة، والعفة، والمجتمع الأبيض في أبيض، و... و...

اعتمدت ذهانية محاكم التفتيش في حرق الذاكرة الشعبية الفلسطينية على مهرجان كرنفالي بإسناده قراراً يقضي بتحديد أسبوع للمدارس كي تتلف «قول يا طير» في حضرة لجنة مكونة من ثلاثة: مدير المدرسة، مسؤول المكتبة المدرسية، وواحد من المعلمين، ثم يرفع تقريراً للوزارة يتضمن أعداد النسخ التي أتلفت بحسب القرار.. فكيف يزعم وزير التربية والتعليم الدكتور ناصر الدين، الشاعر (الحماسي) أنه لا يعلم؟!

لقد كان المحكي رديفاً للهوية الفلسطينية التي تنتهك، كما تنتهك الأرض والإنسان.. وفي سيل من العجز السياسي الداخلي للجماعات، ارتد ليمارس عجزه على الثقافي والروحي، عله يخلق أسطورة تاهت في طرقات فلسطين، لكنها تضخمت في المساجد والأحياء الفقيرة.. ليستردوها بمعدات المنع والإقصاء للإجهاز على أي منبت للتفكير، والفرح، والبهجة.. والونس، فلغمت السينما بمحاذير ظلامية، ونقبت النساء، ومنعت المهرجانات الفولكلورية (كما حدث في بلدية قلقيلية، بحجة أن فرقة الدبكة للفنون الشعبية مختلطة) وكأن عدة المنع ستعيد الأرض المغتصبة، بينما ستهدرها إلى الأبد.

هذا القاموس التطهري/ التطهيري، هو العجز بعينه، هو الذي سيجعل الأرض تنداس أكثر تحت أحذية الاحتلال. فنشر ثقافة المأتم، واللاحياة، والعدمية، عبر سجن الطيور وقتلها، عبر خنقها بألا تصدح، وعبر تبديل فطرتها في الغناء ونشر المرح إلى الونين، ولطم الخدود والصدور.. عبر كتمها لأي صوت مغرد، هو أفظع، وأبشع من الاحتلال..

فما الفرق بين آلية القتل الصهيوني الاستئصالية.. التي لم تقتل وتشرد الناس، وتغتصب الأرض فقط، بل اغتصبت الدبكات، والأكلات الشعبية، والأزياء.. الخ، وبين ما فعلته هذه الجماعات؟! على الأقل الصهاينة يفعلون ما يفعلون لهدف إثبات وجود، وطمس ذاكرة، أما جماعاتنا فإنهم ينكرون الوجود أصلاً، وحتى لو بزغ وجود، فإنهم يريدونه على مقاس أيديولوجيتهم..

أعتقد أن الغاصب الحقيقي هو الذي يحرق الكتاب، يكمم الأفواه، يخنق الطيور، يزرع الحسرة في قلوب الأمهات والجدات، ويلصق بهن ألقاباً من أنهن نابيات، فاحشات الألفاظ، أي لا أخلاقيات.

ويمتد الاستئصال ليشمل أساتذة قضوا أعمارهم في نهل المعرفة في أروقة الجامعات العربية والغربية. هم الذين لا يعرفون سوى الطريق من البيت إلى المسجد إلى المعسكر، ثم إلى أقرب قطار، أو سوق مزدحم، أو طريق، أو سينما، أو مقهى للتفجير بحزام ناسف..

هي نفس ثقافة الاستشهاد التي تزهق أرواح الشباب، وهي تزهق الآن أرواح النساء، وتئد الذاكرة الجمعية بحجة العفة والفضيلة.. أحزمة ناسفة للبشر وللفكر والثقافة، آلهات ناطقة متحدثة رسمية باسم الله.

فرحت زميلتي المترجمة لـ"قول يا طير" الأستاذة القديرة يمنى البطران إلى اللغة الفرنسية بقرار الإفراج عن الحكايات، بعد الأصوات الغاضبة للكتاب والمثقفين الفلسطينيين المنتصرين وللحكاية وللمرأة، لجهود الأساتذة، وللحياة..

فرحتُ معهم، لكن يبقى الفكر الظلامي يتربص بالكلمة، بالحرف، بالأنفاس، يرقب الهواء والحركة، يترصد بذهانية ناسفة كل ما له علاقة بالحياة، ينتقي ما يريد، ويسحق ما لا يريد. نعم أفرجوا عن "قول يا طير"، لكن ماذا عن الطيور الأخرى؟ ماذا عن الألوان والأصوات الأخرى؟ ماذا عن التحليق بأجنحة مختلفة؟

وإلا كيف تشوفووووووووو؟

■ **معلومات:**

– «قول يا طير»: يضم ٤٥ حكاية من بين مائتي حكاية يروي معظمها نساء من جميع أنحاء فلسطين، جمعها أستاذان د. شريف كناعنة، أستاذ علم الاجتماع والأنثروبولوجيا في جامعة بيرزيت، نشاطه العلمي التراث الشعبي جمعاً ودراسة.. محرر مجلة التراث والمجتمع.

والأستاذ الآخر هو د. إبراهيم مهوي، مدرس الأدب العربي المعاصر، ونظرية الترجمة في جامعة أدنبرة باسكتلندا.

– قول يا طير حاصل على جائزة أفضل كتاب من قبل اليونسكو.

– يعد مرجعاً هاماً للباحثين وطلاب الدراسات العليا، بل ومرجعاً معتمداً في جامعات العالم لمعرفة التراث الفلسطيني.

● «النداء»، العدد ٩٦، الأربعاء ٢٨ مارس ٢٠٠٧

وداعاً وريقة الحناء

سـؤال المـرأة فـي المحكـي الشعبـي* (الأخيـرة)

أروى عـثـمـــان

10

وداعاً وريقة الحناء

سؤال المرأة في المحكي الشعبي* (الأخيرة)

ثقافة العار:

ربما كانت كلمة "عاري" أو "عارنا" الأكثر تداولاً ووفرة في مجتمع تعود على الاستئصال، وإخراس الآخر/ المرأة، وما أكثر ما تتردد هذه الكلمة على ألسن الناس العاديين وذوي المقامات والمراتب المختلفة، وحتى ممن يُحسبون على المثقفين، فأي حادث تتعرض له المرأة يعتبر عاراً على: الأب، الزوج، الأسرة، العشيرة، الوطن، طبقاً للبنية العقلية والذهنية القبلية والعشائرية، رسمياً وشعبياً، فلو حدث احتراب بين قبيلتين فإن مجرى العرف الكفيل بوقف القتال يتطلب مرور امرأة، وحتى عندما يريدون شيئاً ويكفون قليلاً عن الحرب يأتون بالمرأة في منتصف القريتين، أو القبيلتين المتحاربتين، فحسب الأعراف تتوقف الحرب مؤقتاً.

لأن المرأة ضعيفة لا حول لها ولا قوة، فجريمة أن تقتل ضعيفاً أو مريضاً أو ذمياً أو امرأة!

أذكر أنني كتبت أيام حادثة "آدم" قاتل طالبات كلية الطب العامل في المشرحة[١٤]، فكتبت مقالاً وجهته للرئيس علي عبدالله صالح بعنوان "وما خفي بان". (وقد قُرئ بشكل واسع، ولقيت منه مدحاً يكفيني ألف سنة قادمة)، وقد استلهمت فيه حكاية شعبية، لأصل إلى أن المخفي سيظهر حتماً، وأذكر أنني كررت عبارات سمجة "احم عارك، أي بناتك، خواتك"

وتكررت كلمة "عارك" لدرجة أنني عندما أذكر هذه الألفاظ أشعر بالضحالة.

وتكررت نظرية العار في حادثة شهيرة، قبل أشهر، هي حادثة رئيسة منتدى الإعلاميات اليمنيات الزميلة رحمة حجيرة، حينما تعرضت وزوجها الصحفي الزميل حافظ البكاري للقذف الشنيع من صحيفة ولدت حينها لتلبي غرض القذف، واشتعلت الصحف، ونقابة الصحفيين اليمنيين، والأقلام، نسائية ورجالية، والنسبة الكبيرة من حملة الأقلام الثقافية كانوا يكتبون عن: "عارنا"، "شرفنا المهدور"، "اليوم برحمة، بكرة بزوجاتنا، وبناتنا"، "لن نسكت، لن نحيد"، أما الألقاب التي أطلقت على المستهدفة فكانت: "العفيفة"، "الطاهرة"، "الشريفة"، وجرى الاستشهاد بحوادث من بطون الكتب التاريخية المنسجمة مع الحدث واستنجد البعض بما حصل مع السيدة عائشة زوجة الرسول في حديث الإفك... إلخ.

وأصبحنا نحن أدعياء المدنية والحداثة قبائل، وعشائر "الرجوع للأصل" ظهر الطوطم، والتابو الذي كان غافياً في المحبرة، وفي غطاء الأقلام فقط، تسربلنا بلغة ما قبل القرون الوسطى، بل ما قبل الجاهلية الأولى "النار ولا العار"، وكأن ما حدث يطعن في الشخصية والعرض، ويدعو إلى إعلاء شأن العرف والدعوة إلى الثأر بدلاً من تفعيل دور القانون والانتصار لسيادته، وكان ذلك بعض ما برر للسلطة إفراغ القضية من محتواها المتعدي على حرية الرأي والإنسان، وإعادتها إلى بيت طاعة العرف كـ"مشكلة"، فالعرف دستور الدولة الذكوري ذو الحصان الجموح، ولا بد أن تحل القضية حسب العرف السائد تهجير "الأثوار" الثيران، وعفا الله عما سلف، وكفى المؤمنين شر القتال[١٥].

خرجت ثقافة العار والشرف من جنبية علي ولد زائد لتثأرمنا مثلما ثأر علي ولد زائد على ابنته في الحكاية الشعبية (بدرة) التي سنستعرض بعض أحداثها فيما بعد.

وأصبحت القضية وما دار حولها مثل خطابة شرحبيل حمير، وقبائل بني قحطان، فقد قام فيهم خطيباً ضد من سمي عمرو ذو الأذعار "وأنه كان يزني ببنات الملوك من حمير، فيؤتى بهن أبكاراً وغير أبكار فكن يشربن معه الخمر وكان ينادمهن على الخمر ويصيب منهن حاجته، وقال الخطيب: يا بني قحطان النساء هن الحمى فدون الحمى سفك الدماء هل جزعتم يسمكم بالنار فالنار ولا العار"[١٦].

وسواء أدركنا أم لم ندرك، من أوصاف سكبت على الزميلة من أنها "الشريفة"، و"العفيفة" يؤكد أن هذه الطريقة في الدفاع تصب في المجرى التقليدي الذكوري لحساب إهدار المعنى الأوسع والأنبل لقضية الدفاع عن زميلة تعرضت للتعدي والانتهاك بأقذع الصور، وكان المطلوب إحالة المرتكبين إلى القضاء ومحاكمتهم، وليس بتصعيد الأمور وإذكاء نار ثقافة العار والثأر، لإخراس الضوضاء وتوفير المبرر لإخراس الحق، وكأن أصحابه يثيرون الضوضاء، وكان ذلك ما حدث عندما أُخرست القضية بفردة حذاء نسوي قَذفت به امرأة (صحفية) مفخخة بعقلية قبلية ذكورية، أطلقت بما فعلت رصاصة الرحمة على القضية..

ثقافة العار التي نسمع بها نفسها، ونشهدها من أقرب المقربين لنا، فنجد بعض الناس يتحرش، أو يمارس المجون مع أي امرأة إلا من جيرانه، أو أقربائه، لأنها من عاره، أما بقية النساء فهن حلال عليه، إنه اللحم المباح الذي ليس له عاصم -أي الذي ليس له عار- الذي ليس لديه قبيلة، الذي ليس

لديه أصل... إلخ.

وتنسحق الذات/ الأنا لدى المرأة في نظرية العار وتختفي، مثلما اختفى وجودها ككيان، وأصبحت مجرد عار، ملحق بذهنية الرجل، وتحت إبطيه، بل وتحت قدميه، وفي أسفل غمد الجنبية، وثنايا "سماطته"[١٧].

حكايا البروكست[١٨]

فرشان: أحدهما طويل، والآخر قصير، الفراش الطويل يفترشه القصير، والفراش القصير يفترشه الطويل، وتبدأ لغة القتل لقاطع الطريق، الذي قد يكون لغة، ثقافة، إنسانا... الخ.

بروكست أو الفراشان ما هما إلا مجتمع ودين بالنسبة للمرأة قاطعان للطريق، والمرأة بطولها، وقصرها، ونحافتها، وغلظتها ستنام على الفراشين لكن بطريقة بروكست.

ويظل التقتيل على هذا النحو، ولو استطاعت في لحظة منسية أن تتساوى مع الفراش، ستموت، ستقتل تحت أي مبرر، والسؤال العبثي لماذا تساوت مع الفراشين دون إذن من بروكست (النص، اللغة، الثقافة، الكتابة... إلخ).

لا تصالح مع المرأة لدى بروكست وفراشه فذهنية القتل حالة.

فنجد في معظم الحكايات الشعبية المثل: البروكست يلاحق النساء، ويعبث بحياتهن، الآباء الذين يعاقبون بناتهم، بالموت تارة، وبالطرد تارة أخرى مثل حكاية الرمانتين (الفتاة الصغيرة التي أتت برد لم يكن مثل رد أخواتها الست، فعندما يغدق الأب على بناته الهدايا والحلويات يسألهن من يرزقكن، فكلهن يجبن أنت يا أبي، أما الفتاة الصغيرة، فتقول: الرازق هو الله)، وحكاية "ملح الطعام" أو حكاية "بنت الطلحة صابرة" والملحمة الشعبية الواقعية "الدودحية" التي حدثت في ثلاثينيات القرن المنصرم[١٩]، والحكايات الثلاث التي في طيات هذا البحث "الجرجوف، جليد أبو حمار، صاحبة التويقت".

واحدية الوهم

عندما تجعلني النصوص أعبد من يقهرني، ويذلني، يعبث بحياتي كملكية خاصة لرجل بخيل خلقته ثقافة البخل والشح والزكسحت حد التقتير العصابي، فتلك مجاعة الحضارة التي "تستجمع" كل الآخر في (المرأة).

إنها ثقافة تهرولني باسم المقدس لأن أصلي خلف عجيزة سليل المقدس، الخيل والبيداء والسيف والناقة. وجهي وأنفي يتشممان رائحة أقدامه وغازاته، وعرقه، لتغدق علي عطايا أم المؤمنين، أم الملوك، سيدة الناس وذات الحجاب المنيع والستر الرفيع[٢٠] أم الرجال، وأم العيال، ولا ينسى في غمرة من عطاياه أن يحيك لي ثياب الستر والعفة، وينطقني حروفه، يجعلني أسبح باسمه وترانيمه، أنهل من ثقافته الواحدة القاهرة، التي ألجمت حياتي بقبرين: قبر الآخرة، المسبوق بقبر الزوجية القبر الأكبر.

ثقافة المحرم، و"لاءاتها" شديدة الخصوبة المتغولة في كل زمان ومكان، أوامرها ونواهيها المفخخة يجب أن تتشظى إلى جزئية الجزئيات، لتتلاشى، أن "تكحت"، أن تختفي حروف الحاء (محرم) وحرف الزين (زانية) وحرف العين (عوراء) التي ألصقتها بنا حضارة البخل في إنسانيتها، شديدة العطايا بثكنات المقدس التي تحتفي بهذا الثالوث، وتتناسل من رحمه.

أخزاق اللغة

أتغيا من هذا البحث: النسبية بما هي اختراق كل ثابت وساكن وقفز عليه، أو عجنه كما يعجن المدّار (صانع الفخار) الطين بأقدامه السمراء المتشققة، "أكحتها" كما "تكحت" الأمهات العصيد اليابسة الملتصقة أسفل الدست/ الطنجرة، كما تنخد الخبازة الفطيرة من وجه التنور، ذلك ما أتغياه.

لا وقت لدينا للتنميط، وعرض مفاتن الوعظ، في نسيج المحكي، ذلك النعيم الأبدي الذي يجب أن تتمثله المرأة كونها آتية من رحم الثالوث الآنف الذكر.

فلا بد أن تنتهي جنة الوعظ والواعظين، وأضعف الإيمان، أن يشح وتجفف منابعه المستقوية على النص الديني، والأيديولوجيات الاجتماعية والثقافية.

لا وقت لبطولات الرجولة المطلقة، والأنوثة المطلقة، مطلق العبودية يجب أن يختفي، يزاح في هذا الزمن المتشظي، الواحديات والكليات تتفتت، أعتقد أنه انتهى عهد الراسخين في النص، الدائمين في المتن، الساكنين في المركز والمحيط.

لا ثابت في المتن والهامش

"فوق الهامش" يجب أن يجاور الشمس، ويتعلق بأهداب الأفق[٢١].

وحتى مصطلحات الموضوعية، الحيادية، الوسطية ميزان أرسطو الذهبي... إلخ هذه "البينيات"، و"التوفيقيات" لمصطلحات الوهم التي تتغذى من نفس شريان المطلقات، والنصية الأحادية، المصطلحات التي تشتعل، ويزبد رغاؤها في المؤتمرات والندوات التي تقوم من أجل المرأة، والتي هي في أغلب الأحيان ضد المرأة، وضد الرجل، لكن ضد المرأة مضاعفاً. فتصبح المرأة في تلك الأجواء ذاتيتين في ذاتية واحدة، وأحياناً ذوات كثيرة يظهر منها على السطح ما ظهر، وينطمر ما بطن، بسبب تلك المصطلحات الخارجة من قلب اللغة تصلينا، ونصطلي بها إلى أن نكتب، ونناقش ضد أنفسنا، وضد الإنسان، فالمرأة "ليس لها مخزون حضاري يساندها"[٢٢].

نريد جرعة صغيرة لأن نتحرر من الشعاراتية في خطابنا فـ"الخطاب قوة" كما قال فوكو، وكل من الخطاب والقوة، السلطة تؤنسنان بالمعرفة، حتى نستطيع أن نقول عكس ما قالته الدكتورة آسيا جبار: "لا أستطيع أن أكتب بالعربية لأنها لغة الرجال ولغة السلطة"، وحتى لا نكتب بلغة، ونغني، ونصلي بلغة أخرى، مثل آسيا جبار التي تقول: "أكتب بالفرنسية وأحياناً أصلي بالعربية"[٢٣].

سيقول قائل إن المرأة تجد نفسها في كتابة الرواية إذا كانت كاتبة، مثل المرأة خلف الجبال التي تحيا بالحكاية لمساحة البوح التي تجمع في هذا الجنس من الحكي، مساحة الحرية، وإطلاق العنان لأسفل "التختة" لتتسيد النص، وتتسيد الجسد "بينما استطاع الفن القصصي، بسبب طبيعته الديمقراطية من ناحية وجدته في الثقافة العربية من ناحية أخرى، أن يمنح المرأة مدخلاً إلى النظام الرمزي، وأن يمكنها من أن تروي قصتها بنفسها بدلاً من رواية الرجل"[٢٤].

صحيح هذا الذي يتم الآن فيما تشهده الكتابة في عالمنا العربي المعاصر، حيث تروي المرأة حكايتها، وسيرتها بنفسها، تتحرر عبرها من كل مطلقات الأبوية، والنصية الرسمية والمغمورة، لكنها تقع فيه من حيث لا تدري تصبح ذكورية، بل وأكثر ذكورية، روح المقاومة تحمل راية الخذلان تصبح يوسف، والرداء، والذئب من حيث لا تدري، تصبح "وريقة الحناء" والخالة الشريرة في الوقت نفسه، تصبح الدجرة، والجرجوف، وبطلتي الحكايتين اللتين لا تحملان هوية/ الاسم.

شرك شاهق ووعر لا تستطيع أن تتجنبه المرأة الكاتبة التي تعبر عن نفسها، فهي تكتب بلغة، وأدوات ذكورية، نصية، ثابتة، متجمدة، فـ"اللغة ليست أداة للتعبير عن علاقات القوة بين الجنسين فحسب، ولكنها أداة صياغة هذه العلاقات وبلورة آلية تراتباتها. لأن اللغة هي أداة أساسية من أدوات الهيمنة الرمزية التي تنطوي استخداماتنا لها على أشكال متعددة من العنف الرمزي الذي تتحقق عبره تلك الهيمنة وتمارس فعاليتها في تحديد الهوية الفردية وتصورها لدورها في المجتمع وموقعها فيه"[٢٥].

لعبة الكتابة

هذه اللعبة خطرة

أنا لم أجرب أن أكون شاعرة عمودية

وأنت لم تجرب أن تصبح قصيدة مفتوحة

لكنني لا أعرف ما الذي أكتبه

إلا بعد مضي عمر[٢٦]

أخزاق اللغة.. مرة أخرى

حتى عندما يقال للخروج من دائرة الثبات في اللغة، فيقال إعادة صياغة، إعادة إنتاج، تأويل، تجديد... الخ من هذه التعبيرات والصيغ التي تعج بها ثقافتنا العربية المستكينة، المناهضة للتغيير، والتغير، وما هي إلا أوهام تتشظى للمنتج الواحد في قالب تعبيري شكلي، حتى وإن بدأ يفكك في العمق -كما يبدو- فاللغة، وكل أدواتها هي ذلك الواحد المتحجر بكل حياتنا، فكيف نجدد، ونعيد، ونؤول... إلخ والأداة هي الأداة نفسها، اللغة نفسها اللغة، هذا يذكرني بشيئين: بالسلطات القمعية الفاسدة التي تحت سطوة رياح التغيرات، تنادي بالتغير، والديمقراطية والتجديد، بأدوات من الجسد نفسه، من الذهنية نفسها، فتصبح هذه الألفاظ عديمة الجدوى والفائدة، بل هذاراً ثقيلاً جداً.

نفس ما كانت تفعله إحدى الخالات المشهورات بجمالهن في وقت مضى، فقد كانت تتجمل، وتتطيب بأجود المستحضرات والمنتجات آنذاك، فترى الوجه المسبوك، والثياب المزهنقة، لكن لو فتحت منديل

رأسها أو "مقرمتها" يتكشف الرأس كمرتع للقمل والأوساخ، أما "شعبكة" الشعر الذي لم يمشط من أشهر، فيحتاج إلى فيالق من الماشطين. وكذلك هو الحال تحت الملابس المزهنقة حيث لا يختلف عن حالة ما تحت "المقرمة". إنها ذهنية تراكيب أساميا نفسها التي تحمل نقيضها! الأمين لصاً، والقبيح جميلاً، والصالح فاسداً... الخ.

أعتقد أنه يكفي التشدق بإعادة المنتج، بصياغته، بل لا بد من منتج جديد، بصياغة جديدة، عدا ذلك سنجلس في الرقعة نفسها أو "الخزق" نفسه، المطب نفسه.

لذا نحن مازلنا، ليس فقط نحوم، بل نعوم داخل المنتج الشفاهي، ومنطق اللغة، حتى بعد أن تملكنا أدوات كتابة ليست لنا، وليست منا، وليست لغتنا بقوتها المؤنسنة، وغير المؤنسنة، وبأدواتها الناضحة بأحرف الواحدية، والقهرية، فنصبح نساء نقاوم التهميش، ونمارسه كتابة، وسلوكاً، نقاوم ثقافة الذكورة ونكتب لغتها، بل أصبحنا أكثر ذكورية، نعارض الأبوية، ونحن نمارسها، حتى الأمومة نفسها نذكرها من حيث لا ندري.

لعبة المختلف

سألعب معك أمومتي "لأنني لم أكن يوما أماً تامةً"

وستلعب معي رجولتك "لأنك....."

ثم سنقلب الأدوار

سيتضح لي أنك أم خالصة..

وسيتضح لك أنني رجل من الدرجة الأولى..[٢٧].

ذوات متشظية، مرض لم نصنعه بأنفسنا، أمرضتنا اللغة والتياث أدواتها التي تنخرنا شئنا أم أبينا، وعيناها أم لم نع، فالآخر يصبح "هو ما لست أنت وهو كوجود فيك، الآخر هو اللغة، فأنت لا تستطيع أن تفكر بنفسك ولنفسك لأنك تفكر بواسطة اللغة، هذه اللغة ليست لغتك، هذا الآخر يشبه الزنزانات المفتوحة، أنت فيها، وتستطيع الخروج، لكنك لا تخرج"[٢٨].

لغة أعلتنا، جعلتنا مجرورات بأحرف علة معوجة، متكسرة، ينخرها السقم، وحتى وإن رفعتنا، ونصبتنا، فلن تخرج عن رقعة الجر والمجرور، السيد والمسود.

والسؤال:

هل سنتمكن في يوم ما أن نتحرر من عبوديتنا وننجز لغة جديدة، لغة إنسانية، لا نريد لغة أنثوية خالصة، ولا لغة ذكورية خالصة، بل لغة أفق تكون لنا ذكوراً وإناثا، إناثا وذكوراً "هويات مستقلة ومختلفة ومتحاورة في آن"[٢٩].

من يجد الإبرة بين التبن

من خلال قراءتي عن المرأة لاحظت الكثيرمن المجندات يتهافتن على نبش كتب التاريخ، والذاكرة، والفقه، والكتب المقدسة، وكل كتب التراث، يبحثن عن لفتة، عن إشارة، عن رأي، عن إيماءة تنصف

المرأة، أو تشيد بها، أو امرأة خرجت عن المألوف، وتظل الكتابات ترغي وتسيل، تستنزف الوقت والجهد والعمر، دوران مهلك، ونحن ندب في البحث للتنقيب والتنجيم عن جوانب مشرقة في هذه الذاكرة التي بلا ذاكرة فيما يخص المرأة، فتشحذ هممنا بالتأويل، وننحت في صور ونخرجها من اللازمن لنحاكيها في زمننا، ننبش هنا وهناك، ونكتشف "أنا" مثل الدجاجة التي تنبش لتهيل القاذورات فوق ظهرها.

ولقد رأيت أنه من العبط الاستمرار في إهدار طاقاتنا في التفتيش عن "شقفة" فعل، لامرأة غير تقليدية، أو امرأة أسندنا إليها أدواراً ووظائف خارج بيئتها آنذاك. إننا بذلك نقوم بالفعل نفسه الذي يقوم به المتزلفون "حماة الإسلام" الذين اتخذوا من عجزهم، وانهياراتنا السياسية، والاجتماعية، والثقافية، والدينية، لنعولم الإسلام، و"نكتلجه" (تكنولوجيا)، و"نؤنتره" بالأنترة الإسلامية (الإنترنت) ليكون إسلامنا هو السباق إلى العلوم والمعارف قبل اكتشافها.

لا بد من تنحية الذاكرة قليلاً، لقد شبعت تنقيباً، و"تنجيثاً"، وتفتيتاً، وقد استهلكت، بل وانتهى زمنها الافتراضي منذ قرون، وبالطبع لن تجود بشيء، أحسن مما نحن عليه.

فلنجعل ذاكرتنا التاريخية تسترخي وتنام أنفع لها ولنا، وإن أمكننا فلنجعلها تحاكي الفن والإبداع، ونبدأ بكتابة امرأة جديدة، وفعل جديد، وكتابة جديدة.

ما تقوم به كثير من الناشطات في مجال المرأة، والكاتبات، أزعم أن معظمه عدمي تهدر فيه أعمارنا وتضيع ونحن نبحث عن إبرة داخل جبال من التبن.

ذاكرتنا التاريخية مثل "حبوب مجذوب"[٣٠] علينا أن نهدر قروناً أخرى لنفرز الحبوب المتشابهة، والمتجانسة. فعل كهذا يحتاج إلى ساحرة كالتي تحب وريقة الحناء لتفرز الحبوب المختلطة التي عملتها خالتها "زوجة أبيها" حتى لا تستطيع أن تذهب إلى حفلة ابن السلطان، بل وفي حالة قبول الساحرة، يجب أن نكون قد قمنا بأعمال لصالح الساحرة: أطعمناها من فطورنا، وأخرجنا القمل من رأسها ومشطناها، وأن نقارن بين "الكُنَم" (القمل)، هل يشبه ما في رأس أم وريقة الحناء أم لا.

إنه الممكن الذي لا تقدر عليه إلا الساحرات، وماذا عن عالمنا الذي انتهى منه عهد السحرة؟

ما يزعج في الأمر أن نجد كثيراً من الأخوات يقمن بفرز حبوب المجذوب، وهن يعرفن مسبقاً أن الحبوب مسوسة -أي الذاكرة مسوسة.

تذكرني هذه العمليات لدى أخواتنا المشتغلات بنبش الذاكرة، ونفضها؛ للبحث عن حبة في الحقل الفلاني، وحبة أخرى في الوادي الفلاني، وأخرى في رأس الجبل العلاني، فعندما يجدن الحبة المضيئة يصرخن فرحات بصرخة تشبه صرخة أرشيميدس: "وجدتها.. وجدتها" هذه اللقية/الكنز علامة الغياب أو الإغماء الجماعي.

* أجزاء من بحث مقدم لمنح اليونسكو/سوزان مبارك/ الصداقة اليابانية المصرية لتمكين النساء في دراسات السلام وشؤون المرأة - (دورة ٢٠٠٥-٢٠٠٦)

■ هوامش ومراجع الفصل الثاني:

(١٤) حادثة آدم، وهي حكاية شـــهيرة راح ضحيتها العديد من طالبات كلية الطب، حيث قام المدعو، مع كثير من المتنفذين، بقتل بعض الطالبات في مشـــرحة كلية الطب، ثم التصرف بجثثهن، وقد كتبت الكاتبة مقالاً بعنوان "وما خفي بان" في صحيفة الوحدوي إبان تلك الحادثة/ الجريمة.

(١٥) تهجيـــر الأثـــوار: تقليد يمني عند القبائل، حيث يقوم المتشـــاكلون بذبح الثيران، لإحلال الســـلام والوفاق بينهم.

(١٦) التيجان في ملوك حمير، لوهب بن منبه، تحقيق ونشر مركز الدراسات والبحوث اليمني.

(١٧) الجنبية: الخنجر الذي يتباهى به اليمنيون، ويفاخرون به كعلامة للرجولة، والشرف، والقوة. والسماطة: هي عمامة صغيرة يضعها اليمنيون على رؤوسهم.

(١٨) حكاية البروكست: الحكاية والتأويل، عبدالفتاح كليطو، ص٢١، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى.

(١٩) الدودحية: حادثة وقعت في أواخر ثلاثينيات القرن المنصرم في وادي بنا في اليمن، أحبت الفتاة ابن عمها، وحملت ســـفاحاً، ثم أصدر بحقها حكم التعزير، وقضى بأن يجولوا (يدردحوا) بها المدن والأرياف، فيرجمها الناس، حتى تكون عبرة.

(٢٠) المـــرأة اليمنية في الدراســـات الغربية، ص٩٢، المعهد الأمريكي للدرســـات اليمنية، ترجمة أحمد جراجات، مراجعة وتحرير: لوسين تامينيان.

(٢١) أروى عثمان، عمود "فوق الهامش" صحيفة الثقافية.

(٢٢) هدى الصدة، المرأة وسلطة الكلمة، بلا رقم عن أبحاث المرأة العربية في مواجهة العصر، دار المرأة العربية – نور.

(٢٣) آسيا جبار، أخبار الأدب، العدد ٦٢٦، ترجمة عن لوفيجارو ٢٠٠٥/٧/١٠.

(٢٤) صبري حافظ، ورقة عمل بعنوان "صورة الرجل في روايات المرأة العربية"، ص٢١٣، عن أبحاث المرأة العربية في مواجهة العصر، دار المرأة العربية – نور.

(٢٥) صبري حافظ، نفس المصدر، ص٢١٢.

(٢٦) نبيلة الزبير، شاعرة من اليمن.

(٢٧) المصدر نفسه.

(٢٨) خالد آغه، اللغة السيرة المفتوحة للنصوص المغلقة، الجزء الأول، ١٩٨٠.

(٢٩) المرأة العربية في مواجهة العصر، ص٢١٦.

(٣٠) المجـــذوب: هو الرجـــل الذي يعمل في مقامات/ أضرحـــة أولياء الله الصالحين، ويـــؤدي حركات بهلوانية سحرية، كأكل الجمر، والطعن، والمشي على النار، وعندما كانت النساء يقمن بالزيارة، كانت كل واحدة تحمل حبوباً مختلفة، وكلها تجمع في كيس واحد، وقيل هذا التعبير للإنسان الذي يخلط كل شيء، ولا يستطيع فرز الأشياء..

● «النداء»، العدد ٩٩، الأربعاء ١٨ أبريل ٢٠٠٧

صباح الخير يا رازح*

أروى عثمان

صباح الخير يا رازح

لا أجرؤ أن أسأل عن حالك يا رازح
هل صبحك صباح يا رازح؟
وكيف المساء؟
خبرني يا رازح عن النضير وساكنيها من النضراء مثلها، فلا تتخل عنها، حن عليها، وأفرد أجنحتك، لملمها، حوّط خضرتها، ارزح قامتها المنهكة، كن سندها، وقل لها لا تحزن من جور الظلام الدامس، ومياه الشرب الملوثة، والفقر والطلاب الذين يؤدون تحية العلم: الله - الوطن -الثورة - الوحدة، في العراء.. قل لها لا تبتئس إن كانت عاقبة هذه التحية سوى الموت تقتيلاً، قل لها لا تغتظ، وهي ترى على بعد كيلومترات المدن الجارة تتوضأ بالنور، والحياة الإنسانية الكريمة...

**

وعن جبال، ووادي دهوان، خبرني
عن موزها الهندي والبلدي
واليعفلات (الشجرة الأم للموز)
وأشجارها الطبية
عن قلاعها ونوبها
وهل مازالت تذاكير الفجر تغبشش نومنا من مئذنة النضير القريبة؟

● طفلة مبرقعة من صعدة

خبرني يا رازح.. أمازالت رقصة الواسي مشرعة نحو الشمس، وعن حركات النسور، والملابس البيضاء بأكمامها الطويلة العريضة؟ وماذا عن الرقصات الأخرى: المثلوث، والمربوع، والبيلح، والمسدوس..؟

**

صباح الخير يا نساء رازح

فتياتها

أطفالها

شيوخها

أما تتذكرون ما قلتموه لي ذات يوم "من أن امتشاق الشمس ليس صعباً على رازح".

خبرني يا رازح عن: ضحيان، ومجز، وساقين، والدربين ووو

● الباحثة مع فتيات من منبه

قليـلاً قليلاً اجعلني أسـتعيد ذاكرة إسـفلت ضحيان، وطرق مجز غير المسـفلتة، هـل مازال الناس يتداولـون خرافـة: مـن أن ضحيان أصبحت مدينـة، على الرغم من أن مجـز المديرية، فضحيان رحبت بالإسفلت وأصبحت مدينة، بينما مجز رفضته لأن حنشاً أسود سيلتهم الناس إذا ما سفلتوها؟

لقد فُتحت سيرة الحنش الأسود: واللهم استر على رازح إذا قرأت سورة الحنش الأسود.

**

صباح الخير يا رازح.. حتى لو كان الصباح غير مشرق.

ماذا عن وادي العابدين، عن موسم العنب الأسود والرمان هذا العام؟ وهل مازالت الطيور سكرانة من حلاوتهما، أم الرصاص امتص رحيقهما، وبصق بالمر الأسود... أمانتكم خبروني عن حال الطيور؟

خبرونـي يـا أحبائي عن قلعة حُرم، وعن عوفان حارس القلعـة، وهل مازال المدفع التركي نائماً في تلـك الغرفـة الصخرية؟ وماذا عن دهاليزهـا، وجدرانها؟ أمازالت يا شـيخنا عوفان "تحتزب" وتحتزم بالجنبية، والعمامة العامرة؟ وهل مازالت ترقص البرع في أروقتها؟ وكيف حال زامل المرحب؟ أمازال صداه يرن في أقبية القلعة وجبالها؟

سلام لزعيم اليمن ذي درب الرجال
هباء عيون الساهرة حراس في الجبال
شل الشجاعة بعد دولة سيف بن ذي يزن
يحفظ علي فيه الوفاء والعز والكمال
رجع حنيش من دون حرب ولا قتال
لجأ إلى التحكيم نجا شعبنا من القتال

**

صباح الخير يا عوفان!

وألف صباح يا عوفان.

على خيلائك في الرقص، وعلى الصلوات الأخرى الراقصة في الساحة.

عن الرقص في علو القلعة وفي أسفلها، وجوانبها.

قلت لنا يا عم عوفان: إن القلعة كانت عصية على الأعداء... فهل مازالت كذلك؟ أمانتك أسوارها، والشجيرات النابتة في الشقوق، والدرج المبنية من الحجارة، أمانتك بركتها، حتى ولو كانت آسنة.

أتخبرك يا رازح عن أصدقائنا: مسفر، والطبيب والمثقف أحمد جبران،

وعن فتيات مجز والدربين أمازلن يتدممن؟ ونباتات "العيقال" أمازالت مخضرة وغضة؟

قل لهن: الشمس حارقة وخطوط النار أحرقت الأخضر واليابس، فليكثرن من التدمم فأرواح الشر تملأ الطرقات والجبال.

فرشرشن يا بنات رازح رحيق -العيقال- على وجوهكن حتى لا تشيخ قبل الأوان.

**

أمانتك يا رازح تبلغ سلامي لصديقاتي الحطابات المليئات بالحيوية، حتى وإن كانت أشغالهن شاقة مؤبدة، أفرد قامتهن يا رازح، لقد تقوست ظهورهن وهن في عمر الزهور..

نجّ أعمارهن المهدرة بمجانية في الجبال، وبين الأشواك..

وقل لهن: إنهن جميلات بخصلات شعرهن الخارجة من اللفائف السوداء المخيطة بالخرز الملونة، المنسجمة مع عقودهن الخرزية الملونة، وأن عُصابة رأسهن من الطاس والأقمشة الملونة تاج زادهن جمالاً.

قل لهن: يكثرن من الغناء والأهازيج، لا يتوقفن عنه صبحاً ومساء، خصوصاً هذه الأيام؛ فالهاويات

● رقصة البرع.. من قلب قلعة حُرم - جبال رازح - صعدة

كثيرة وعميقة، وحراس الهاويات تخافهم الأغنيات:

أهل الحسد غطوا على الماء بزربة

حسدوني الشربة وقدني على الغيل

يا رب أسألك هب للمولى نكبه

ولا يجيء له برق بين أول السيل

كم قدني هائم على فص ياقوت

يا رب قبل الموت عيدي ألقاه

يا ذي جرح قلبي واسقاني المر

مالك بصاحب يهينك نحا الناس.

**

خبرني يا رازح عن: المهاذر، وفلة، ومنبه، عن سحار، وغمر، وجماعة،

عن صانع المزبى في فلة، وأمه الراعية، وابنته الصغيرة المدممة... قل له لا ينس الودعات في جوانب المزبى.. فالشرغات كثيرة وحادة، وأرواح الشر تحوم حول أطفال، والحسد (الحولة) متربص بكل ضحكة...

الودعات، ثم الودعات، ثم الودعات.. لتسكن المحبة والخير مهد الأطفال.

وستأتي الجدة تترنم بتهويدات النوم (الزوال).. وبضع حزاوٍ وحكايات عن الغول الذي فتك بالناس، وعن البطل الفقير الذي حرر المدينة من الدمار والهلاك.

**

وماذا عن عمنا سليمان يا رازح؟ كيف حاله، و زنانيره الملوحة للشمس؟ قل له لا يخف من إبراز زنانيره الطويلة المرتبة بعناية، قل له يطلقها في الفضاء، في الفضاء أكثر وأكثر، وليتلو شيئاً من أسفار التوراة.

اشكره على القهوة حلوة المذاق، وقبل أطفال الحوش طفلاً طفلة، قل لهم أن يمنحوا خصلات من زنانيرهم، ويعطوها لعين الشمس، لتمنحهم لمعة، وتفتح أحضانها لمواصلة اللعب:

فتحي يا وردة

غمضي يا وردة

هنا حُسن

وهنا مناحيم

وهناك أبونا سليمان ينثر المحبة على كل طرقات صعدة.

**

● حطابات من مجز

رازح.. خبرني، هل الشباب تطهروا قبل عرسهم؟
وكيف المدرمة (زامل حماسي يقوله الختين)؟
ماذا عن الحديد على الحديد
ونار الله الوقيد
واختن يا ختان بالشفرة والهندوان
سلامتكم... ولتبدأ زغاريد الختان، ونثر النقود والحلوى
وحيا على الرقص، حيا على الرقص، وأغاني السلى.

**

رازح:
كيف الغُبرة هذه الأيام؟
وكيف ستتقبلون علان؟ وهل أكملتم الشرياف والدريس؟

وكيف حال أهازيج الشتوة؟

...

وخبرني عن الشوارق، والنحت، كيف المناجم، وصناعة المقالي؟

وعمالها أمازالوا يكتبون وصيتهم قبل الدخول إلى المنجم أم أن الوصية خارج المنجم تكاثرت، وأصبحت المدافع تسبق الوصية، وتسبق نطق الشهادتين؟

**

كيف صباحاتكن يا نساء الأزد؟

أما من هزملة للغبرة؟

ورجالكن، أمازالوا خلف الأثوار، يحرثون، ويهزملون بصباحات طرية شجية:

نحزب كل رومي صفة الحدادة

سلها الرجال والمسبحة زادة.

**

رازح بلغ الحجور.. يقولون لمتطي الجثث: محجورين بالله والنبي والحسنين أن يكفوا عن فتح مناجم نحت الموتى، أما يكفي عذابات نحت المقالي التي تأكلون وتسلتون فيها ولا تعلمون كيف جاءت؟ عبر أي وصية وقافلة موت محقق أتت تتوسط موائدكم العامرة؟!

رازح:

بعد أشهر سيأتي العيد، فكيف سيكون البيلح هذا العام؟

وكيف ستنطلق زغاريد الهود؟

ومحمد بمن سيملك في العيد؟

وريشة هل ستزف إلى جارها هذا العيد؟

كيف ستتزين عرائس وفتيات ونساء رازح؟

ريشة: هل ستختار الجمزة أم الغمصة (أنواع من نقش الحناء)؟

خيرة: هل ستندش شعرها، أم ستجعله جدائل مطعمة بالبعيثران، والزهور البرية؟

وفرجة: قل لها لا تغالي في حق الفتاشة، تكفيها ١٠٠٠ ريال، وأحسن ألا تأخذ فلساً واحداً، فلتفتش لتستنشق الحب، وتغرق في عيون حبيبها من غير حجاب، ولترتشف قبلة بعيداً عن الستار. قل لها: لم يعد الوقت يكفي للمبايعة، كم؟ وبكم؟ قبلة واحدة تكفي لتصد رعدة الخوف والموت، وشرف القبائل.

رازح: كيف شنطات العرائس الخضراء الحديدية المرسومة بالقباب والمآذن؟ هل هي عامرة بالعطور والبخور، والأقمشة المتللة، والدهان بماركة أوروبية، والبودرة، وأقلام الحواجب، وملابس المطبخ، والنوم؟

زنرن بيوتكن الجديدة بالشذاب، والريحان، وانثرن الزبيب والتمر في غرفها.

**

صباح الخير يا أستاذة أميرة

صباح الطباشير والسبورة، وأقلام الرصاص

كيف طلابك، وطالباتك

أمازالت المدرسة ينقصها الكراسي، والطلاب والطالبات يفترشون التراب؟

سمعنا بأن مدارس رازح وصعدة تحولت لثكنات قتال.

من يقتل من؟! تلك هي المشكلة يا أميرة،

تلك هي العبثية.

وعدم لا تتحمله جدران وسقوف المدارس المتهالكة

والكراسي بدون كراسي

وسبورة من دخان، وطباشير رماد.

كم بقي من الطلاب.. يا أميرة؟

هل تركوا المدرسة، والتحقوا بقوافل الموت.

لا تخيفيني يا أميرة

أحس برعب، وخجل من وجوه الطلبة والطالبات من أن تكون قذائف الموت قد لونت دفاترهم بالأحمر والجثث.

أمانتك بهم

وألا يكثروا من أناشيد تحية العلم، حذريهم كثيراً، ما يحدث هي إحدى كوارث تحية العلم،

قولي لهم: ألا يتحمسوا للإخوة الأعداء، "فتورا بورا" لم تقم لها قائمة بعد أن أكثرت من أناشيد المارشات، وحرمت الغناء والرقص.

علميهم الغناء، وحب الحياة حتى وإن لم توجد كهرباء

حتى وإن لم توجد طرقات،

حتى وإن تهالكت البيوت

وأحجار البلق أصبحت غباراً

علميهم: كيف تُضاء الشموع والفوانيس في الحلكة،

فتيل شمعة كاف لطرد بركان الدم.

صديقتي الأميرة!

كيف حال والدك محمد علي أبو طالب؟

أمازال يسترشد بالمتنورين، ويحاور، ويحلم...؟ قولي له يواصل حلمه في مشروع مياه نظيفة، وفي بيت آمن، وفي حياة إنسانية كريمة، وكهرباء مثل إخوتنا الذين نراهم من أسطح منازلنا يغتسلون بالضوء.

**

صباح الخير يا منبه

صباح العكاوات، ورائحتها الزكية: عكاوات الورد، والبعيثران، والكاذي، والزهور تعتلي الرؤوس.

ما أخبار المرابع (بيوت طولية تمنع الضباع من اقتحامها) أمازالت منتصبة هامتها؟ وهل الذئاب والضباع مازالت تحوم حولها؟

سيتضاعف القطيع، وحذار من الذئاب والضباع البشرية، إنها أشد فتكاً، ولا بد من سكب الهزلات في كل آن:

ياالله اليوم ياالله

من على كل ديرة بالرضاء وام ستيرة

ياالله اليوم ياالله.

منبه

تنبهي بأن ساعة الظلم والظلام لن تطول

وأن رشرشة السمن المباركة ستحفظ أطفال وشباب وفتيات آل غمر، والطارقي، وآل أم شيخ.

**

لماذا صعدة ورازح!؟

صور تحاورت ذاكرتي كباحثة، مع ذاكرة صعدة، ورازح، ومنبه، ومجز.. الخ عند زياراتي لصعدة في التسعينيات.

فماذا أقول لذاكرتي التي التقطت شجن الجدات، وزوامل الرجال، ورقص الفتيات، وحكايات النساء، وهزلات الفلاحين؟

ماذا أقول لذاكرتي وأنا أترصد متاعب وهموم أبناء صعدة في أن يكونوا مثل خلق الله، أن نتسامر في السطوح، ونغني في الظلام، بينما المدن القريبة من السعودية المجاورة تشتعل بالأضواء، والمياه النظيفة. وعن الطوابير البشرية للبنات والأطفال والرجال، وهم يقطعون طرق صعدة للوصول إلى مدن السعودية لطلب العمل من أجل الخبز، وكيف تتعرضن فتيات صغيرات للابتزاز، والاغتصاب؟ ومن لم تذل وتمت بهما، فالثعابين والعقارب، تقتلها قبل أن تصل.

كيف أستطيع أن أنظر في عيون أمهاتي اللواتي جلسن معاً في الظلام، وهن يروين لي الحكايات، ويغنين لي أغاني الحب، وأهازيج علان، وأغاني السلى؟

ماذا أقول لصديقاتي الصغيرات في الدربين، وهن يرقِّصن الجبال والأشواك، والطرق الموحشة بالغناء والضحكات المنطلقة مبددة الخوف والموت البطيء لجملة الأشغال المؤبدة التي تعانيها المرأة في صعدة؟!

ماذا أقول لريشة، وخيرة، وفرجة وهن يرشرشن السمن في الطرقات ليمنعن عنا أرواح الشر والجن والشياطين؟!

وماذا عن أطفالي الذين رأيتهم يلعبون، ويتمازحون، تسبقهم ضحكاتهم، وحدثوني عن مدارسهم، وحكاياتهم، وركضنا معاً، وهم يلعبون بكرة الشراب؟!

وماذا عن صديقتي التي أعارتني ثوب زفافها، وقلائدها لأتصور بها؟!

وماذا عن صديقاتي اللواتي رقصن معاً في الغرفة الضيقة في أحد بيوت مجز الدربين؟!

وماذا أقول لهن بحق العيش والملح وأنا ألقم معهن على مائدة واحدة طعام الجماز والمرقة والطبيخ؟!

إذا سافرت مرة أخرى واكتشفت أصدقائي وصديقاتي قد....

إذا ما اكتشفت أن الأسوار الطينية الدافئة قد أصبحت غباراً،

إذا ما اكتشفت أن الجثث بدلاً عن الرمان والعنب الأسود،

أن النار بدلاً عن الضحكات،

أن الدم بدلاً عن التدمم،

وأن هدير القنابل والألغام بدلاً عن الواسي والمثلوث،

وأن النحيب بدلاً عن العياط (أصوات تطلق أثناء الرقص) والزغاريد،

أن الفقر، والمرض، والحياة الخارجة عن الحياة لم تقتلهم، وقتلتهم المدافع.

***

باسم الحكايات

وتهويدات الأمهات (الزوال)

وعيني محمد عوض، وحفشان علي اللامعتين،
باسم الشاربين من مياه السواقي الآسنة،
وباسم المبصرين في وسط الظلام،
وباسم الطرق الوعرة، وعورة الحياة نفسها، وباسم الزهور النابتة من قلب الصخور،
باسم جبال حرم وقلعتها،
والسنارة،
باسم، وباسم ووووووووووو
ووووووووووو
ووووووووووووو.
أوقفوا الحرب.. لتعد الهزلات، ورقصات البيلح، وتخضر العكاوات.
أوقفوا الحرب لكي تهمس أمهاتي ببقية الحكايات، فمازالت مبتسرة.
أوصتني أمهاتي بأن أرجع حتى أستكملها...
أوقفوا الحرب.
فكرة الشراب مازالت معلقة في السماء تأبى النزول برغم اختناقها من أدخنة المدافع والطيارات..
أسندوا رازح من عثرته، لقد أنهك، أنهكتموه قبل الحرب، وأنهكتموه وقطعتم أوصاله في هذه الحرب القذرة... إنكم تضاعفون موته ألف ألف مرة، تكفي عذاباته في الظلام، بالرغم من أن الثورة قامت منذ القرن الماضي ١٩٦٢:
كفى!
كفى!
كفى!
...
..
..

* من مشاهدات ميدانية قمت بها في التسعينيات

● «النداء»، العدد ١٠٤، الاثنين ٢٣ مايو ٢٠٠٧

وقيص الوحدة.. وقيص التكفير

أروى عثمان

■ إلى: عبدالسلام الشراعي في محنة التكفير

وقيص الوحدة.. وقيص التكفير

الحدث: انفجار هز مدرستنا في أحد أيام "زخم الوحدة" ١٩٩١م.

المشكلة: اكتشاف طالبة كافرة في أحد فصول أول ثانوي.

**

الطالبة (س) كفرت، ارتدت عن الإسلام! يا منجي، يا مغيث، الطف بعبادك.. لقد قامت الساعة!! – هكذا تزاعقت بشكل محموم قطيع كبير من المدرسات مجلببات، وغير مجلببات، فالوضع لا يحتمل، ويجب أن تتكاتف كل الجهود والأطياف المختلفة لاحتواء حدث فظيع كهذا.

**

احتجزت الطالبة (س) من قبل فيلق مدرسات تتزعمهن أستاذة علوم القرآن، التي أترست جسدها بثقالات لا تختلف عن ثقالات عقلها.

المدرسة في حالة انقلاب، وانفلات للغرائز، جحافل مدججات بالأسوَد، اختزلت المدرسة وكل من فيها إلى ساحة عمليات، تكثفت أكثر العمليات خطورة في غرفة المدرسات/قفص الاتهام، الذي تعلق داخل قضبانه طالبة مذعورة (س) عمرها لا يتجاوز الخمسة عشر ربيعاً، وغربان مدرسات وجحافل طالبات، تكدست المجاميع منهن على مستوى الساحة، أما الجدار الأكبر من الطالبات (الحصن الحصين)، فقد تمترسن عند غرفة المدرسات/ المحكمة/ قفص الاتهام.

كان المشهد لا يختلف عن غرف عمليات الحروب القومية الكبرى، وأحيانا مثل غرفة عمليات لمريض

مهم قبل نزعه الأخير، فالأطباء يدخلون ويخرجون بوجوه مقلوبة لا تختلف عن حال "مدرساتنا" اللواتي بدين كأنهن يلعبن لعبة "الكراسي الموسيقية" بلا موسيقى، فموسيقاهن مخبوزات الفجيعة: الله يستر، الله يلطف، إنا لله وإنا إليه راجعون، وربنا لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه، وربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا.

**

مشكلة الطالبة أنها صدَّقت التسامح، وانبهرت برياحين الوحدة، وحرية الفكر ووو... إلخ فعبَّرت بتباه عن قراءتها لكتب لماركس وإنجلز، وعلى ما أعتقد نطقت بأن الدين أفيون الشعوب، وكان بحوزتها بعض كتب ماركس ولينين.

هذا هو الانفجار الذي أحدث الهلع من تقويض الإسلام وتاريخ السيرة النبوية وحروب الردة والغزوات.

ولأن الوضع لا يحتمل، فعلى إثر ذلك تكونت لجنة من تلك المدرسات الآنفات الذكر لاختبار إيمانها، وإعادة تأهيلها، ومن ثم دخولها الإسلام مرة أخرى.

**

تمسرحت المدرسة مثلما تمسرحت الوحدة اليمنية التي صدَّقت فيها الطالبة بحرية الفكر والتسامح... إلخ فكانت رئيسة الحملة، وبعض زبانيتها يخرجن من الغرفة/ المُحكمة متصببات عرقاً، ليطلعن الطالبات الهائجات في الساحة أولاً بأول، وعند بوابة المحكمة يلهثن، كأنهن آتيات للتو من إحدى الغزوات الكبرى بين المسلمين والأعداء من الفرس والروم فتصرخ إحداهن قائلة: تصورن أن (س) معتزة بماركسيتها.. مافيش فائدة، وقليلاً تخرج أستاذة أخرى قائلة: يبدو أن البنت تشربت الكفر من بيت أهلها، وأشك أن يكون والدها ماركسياً، أي عائلة كافرة... أخس، لهم عذاب جهنم وبئس المصير.

أستاذة أخرى تقول: كفر عن كفر يفرق: الكفر الآتي من الشيوعيين أعمق وأخطر من كفر الرأسماليين، لكن بإذن الله وجهود المدرسات، سندخلها الإسلام، لقد فعلت الشيوعية فعلها في مخ البنت، الله وأكبر عليهم، جننوا بالبنت...

مدرسة أخرى: لا حول ولا قوة إلا بالله..، مافيش فائدة، يبدو أن الطالبة لها فترة طويلة تتقلب بين كتب الشيوعية، لقد نخرتها حتى العظم.

**

الساحة المدرسية ملتهبة، الغرائز هائجة.. هتافات العزة للإسلام، النصر لدين محمد (ص)..

بعد ساعات سمعنا إطلاق الزغاريد، وهتافات، الله أكبر، الله أكبر العزة للإسلام، لقد نطقت (س) الشهادتين، ليس ذلك وحسب، بل وصلّت ركعتين، ومن الغد ستتأبط سجادتها قبل حقيبتها المدرسة: الله أكبر، الله أكبر.

واندفعت القبل، والدموع، وسط التهاني والتبريكات: "وقل جاء الحق وزهق الباطل"، ولا شيوعية

بعد اليوم، ولا خيبر بعد اليوم، وخيبر خيبر يا يهود، جيش محمد بيعود.

**

ذكرني ما حدث ويحدث في (٢٠٠٧) في المدارس المفخخة بالعنف والإرهاب، المنمية للاضطرابات النفسية عند التلاميذ، الكاسحة لإمكانية أن يفكر المرء، الجاهزة والمعتزة بتخلفها وأمراضها التي لا تستوعبها سوى مصحات من الطراز الأول، على أن تدخلها، أولاً -وبالرجل اليمين- وزارة التربية والتعليم، والمدارس، والمعاهد، وحتى الجامعات؛ فليس من الطبيعي أن تتحول منابر العلم والتعليم في عهد الوحدة، وألفيتها الثالثة، إلى فيالق وخنادق، لغزوات بدر وخيبر والخندق، وثقافة "أحد أحد".

هذه الأوكار، وأركز على المدارس أصبحت حاوية للنطيحة والمتردية وما أكل السبع، وأي معتل، ومختل، ومهووس، فمكانه الطبيعي المدارس.

**

حراس النوايا يتجذرون، يتجددون وينمون كالفطر، وقبل أسابيع أطبقت على أنفاس أستاذ اللغة العربية/ عبدالسلام الشراعي في إحدى مدارس إب، فكفرته وسجنته، وتتسابق بانسعار لتؤهله للدخول مرة أخرى في الإسلام. جماعة من المختلين من عسكر وجنرالات أمن (وطني) أخطأوا طريقهم على أنهم أساتذة ومدراء مدارس.

**

فلتستحي يا وزارة التربية والتعليم، أنت تمثلين مؤسسة دولة. احكمي سوقك، وأعقلي كلابك المسعورة.

أفرجي عن أستاذ اللغة العربية عبدالسلام قاسم الشراعي، المدرس بمدينة إب في مدرسة خالد بن الوليد، وعليك أن تعلمي أنك ملزمة برد اعتباره أمام الجموع الهائجة من "طلاب" و"أساتذة"، وكل أولئك الذين استثيرت غرائزهم لتمرير مصالح ضيقة وسخيفة.

ولا كيف تشوفووووووووووو؟

● «النداء»، العدد ١٠٥، الاثنين ٣٠ مايو ٢٠٠٧

ماذا لو أصبح ضريح الجندي المجهول معلوماً؟

أروى عـثـمـــــان

ماذا لو أصبح ضريح الجندي المجهول معلوماً؟

الحاكم والشرك..
التوافق على انهاء حرب صعدة وتصعيد غضب الضالع..!

(١)

ما الفرق بين الغرفة السابعة السرية للجرجوف* والغيلان الجاثمة في حكاياتنا الشعبية التي تحذر البطلة/ البطل من الاقتراب منها أو فتحها، وبين ضريح الجندي المجهول "السري" الذي ظل ويظل مجهولاً؟

لماذا يحذر الجرجوف زوجته/ فتاة الدوم/ البطلة، من معرفة ما تحتويه الغرفة السابعة؟ ولماذا تحذرنا الأنظمة والسلطات من معرفة ما كنه الجندي المجهول؟ وما تحويه بطنه؟

لماذا السرية والمجهولية للغرفة السابعة ولضريح الجندي المجهول؟؟

(٢)

غريزة المعرفة جعلت فتاة الدوم/ البطلة/ الزوجة تضرب بتحذيرات الجرجوف جانباً، لتفتح الغرفة السرية وتعرف حقيقة أنها غرفة الموت والدمار. كان ذلك من خلال رؤيتها لأكوام الجثث والأشلاء التي يتغذى عليها الجرجوف، كونه من آكلي لحوم البشر.

دفعت فتاة الدوم ثمناً باهظاً للمعرفة ابتداء من حالة الرعب/ الصدمة، التي روعت بها عند اكتشافها ما تحويه غرفة زوجها الجرجوف، (الغرفة السابعة)، مروراً بتبعات ما بعد الاستكشاف، وحالة الشك التي انتابت الجرجوف عند مشاهدته التغير البادي على حالة زوجته، ثم تحقق شكه

الذي انتهى به إلى يقين أن زوجته قد فتحت غرفته المحظورة وكشفت سره، وأخيراً ترتيبه للعقاب المناسب المعنف لانتهاكها المحرم والمغيب، التابو الجرجوفي (الغرفة السابعة).. أي ثمن المعرفة... إذ قام بقتل أخيها المنقذ لها، وإلى آخر ضريبة المعرفة التي دفعت ثمنها فتاة الدوم بطلة حكاية الجرجوف.

(٣)

ماذا لو فكر كل واحد منا -المسألة لا تحتاج إلى بطولة تخرج من بطون الحكايات الشعبية وحزاوي الجدات، مطلقاً، فزمن البطولات قد انتهى- لكن أتحدث هنا عن غريزة المعرفة البشرية. ماذا لو قام أحد منا باقتحام مجهولية/ سرية ضريح الجندي المجهول الذي شيدته الحكومات والأنظمة خصوصاً العربية والإسلامية، إذ لا يختلف عن غرفة الجرجوف السابعة.

ماذا لو تحولت الشعوب إلى شعوب "الدوم" لتمارس غريزتها في حب المعرفة، واقتحام المجهول.. ماذا لو؟

(٤)

مثلاً:

● نتحرر من "الوطن" الذي لا يختلف عن الغرفة السابعة للجرجوف، بل هو الجرجوف ذاته، وهو الغرفة السابعة المحاطة بالكتمان والسرية. وطن، جرجوف، يتسلى بنا تارة باسم الدفاع عنه، وتارة باسم هتك لسيادته، وأخرى بحجة انهمار الأعداء الذين لا ينتهون، الطامعين في خيراته.

● أن نقول للوطن/ الجرجوف: كف عن مناداة أبنائنا ليضحوا من أجلك، فتلتهمهم فداء لك، قرابين عند أقدامك، تلحسهم بـ"سبلتك" المشوكة لتشفي نهمك للموت والدم والأشلاء. نحن نتيتم، نستوحش، نبتلع غصصنا، التي تصنعها دوماً بإتقان، تهدينا إياها بانتظام لتزين أعيادك الوطنية. تكافئنا ببضع ورود ذابلة من تحت علم ومارشات وأناشيد، وبضعة عسكر لا ندري ما كنههم، إنس، جن، جراجيف وغيلان؟ لا ندري.

● نقول لك: كف عن هباتك السخية بمكرمة أم/ أب الشهيد. كف أيها الوطن عن نثر قصائدك وملاحمك التي تعطسها عقب كل معركة تمددها عند أقدام قبر الجندي المجهول.. لقد تعلمنا أن الجراجيف لا تصنع القصائد.

(٥)

الوطن، الغرفة السابعة السرية، الغول، جرجوف الشجر والحجر والهواء... وظيفته الوحيدة

استبدال كل ماهو حي أو حتى جامد بما هو جثثي، وفي لحظة ظهور منقذ أو مخلِّص يلتهمه ليظل هو آلهة الدمار ومهلكة الفرح بلا منازع. يجبرنا جرجوفنا الأرعن أن نطبخ لحم أخينا/ المنقذ، أن نتلذذ، كما يتلذذ هو بفصفصة العظام وقرططتها.

(٦)

فتاة الدوم عرفت أن ذلك اللحم لحم أخيها، وتلك الإصبع الصغيرة المزينة بالخيتم/ الخاتم، هي إصبع أخيها... وبحجم الحزن والألم والفجيعة دفنت لحم وإصبع أخيها في "مشقار" لتخلقه من جديد. نحن أيضاً نعرف لحم إخوتنا، وأهلنا وبشرنا، مازالت أصابعهم تزينها الخواتم حتى اللحظة، إنها في جوف الجندي المجهول.

(٧)

نحن عكس فتاة الدوم، نأكل لحم أبنائنا وإخوتنا، بعضنا بعضا، برغم أن كل إصبع ما هي إلا جثة مزينة بالخاتم. بمعنى أننا نعرفهم تمام المعرفة. أصابعهم بخواتمها تؤكد لنا أن المشقار قريب منا، ما علينا إلا أن نخلقهم من جديد، من المشقار المعلوم وليس عند ضريح الجندي المجهول الذي لا يشبع. إنهم يخلقون من جديد عندما نعرفهم من خواتمهم، ومن الخواتم نعرف ما يحويه بطن الجندي المجهول.

من معرفتنا لنصب الجندي الذي يصبح معلوماً، نضع حداً للأوطان وللجراجيف. نكبح غرائزنا المظلمة التي دمرت المشقار وسحقت الريحان في غفلة من أمرها، أو في سرية من أمرها. نقتل كل الجراجيف المتغولة في داخلنا، التي تماهت ذات يوم مجهول بالجرجوف الأب –الجرجوف الرمز، ساعتئذ ننتصر للحياة كما انتصرت فتاة الدوم.

جرجوف متلوّن.. وطن متلوّن

● ما أحوجنا في مثل هذه الأيام، أن نكون قليلاً مثل فتاة الدوم. ندرك أن المعرفة حياة، أن الوطن ما هو إلا جرجوف وغرفة سابعة، تاجه ضريح مجهول متخم بالقتلى والجثث والأشلاء، أو ما يطلق عليهم شهداء؟

● قليلاً من فتاة دوم ندرك أن وطننا لا يتغذى إلا على جثثنا، يتلون مثل الجرجوف، يلون المعارك تلو المعارك، يلون القيم والأخلاق، يخبز وطناً من دين، وديناً من وطن، يشحننا بغرائز غضبية متفجرة: إغضاب الوطن هو إغضاب لله ولولاة الأمر، يدهن شفاهنا بزيوت الأعداء والمقدسات وانتهاكات، وعدم الاستسلام، ولا تراجع، ولا حوار، ولا صوت يعلو فوق صوت المعركة وووإلخ.

● قليلا من فتاة دوم نقتحم سرية الغرف المغلقة المحشوة بجثث البشرية على مر الأزمان.

● قليلا من فتاة دوم نرفض اللعب مع الجرجوف الوطن فلا نثني الضربة القاتلة، ولا نخطه، ولا نتفله، ففي كل حركة تثنية إعادة لحياته. نحييه من جديد، بمعنى نعيد عجلة المهلكة، فتبدأ من جديد ولا تنتهي.

● نعيش ما تبقى لنا من حياة اختصرها الجرجوف الوطن في بطنه التي ليست فقط "ساع" قبة الصوف، بل تتجاوز قبة الأرض والسماء والكون بأكمله.

(٨)

أوقفوا الغرفة السابعة في صعدة.

* انظر حكاية الجرجوف (الغول) وهي حكاية شعبية دونها الأستاذ علي محمد عبده، في كتابه المعروف "حكايات وأساطير يمنية".

● «النداء»، العدد ١٠٩، الاثنين ٢٧ يونيو ٢٠٠٧

ترويج سياحي.. أم تمريج سياحي!

أروى عثمان

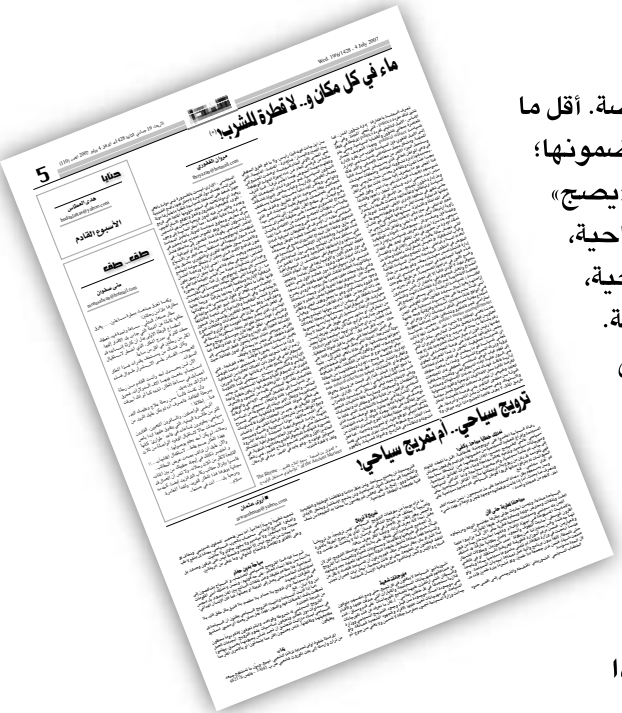
ماء في كل مكان و.. لا قطرة للشرب!

ترويج سياحي.. أم تمريج سياحي!

نمتلك خطاباً سياحاً.. وكفى!

دعاة السياحة اعتمدوا على "بروبوجندة" فضفاضة. أقل ما تفعله: التهام السياحة وإفراغ العملية السياحية من مضمونها؛ فتراهم يفرقعون بطماش "سياحي" عالي الضجيج «يصح» الآذان ويعكمها عن: أنشطة سياحية ومهرجانات سياحية، وترميم لمعالم سياحية وبناء عشرات الفنادق السياحية، إلى جانب كم عشة سياحية، وكم حصيرة سياحية. وأما "المداكي" السياحية فهي تتوسد كل ركن من ربوع بلادي يتخللها ملايين "المتافل" السياحية، حتى الحيوانات لم يتركوا حالها فربوا للوطن السياحي كم دجاجة سياحية على كم "عُري" سياحي... إلخ.

ومن يسمعهم يقل: دعاة السياحة على من يسيحون؟ نحن أبناء البلد ونعرف ما يحدث، أما إذا كانت فرقعاتهم موجهة للجن والإعلام، فهذا شيء آخر، لأنهم من فصيلة واحدة.

سياحتنا فطرية حتى الآن

السياحة صناعة، وليست أحاديث موتى ينثرها مهندسو الوهم ومرتجلوه أيضاً، وتنقلات ومعارض دولية ومحلية تصرف عليها المليارات..

اليمن بلد سياحي وسياحته سياحة فطرية حتى الآن "فلا يزايدوا علينا بالأحاديث المسفوحة في أجهزة الإعلام" وكأنها أحاديث خارجة من قبور القرون الوسطى، أحاديث الكهوف والحيود، لأعمال بطولية خارقة، قد استنفدتها جداتنا، وهن يحكين لنا عن بطولة "أحمد شوربان" وبطولات الشطار والعيارين. فنحن برغم الوزارة الطويلة العريضة المستقلة، أو في الماضي عندما أدمجت في وزارة الثقافة، لم تتبن مشروعاً سياحياً جاداً وناجحاً، حتى اللحظة، لأنها بدون برنامج وآلية عمل لصناعة أبجديات السياحة.. ولو صنعت شيئاً، فنحن نرى جعجعة بلا طحين، ولو بُشرنا بذرة طحين فإنه مر، لأن الحبة مسوّسة.

الخطاب السياحي "الشوروباني" المتضخم والنرجسي إلى أقصى حدود النرجسية، لن يصنع سياحة، ولن ينقل بلادنا وثقافتنا الوطنية والتقليدية والشعبية إلى مصاف الدول السياحية، ولن يشجع الاستثمار ويشغل الأيادي المعطلة ووو.. إلخ، بل على العكس هم يهدمون ما حبتنا به الطبيعة من تحف فنية طبيعية بـ"البقبقة" السياحية.

تمريج لا ترويج

ما نراه يومياً من مفرقعات الترويج "السياحي" ليس ترويجاً، بل ترويشا وتمريج لا يختلف عن تمريج الشاقي "غرسان" الذي كان يمرج الغرفة بالنورة والجص بغير إتقان. بل الأجمل في عمي غرسان أنه لا يتحدث عن نفسه، ولا يغش أحداً لأنه يعرف قدراته، وأيضا الكل يعرف شغله.

إن المجاميع السياحية التي تتدفق على بلادنا ليس بواسطة الترويج، لكن لأن البلاد خام في طبيعتها وتقاليدها، ومستويات الحياة والمعيشة. أما الترويج والسياحة فهما صناعة تشتغل عليهما الدولة بمؤسساتها المعنية، بجد واجتهاد بلا كلل أو ملل، بفكر متحضر متقد. فهم يدركون أن السياحة اقتصاد لا تقل عن النفط، فينقشون من الطبيعة، حتى لو كانت شحيحة، أجمل آيات العمران تجذب السياح والإنس والجن ليشاهدوا صناعة وفنية الإنسان للسياحة.

مهرجانات شعبية

"شوربانيو" السياحة لا ينفكون في كل تجمع، حتى ومع أنفسهم، يلوكون عن صناعاتهم للمهرجانات السياحية، والمليارات التي صرفت عليها، والأقدام والسيقان التي ارتكزت عليها لتصنيع المهرجانات "على قدم وساق"، هذه اللازمة سنجدها في كل خطاب إعلامي... لكن ما نعرفه عن هذه المهرجانات هي موجودة أصلا، موجودة من قبل وجود التمريج السياحي ووزارة السياحة، هي مهرجانات تعبت عليها الأفراد والجهود الشعبية الصادقة. ولو جادت وزارة السياحة تجود بمكرمة جافة لا تسمن ولا تغني من جوع، ثم تحصد تطبيلاً ودجلاً إعلامياً، أما نحن فنحصد "الحكوك السياحي" ونخاف لو واصلوا "الصرع الإعلامي" سنصاب بالجرب السياحي، بعدها لن ينفع لا طب حديث، ولا مبشِّعون،

ولا مياسيم ولا بخور جاوي ولا حلتيت.

ما يحدث من تمريج، ليس إلا تهريجاً، وضحكاً ليس على الدقون وحدها، بل وعلى الأظافر والمفاصل والنخاع الشوكي، وما تبقى من أدرينالين.

سياحة بدون حمَّام

ثم ما كنه هذا الترويج السياحي الصاخب، و"السياح يتدافعون إلى بلادنا من كافة أنحاء العالم" -على حد قولهم- ونحن لا نمتلك أدنى المقومات السياحية: فلا مطاعم نظيفة، وعند تنقلات السائح بين المدن يصوم، بل يحبس احتياجاته الخاصة حتى يصل إلى المدينة أو يعملها، كما كان الإنسان البدائي، في الطرقات البعيدة.

فأي سياحة، وأي ترويج بلا حمام، بلا مطعم، بلا فندق مثل خلق الله، بلا أمن ولا أمان... إلخ.

أما إذا كانت السياحة وأنبياء الترويج السياحي يظنون أن السياحة قد تحققت بتلك الملصقات فهم واهمون؛ فهذا عمل ممكن يعمله أي مصور استديو من الدرجة العاشرة.

الترويج السياحي له شروطه وقواعده. وأنتم تعرفون لأنكم دوماً محلقون في سماوات دول العالم، وتعرفون أساسيات علوم الترويج. أبجديات العمل السياحي لبلاد مازالت تتعشق أن تجد أناساً يحبونها بصدق، يهتمون بطبيعيتها وثقافتها، أناساً يعملون أكثر مما يتحدثون؛ أو بالأحرى أكثر مما يبقبقون.

نداء:

المراسلة خطوة أولى لحماية تراثنا الشعبي. اجمع، ودوِّن ما تستطيع جمعه من تراث وأرسله إلى بيت الموروث الشعبي ص.ب ٣٣٠٨١ - فاكس:٤٨٢١٧٨

● «النداء»، العدد ١١٠، الاثنين ٤ يوليو ٢٠٠٧

في المخيلة الدموية الجامعة..!

أروى عثمان

■ إلى: صلاح الرعوي الفاجعة التي اخترقت سقف كل خيال

في المخيلة الدموية الجامعة..!

أروى عثمان

5 حلقا

نزار في عدن

حلقة حلقة ■■

المقام له

د/ محمد عبدالملك المتوكل

عزاء ومواساة

وفد برلماني برئاسة الدكتور سلطان البركاني يواسي أسرة الشهيد

وفد ماي ماي

لمزيد من الصور

من يقرأ موروث الدم في تاريخنا السياسي والاجتماعي والثقافي.. يجدنا أقواماً متعطشة جائعة، نهمة للدم واللحم تحيا بهما، وتنطفئ بانعدامهما.

ولعل ذاكرتنا الجمعية متخمة بطقوس واحتفالات فلكلورية الدم واللحم، فالتعابير الشعبية اليومية التي يراد بها التعبير عن حالة الألم، فيقال: "يا جماعة اتقوا الله أنا إنسان من لحم ودم" ومنها ما يرد في معرض التهديد والوعيد: "والله لاشرب من دمك" أو "يجعل النسور تأكل لحمك" أو "يدقوا لحمك على عظامك" وحتى في تجلي العشاق بالمناجاة المعروفة يقال "أحبك موووت".

وفي الذكورية المتضخمة يتجسد ذلك أن الرجل حارس للحم (النساء)، وبالنسبة لجمالية المرأة فتقاس بكمية اللحم فيقال: فلان، والله تزوج بمره (فرش وجمش) كناية على التدفئة باللحم المكتنز، وفي المائدة التقليدية اليمنية خصوصاً عند القبائل حيث يقدم اللحم على بقية المأكولات، ويستفتح الغداء به، وتقول أضراس الشهية الذكورية القبلية عن اللحمة الجيدة "ما لحمة إلا تهز الدقون". وتعج الذاكرة الفلكلورية بطقوس القرابين، والأضحيات، والنذور، والزواج، والختان، والموت، والاستسقاء، وحل المنازعات (تهجير الأثوار) وذبحها على رؤوس الأشهاد، كل ذلك لا ينجز إلا في حضرة السكاكين المسنونة وانسكاب الدم وتفرق اللحم النيئ و(الحنيذ) و(الممرق). من منا لا يتذكر تعويذة أمهاتنا (قحرم دمك ولحمك) أي أن تكف الأرواح الشريرة عن إيذائنا، فيحرم عليها دمنا ولحمنا. ولا ننسى في تقاليدنا ومعتقداتنا استجداء

الأرواح الشريرة بكف الأذى بفدية (جدي مرقشش/ مرقمش) و(ديك منقط)... الخ. أما طقوس العذرية فمازلنا نحتفي بها رقصاً ورصاصاً ونقوداً نذروها على رقعة دم لكرنفال بدائي يطلق عليه زفة افتضاض البكارة.

هكذا يتبدى الوجدان الجمعي متخماً دماً ولحماً يحضر بقوة أيضًا في السياسي بفجاجة يستحضر الحياة البدائية المتوحشة التي توهمنا أنها قد اختفت بالتطور والتغير أو تكون قد هُذبت بالفنون، والأدب والمعيشة المدنية..

● صلاح الرعوي وابنته

لكن في مجتمع يتنفس بداوة وقبيلة فلا ينفصل الاجتماعي عن الثقافي عن السياسي. وتصبح الحياة القبلية مركبة بالطقوس الوثنية التي تدخل ضمن النسيج القب-بدوي اليمني، فثقافة اللحم والدم والنشح أحد مكوناتها الأساسية.

فعلى المستوى السياسي تمسرحنا بذاكرة اللحم والدم، فأهرقت الدماء البشرية والحيوانية في أيام الانتخابات على صناديق الانتخابات: دماء البشر تزهق ببساطة عند التلاعب بالأصوات، أو حضور مهرجانات التأييد والمناصرة، والحيوانية للاحتفالات بالانتصار، أو التهجير والتسوية بالحلول القبلية.

ويتزامن مع ظهور الأبطال، وتتابع فصول المسرحية نثر القصائد والملاحم المكتوبة بالدم، وتعميد العهود التي يقطعها الرعية للحاكم بالدم. وهذا ما طالعتنا به صورة لرئيس جامعة يمنية وهو من أشهر الأطباء، يقطع من لحمه لوثيقة الدم، وبالمثل فعلت دفعات من المتخرجين ذكوراً وإناثاً من جامعة صنعاء، ليقدموا للحاكم وثيقة معمدة بالدم وسط عاصفة من التصفيق البلهاوي، الملهاوي والمأساوي معاً..

أما أعياد الشباب فكل يوم يطل علينا زعيم للشباب أو مجموعة من الشباب (الممصوصين دماً ولحماً) وكأنهم خارجون من مجاعة مزمنة من إهراق دمهم -إذا كان ذلك دمهم فعلاً- ليرصوا معلقات

عصماء وعجماء لأحرف من دم مسفوح في سبيل استدامة الزعيم القائد إلى أبد الآبدين.

وكأن الشغل الشاغل لليمنيين ينحصر في اكتنازهم الدم من أجل أن ينثروه على العرائض واللوائح والقصائد، وما تبقى منه يتفرق على المشاحنات والمشاجرات اليومية في الطرقات والأسواق والمساجد.. إلى الدرجة التي غدونا معها لا نجد مدنياً، ولا عسكرياً، ولا شيخاً، ولا شاعراً، ولا طبيباً، ولا أستاذاً جامعياً، ولا مثقفاً، ولا أديباً، ولا امرأة، ولا معلولاً أو مسلولاً، إلا ويعبرون عن الولاء والطاعة ورص الصفوف بالدم. ستجد المشهد الدموي واللحموي مسفوكاً في مدرجات الجامعة، في ساحات وعتبات مجلس النواب، في عتبات بيوت المشائخ والرعية، في ساحة القصر الجمهوري، في أعراسنا، في مآتمنا، في عباداتنا، في السلخانة، وعند إشارة المرور... الخ.

وأنا أشاهد هذا الكرنفال العجائبي الغرائبي أقول ربما أني أغرق في أساطير ما قبل التاريخ، أو أني في حاضرة (الجمهورية الدموية اليمنية)، وليست الجمهورية اليمنية.

أتساءل: ما هذه النفسية المركبة والمريضة حد الجنون والهذيان؟ ما هذه المخيلة الدموية المرعبة التي تجعل سلمنا لا يعرّف إلا بالدم، وكذلك هي حربنا، وكذلك عارنا وشرفنا يتكرس وجودهما بالدم، ومحوهما بالدم، كتاباتنا بالدم ولعبنا بالدم، نحب وطننا بالدم، ونثور عليه بالدم، نعشق بالدم، ونرقص بالدم، ونموت بغائلات الدم؟

الأمس هو اليوم، الوعي واللاوعي واحد، لم نخرج بعد عن طقوس الوثنية والشامانية التي تحركنا.

في هذا السياق، تذكرت حكاية جدتي عندما حدثتنا عن امرأة لم تف بنذرها فكان عاقبتها هصر وليدها في لحظة الولادة وتفرق دمه ودمها، وكان الفاعل جنياً شرساً يتغذى على الدم واللحم، قد يكون الغول (الجرجوف) أو (الدجرة)، الأساطير لم تقطع بعد زمنياً في مجتمعنا اليمني، مازلنا في متنها، ومازالت كائنات الموت وآلات الدمار الشائهة تعيش بيننا وتسيرنا بمنطقها.

كنا نتمنى أن تصبح الأسطورة في حياتنا معطى فكريا وحسب، أو كما يقول جورج كامبل "مفاتيح للإمكانيات الروحية في الحياة البشرية"، لا أن تكون أساطير لا تحتفل إلا بمفردات الدم والقرابين.

إذن، ما جملة الذنوب التي ارتكبناها نحن اليمنيين؟ وما هي النذور التي تثقل كواهلنا بحيث تجعلنا لا نعيش إلا بثقافة المذبح؟

...

أستسمحكم بتحوير مقولة هيرقليطس الشهيرة بـ"إن الحرب أم لكل الأمور، تصنع الآلهة والرجال والعبيد"، ونقول بأن الدم واللحم أم لكل الأمور، تصنع الآلهة والرجال والعبيد والحياة أيضا في اليمن!

فكيف تشوفووووا؟

● «النداء»، العدد ١٢٥، الاثنين ٣١ أكتوبر ٢٠٠٧

ليلة سقوط رأس «منى»

أروى عثمان

■ إلى: طالبة كلية الإعلام التي تكالبت عليها الضغوط الأكاديمية والمؤتمرية والإصلاحية لتطهير رأسها السافر، وطفشتها من الجامعة.

ليلة سقوط رأس «منى»
تكريم أمل الباشا
جريحان بصفار احداث 13 يناير 2008

فجأة، صديقة ابنتي، "منى"، جارتنا اللصيقة، تظهر بلا وجه، بلا رأس. انحشر جسدها الصغير ذو الثلاثة عشر ربيعاً وتكوم داخل أكياس الموتى السوداء. غدت تتحرك ولكن بدون رأس.

شيء كهذا رأيته في أحد أفلام هوليوود المخيفة: الجثث التي تعبر الشوارع والمقابر والجامعات، بلا رؤوس.

منظر "منى" والإناث في اليمن جاوز الفانتازيا "الهوليوودية" بامتياز. ترى هذه الصورة/ الجثة في كل لحظة، وتتكوبس البلاد الخالية من وجه أية امرأة تفتح وجهها، وتريق الحياة في شرايين المدينة، لتزهر.

فكيف تعيشين يا صنعاء/ تعز/ عدن/ حضرموت... الخ، ونساؤك بلا وجوه وبلا رؤوس، جثث متفحمة تتخبط في طرقات الفناء والانقراض؟!

كنا نتوقع من "منى" أنها ستكون بلا رأس عندما تكبر قليلاً، لم يبق إلا سنوات قليلة وستبدأ تتخلق الجثة وتتفحم، لكنها أسرعت وأحرقت المراحل، مثلها مثل الأحزاب اليسارية، لتصل "منى" إلى مرتبة أن تكون عروساً بلا رأس، مثل مدينتها: عروس الموتى.

عادت ابنتي من حوش المنزل وهي مكتئبة، حزينة، مقهورة، هرولت تبكي: "لقد ضاعت منى! لن نلعب بعد اليوم. انظري يا أمي من النافذة! كيس أسود ونظارة سميكة كالتي يلبسها عمال الورش، ذكّرتني يا أمي بطنجرة جدتي المُدحمة، طنجرة بلا رأس، هكذا هي منى، فأين تستقر نظارتها الثقيلة

وهي بلا رأس ولا رقبة؟".

وبألم تنشج ابنتي: "مع من سألعب يا أمي؟ بعد اليوم لن يكون هناك "وَقَل" ولا "نط الحبل" ولا "تامبو" ولا ضحك وفرفشة!". وتضيف ابنتي: "نريد منى كما كانت، حتى وإن أضجرتنا بفتاواها الدينية التي تسكبها على رؤوسنا كل يوم، تحلل وتحرم. نريد منى كما كانت، حتى وهي تهصرنا يومياً بأناشيدها الدينية، فالغناء محرم في بيتها ومدرستها ومع نفسها. نريدها وهي تلوي عنق اللعبة لتقول للصديقات: حان وقت الصلاة، والاستماع إلى السُّديس والسبيع، وابن قُضاعة وصداعة، من قنوات محددة: "الرسالة"، "اقرأ"، "الحقيقة"، وقنوات كثيرة تفتي بأن الحياة الآخرة خير وأبقى، والحياة الدنيا فناء وزوال".

بعد أيام ظهرت "منى" في حوش المُجمع السكني. قالت لصديقاتها: لا أستطيع أن ألعب معكن، فأنا أصبحت "امرأة مشرشفة"، لكن سنتمشى ونتكلم!

البنات يحببن اللعب والحركة مع "منى"، لكنهن يرفضن دوما "التمشيات" بمعيتها، فهن يعرفن مسبقاً ما ستبثه الزعيمة "منى" من أحاديث الموتى التي تستقيها من أفراد العائلة ومن الفضائيات والمدرسة؛ أحاديث مثل: الذي قطع صلاته وتحول إلى كلب، والبنت التي مُسخت إلى معزة (سلحفاة في رواية أخرى)، والبشر الذين ظهرت لهم أذناب وقرون لأنهم لا يقومون الليل تهجداً... وكل الحوادث "منى" رأت أبطالها وهم ممسوخون (بالمناسبة منى لها أب طبيب يشتغل مع أجانب، وأمها أستاذة للعلوم الحية).

قالت ابنتي: "مشينا بوجوم. لكنه الشرشف، الذي يتضاد مع نط الحبل والضحك واستبشار الوجه. إنه لا يتعايش إلا مع الجثث، مع الموت والمأتم. منى لم تعد منى يا أمي! شيء ما انكسر، أصبحت أخاف من شكلها". أقنعتها باستكانة: ستتآلفين مع الشكل الجديد الذي انضمت إليه "منى"، فكل يوم نصحو نرى الشرشف قد التهم بشراهة ما تبقى من الطفلات والشابات والكبيرات في مرافق الحياة وأولها المدارس المفصِلة للشرشف بكل الأشكال والأحجام، ستتآلفين الحياة مع الجثث المفصولة عن الرأس.

هكذا هي مدينتي، هكذا هن نساء بلادي، طفلات بلادي:

طبيبات بلا رؤوس!

معلمات بلا رؤوس!

كاتبات وفنانات تشكيليات وصحفيات بلا رؤوس!

أستاذات جامعة بلا رؤوس!

رؤوس بلا رؤوس!!

إنها اليمن: اثنان وعشرون مليون جثة

بلا رؤوس!

بلا رؤوس!

بلا رؤوس!

وإلا كيف تشوفووووووا؟

● «النداء»، العدد ١٣٤، الاثنين ١٦ يناير ٢٠٠٨

المثقف: ضمير "البُجمة"

أروى عثمان

■ إلى: أستاذنا القدير -أطال الله عمره- أحمد جابر عفيف
حالماً بيمن بلا قات، يمن بلا بُجم، بلا علفة

(١)

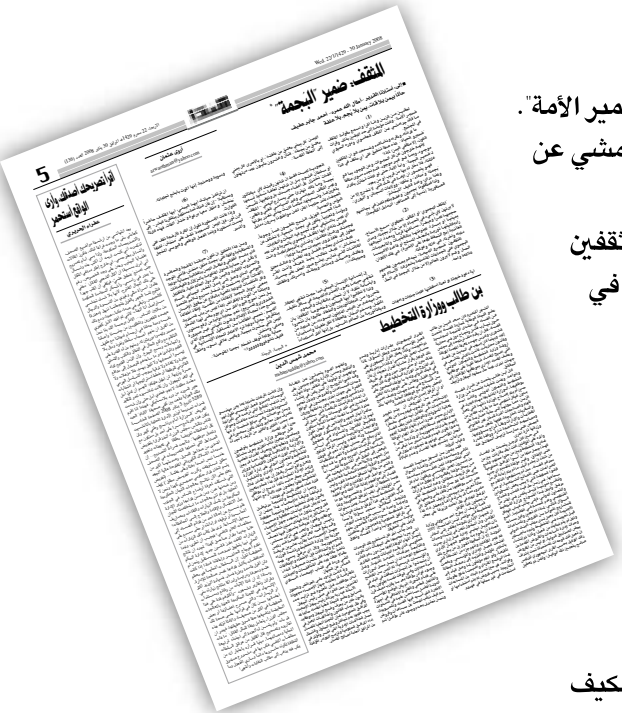
المثقف: ضمير البجمة

لعقدين من الزمن وأنا أقرأ وأسمع مقولة "المثقف ضمير الأمة". وكنت مؤمنة إلى حد اليقين بذلك. وقرأت ما قاله جرامشي عن "المثقف العضوي" ودوره الحيوي في المجتمع.

ما قرأناه، ونقرأه ونشاهده ونسمعه، هو أن المثقفين "ضميرو الحياة". هذه صفة تنطبق على أي مثقف في هذا الكون، إلا مثقفي اليمن؛ لماذا؟

لأنهم خارجون عن كل الحيوات، وعن الوجود بما هو موجود، وبما هو غير موجود. فلم نجده سوى مثقف لـ"ضمير البجمة". وأما الأمة، حتى لو كانت تختزل بأفراد عائلته، فلا دخل له بها من قريب أو من بعيد.

فهو يتصور أن الأمة هي تلك التي لا تخرج إلا من "بجمته" و"مدكاه"، و"متفله"، وولاعات السجائر، و"البوري"، وكندا دراي، وعدة الكيف "المبَحْشمْ".

ولذا فمثقفونا "بجميون" وعضويتهم تكمن في "بجائمهم الصنفورية" (نسبة إلى الصنافير: الدمامل المتقيحة).

(٢)

"المثقف البجموي" أو المثقف "العلفوي" سمخ الأسماخ، لا يرتهن لأي شيء في الحياة إلا من

خلال بجمته، ومدى حجمها كبراً وصغراً، مسافتها قرباً وبعداً، اتجاهها يميناً أو يساراً، كينونتها بالماقبليات والمابعديات، راديكاليتها ثورية بالعنف المسلح أو قاعدة الأهيمسا الغاندية (مع التحفظ طبعاً على الأخيرة). هي فلك الأكوان، دنياه وآخرته، هي عالمه وعولمته.

المثقفون "ضميرو البجمة"، تجدهم يصبون غضبهم البجموي على الجماعات المتأسلمة بشعارها: "الإسلام هو الحل" وهم لا يرون العالم إلا من خلال "البجمة هي الحل" كلاهما واحد.

(٣)

أية دعوة خبيثة أو لعنة أسقطتها علينا جنيات وأمهات اليمن "كل يمني معلق من علفته"، أو بالأحرى "كل يمني معلق من بجمته". اثنان وعشرون مليون عبد، مرتهنون إلى "العلفة المقدسة".

(٤)

العبودية ليست فقط أن ترتهن رقبتك لأي ديكتاتور أو سلطان غشوم، بل أن ترتهن لعلفة سُمّية اسمها "القات" تختزل كل أعضاء جسدك، بل وتلغيها، لتسمن "بجمة" وما تكاد تهترئ، حتى يسارع اليمني –المثقف، وغير المثقف السياسي وغير السياسي الغني والفقير، بتغريزها، وتسمينها، مثلما كانت جدتي تغرر بقرتها العجفاء لتدر حليباً أكثر، لكن مواطنينا يدرون دمامل البؤس والعدمية.

هذا الجسد الهزيل، الشبح المطحون هماً، وجوعاً، وبؤساً، وتعذيباً، يتكور في "بجمة" شبحية، لا تختلف عن أي كيس بلاستيكي أسود تجمع فيه الجثث والنفايات.

فكيف تنادي أيها المثقف البجموي بالحرية وأنت عبد لبجمتك ورهين علفتك؟! وتنادي بالديمقراطية، وأنت مغلول إلى علفة تروى بمبيدات محرمة دولياً؟!

كيف تنادي بعالم أفضل وغد أفضل، وعالمك معلق بـ"منخاش"؟! كيف تطالب بنبذ العنف وأنت أكثر الكائنات التي تمارس أبشع صور العنف على جسدك، وعقلك، وصحتك، وبلادك، وبيئتك، وأسرتك، وطفلتك، وحبيبتك؟!

(٥)

إن إنسانية الإنسان اليمني تبدأ حيث تنتهي العلفة، تنتهي حينما تعود الاحترام للبجمة، في مأكل نظيف، وابتسامة نظرة، لا أن تحشى بالنفايات والسموم.

ولذا لا تطالبوا أيها اليمنيون، وخصوصاً "المثقفين" بأن تتحرروا من الديكتاتوريات والطغاة. طالبوا بأن تتحروا من بجمكم، من أكياس النايلون السوداء، من الدكية، من المتفل، وسخم الدخان. فالعلفة لا تقل طغيانا واستبدادا وديكتاتورية من الحاكم المستبد، بل إنها أكثر استبداداً ودموية

ووحشية. إنها الموت بأبشع تجلياته.

(٦)

أن ترتكز حياتك أيها اليمني، أيها المثقف، حاضراً ومستقبلا -إن كان ثمة مستقبل ينتظرنا كبشر- إلى "منخش" و"متفل" معبأ برغوة و"خثل" القات، فهذه كارثة الكوارث.

وإذا كانت الأسطورة تقول إن الكرة الأرضية تقف على قرن ثور، فإن اليمن "السعيدة" تقف على "منخش"، لكنها ليست أسطورة وإنما الفعل الواقعي واليومي المخجل والمدمر.

(٧)

ومن هذا المنطلق أن تكون حياتنا الماضية والحاضرة والمستقبلية واقفة على: بجمة، متفل، منخش، فإنني أتوجه كأم، باسم أطفالي وأطفال اليمن بالمطالبة بحماية دولية لا تقل عن حماية الدول المنكوبة بالزلازل والفيضانات والحروب الأهلية، واليمن أكثر دول العالم نكبة، فالتقتيل اليومي الذي وصل الى إدمان المخدر الجماعي السام (القات) الذي يستحث كل تدخل سريع للأمم المتحدة وكل المنظمات الدولية المعنية بالدفاع عن حقوق الإنسان بمعنى "تدويل البجمة" لإنقاذنا من أنفسنا، لإنقاذ أطفالنا وبيئتنا من الموت والانقراض (هذا ليس من باب السخرية، بل نحن أحوج اليوم أكثر من أي يوم مضى لهذا التدخل الضروري والسريع). نعم، حماية دولية من أرفع مستوى، تضع حداً لحياة الإهلاك والموت المجاني عبر صيرورة "البجم"، تحمي أطفالنا من المستقبل "البجموي الذي ينتظرهم" حماية دولية ترد الاعتبار للحياة الإنسانية في اليمن التي حُشرت ببجمة، وبكيس علاقي أسود، ومتفل، ومدكى، ومنخش.

حماية دولية توقف تضخم "بجمنا المتوحشة".

فكيف تشوفووووووا؟؟

* البجمة: الوجنة.

● «النداء»، العدد ١٣٦، الاثنين ٣٠ يناير ٢٠٠٨

هـــويـــة "الحـــيـــد"

أروى عـثـمـــــان

هوية "الحيد"
الطريق الى السبعين يمر عبر مؤسسة الجيش

أصبت قبل عشر سنوات -بعيد عنكم- بحمى قاتلة، ارتفعت معها درجة حرارتي إلى ٧٥٥ درجة "معوية" لم تصاحبها فقط بزغللة العينين، بل وزغللة مخية حادة، وتنافض العروق والأعصاب، حتى إن كل عضو في جسدي كان يتقارح لوحده..

كانت الرجة غليظة أكسبت جدار مخي تكلساً وصل حد التصلب البازلتي. لم ينفع معه لا الطب العربي ولا البديل ولا الكيماوي.. كانت حمى خصوصية، لي ولمن هم في مثل حالتي.

.. إنها "حمى الهوّية" وخصوصاً "الهوية الوطنية".

لا أنكر أني كنت في بداية اشتغالي بالفلكلور قبل عقدين من الزمن مقيدة بقوالب جامدة، كنت لا أفهمها، في حمأة المنافحة عن التراث وحمايته، والحفاظ عليه والدفاع عنه.. الخ من هذه التعابير كـ: الذوبان، والاندثار والانقراض، والتشوه، والمسخ... إلخ. كنت أيضاً مهجوسة بالهوية، حبيسة الثنائية: نحن/ وهم، وبغير ذلك من الأحكام المسبقة المؤدلجة بـ: إما/ أو، وكأن التراث الشعبي من أغاني النساء، والمهاجل، والرقص والحكايات... إلخ، ستتلاشى بالذوبان الذي يأتي مغلفاً أحياناً وسافراً في أغلب الأحيان بصوت وصورة أمريكا والدول الإمبريالية التي تتربص بنا، وتفتك بثقافتنا.

وكأن أمريكا وحلفاءها يستهدفون باستماتة مسخ هويتنا، وخصوصياتنا الثقافية، وعاداتنا وتقاليدنا ومعتقداتنا، ومحو الأغاني والحكايات والهدهدات، وسحق المحراث والثيران والإتيان "بتركتوراتهم" وجرافاتهم لإبادة سكون القرية. وستأتي لنا بحليب صناعي بديلاً عن حليب الأبقار، ومبان خرسانية بدلاً من اللبن والياجور، وستمزق ثيابنا الجميلة المنقشة والمكشكشة، ستدخل علينا ثياب إفرنجية ضيقة وعارية.

كان ينتابني الأرق من اقتحام الجينز لأجساد نساء قريتي، واحتلال الكوكاكولا بدلاً من "قهوة القشر"، ورقص مايكل جاكسون بدلاً من "الشرح"، وأتخيل كيف ستكون جدتي التي تستقبل الشمس من ركن سقف منزلها بمهجل الصباح بالإيقاع الهادئ الحنون المزدان بالألفة، بمهجل أمريكي، صاخب أو من أغاني الريف الأمريكي، ولعلنا تمادينا بشكل لا إنساني أمام هواجسنا المثقلة بالأيديولوجيات من أن حتى شق الطريق، وإدخال الكهرباء بدلاً من الفانوس والنوارة، سيهدد كل أشكال التراث، وبدوره سيلتهم خصوصيات حياتنا...

كنتُ مثل"لسان حال" أحزاب حكومية ويسارية ودينية، هم لسان حال الشعب، وأنا على غرارهم لسان حال هوية شعوب الكرة الأرضية والأجرام السماوية، والشعب المرجانية.

ولطالما انبريت كطلقات "الجرمل" لأتحدى أي لسان آخر يتحدث عن الهوية خارج تلك الحمى إلا وتصيبه طلقاتي، وفي أحسن الأحوال "طماشي" الجارح الذي يسكت مدافع رمضان، ومدافع الديكتاتوريات، التي لم أكن أعلم أني لا أختلف عنها البتة.

كُنت مثل الحكومات التي تستهل منهج عملها بالبسملة الوطنية المركزة: "لسان حال" الشعب. وحين يطالبهم الشعب بالخبز، يردون عليه بالديمقراطية وشوروية الحكم. يحدثونهم عن الأمن والاستقرار، يحدثونك عن "حرب الزماميط" في أدغال المسيسبي، يصرخ المواطنون من الفساد وغلاء المعيشة، يرجمه "اللسان حال" "برجمات الغيب القومي والأممي" عن مبادرات الجن في جزر الكناري، للتحرر من الإنس في شمال كلهاري... وهكذا هو حال ثقافة لسان حال السلُط.. وبدوري هكذا كنت أهذي بحمى الهوية، ويشتد سعار هذياني عندما تنتابني بشكل مخصوص حمى "الهوية الوطنية"، فمن عطس قلت له: إنك مصاب بمرض زعزعة الهوية الوطنية، ومن عانى من الكتمة، قلت له: تنفس هوية "مُزيتة" بالصليط الجلجل الوطني ليسهل بلعها وبذا تتنفس صحة، ومن تنفس قليلاً قلت له: نم على هوية "ثربوية" (نسبة إلى الثربة) ستحلم بأنك سددت الإيجار والفواتير، ودفعت أقساط المدارس، وسافرت في رحلة صيفية إلى جبال الألب وبحر قزوين.

هويتي كانت أثقل عياراً من وصفات الحبة السوداء/ حبة البركة، شفاء ودواء لكل العلل الجسدية والروحية والوطنية.

وكنت أحمل "الهوية الأم" داخل "مسب" كبير وعميق ومتين، يكسر ظهري كلما أضفت إليه توابل الوطنيات بأنواعها. كان مسب "حبوب مجذوب" محشورة داخله آلاف من الهويات على أقسام وأحجام وأشكال، نصرفها بحسب المقاسات التقليدية والحداثية أيضاً، نصرفها كلما أحسسنا أن المرء يعاني من رجرجة فكرية في نقص وتقشف في الهوية.

هكذا تخيلتُ المسألة، وعندما انشغلت بهاجس الكتابة قبل أكثر من عقد، توشأ قلمي بالماقبليات، المايجب، واللابد، وأحياناً لا بد من ضربة وضربتين على طاولات النقاش لأبرهن على حماسي "المجرمل" (نسبة إلى بندقية الجرمل) للدفاع عن هويتنا المسحوقة. فالمسألة حياة أو موت، يا قاتل أو مقتول. فأمريكا والعالم الغربي لا شغل لهم غيرنا، وغير قريتي المقصية عن الخارطة اليمنية، بل والمقصية عن الحياة برمتها، فمازال الفانوس، والمياه الآسنة، وطرق الموت، والكي علاجاً يعلم حياتهم حتى اليوم.

كنت أنهل من القراءات لأولئك الكتاب الذين يمنحونني طاقات للمزيد من تحطيم الطاولات، والزعيق الثوري المعبأ بالضديات، والحيثيات، والاستراتيجيات، وبلا قيود، وبلا حدود. ولا أخفيكم أني كنت في هذه الحمأة أقرأ الكلمة الأخيرة بـ"حيود". فضلاً عن نهمي في قراءة الكتب المرصعة بالتعاليم والوصايا والفتاوى لرموز القومية الثورية، من ماوتسي تونج وثورته الثقافية، إلى "ما العمل"، إلى كيف تصبح قومياً ثورياً في أقل من ثلاث دقائق، خصوصاً إذا شربتهم على الريق.

وتوهمت بذلك أني كنت أقاوم الإمبريالية والعولمة والديكتاتوريات، من غير أن أدرك أني لا أختلف عن أي ديكتاتور. حتى كتب لي زيارة إلى مكتبة الإسكندرية في إحدى منح اليونسكو (٢٠٠٥) وتحرر عقلي من كثير المسبقات، تراجعت عن التشنج المصحوب لضرب الطاولات (وإن كنت ما أزال أمارسها بين حين وآخر) وعن الحماسة الزاعقة، وعبر الكتاب والقراءة حاولت أضيق المسافة بين: "إما" و"أو"، ونحن وهم.

عرفت أن صراع الهويات والهوية الدائرية المغلقة تحت أي مسمى: إسلامياً، قومياً، يمنياً، ماركسياً، أو غير ذلك! ما هي إلا مصنع لكل القتلة والمجرمين، والمستبدين، وإن الهوية لا تزهر إلا في الشرفات المفتوحة على الشرفات الأخرى المختلفة، وهو التعدد والتنوع وليس للتجانس الساكن. وأن الثقافات هي المحور الذي يجب أن يشتغل عليها البشر، للتعايش، وأن المواطنة هي السبيل للتعايش، وإنا مطالبون اليوم أكثر من أي وقت مضى بفصل الدين عن الدولة، وفصل الدين عن الدولة مليون مليون مرة، لنختلف ونختلف، ونختلف، لنعيش؛ وننتج، ونبدع، ونأتلف.

ولا كيف تشوفووووووا؟

● «النداء»، العدد ١٣٧، الاثنين ٦ فبراير ٢٠٠٨

رد الاعتبار لحصة الرياضة في مدارس البنات

أروى عثمان

■ لصديقة الطفولة "نجيبة" ونحن نهرب من الحصص متوجهات إلى الملعب

رد الاعتبار لحصة الرياضة في مدارس البنات

-١-

اللحظات الحميمية لحظات هاربة، أستدعيها بقوة، يأتيني القليل منها، ويذهب معظمها، وكأنما محكوم علينا بذكريات حزن تتسيدنا رغماً عنا.

لذة الارتداد إلى الطفولة، حتى لو كان بعض جوانبها تعسة، جد مهم، أن تكون معنا وبيننا في ظل اللخبطات الكبرى التي نعيشها.

كتب غاستون باشلار على لسان الكاتب فرانز هيلينز: "ليست الطفولة شيئا يموت فينا وينحل ما إن تنهي دورتها. إنها ليست ذكرى. إنها الكنز الأكثر حياة. وهي تستمر رغما عنا... وويل لمن لا يقدر أن يتذكر طفولته، أن يدركها من جديد في داخله، كجسد في جسده الخاص، كدم جديد في دمه القديم؛ فهو يموت منذ أن تتركه".

-٢-

وأنا أستمع لوزير التربية والتعليم وهو يرصد معجزات التربية والتعليم لمنجزات: المسابقات الرياضية، الفنون، والمسرح، كان كلامه جميلا، ساحرا، انتقلت ببساطه السحري، وحلقت كطائر مجنح في عالم مدارس أوروبا. وللأمانة كدت أصدق نفسي وأصدقه، بأنني في قلب مدارس فرنسا، أو أي دولة غربية، لولا بساط سحري آخر نقلني إلى حيث يتكلم الوزير (من تليفزيون اليمن). وأدخلتني هذه القوة السحرية إلى واقعي المغموس بالبؤس. وقالت لي بالفم

المفتوح: "هيييييه! اذهني، أنت في مدارس ألهاكم التكاثر! في اليمن، اليمن، اليمن".

أنا شخصياً درّستُ في مدارس اليمن ثماني سنوات. بناتي يدرسْن في مدارس حكومية. فلا أدري عن أي مدارس يتحدثون، وعن أي نشاطات رياضية وموسيقية وفنية يتحدثون؛ إلا إذا كان ما تقدمه المدارس في نهاية كل عام يعد نشاطا مدرسياً فنياً فلكلورياً... الخ، وهذه الكارثة الكبرى.

-٣-

في تلك اللحظات (الفضائية) السحرية (وأشكر الوزير عليها) استدعيت صديقات الفصل والمدرسة في "مدرسة أسماء" الإعدادية الثانوية، في "صالة" تعز. استدعيت أساتذتي، أركان المدرسة، سلالمها، السبورة، الملعب... الخ. استدعيت بقوة صديقتي الحميمة "نجيبة".

كنا مجموعة من الصديقات الشقيات، نتزعم حملة الشقاوة أنا ونجيبة. تذكرت كيف كنا نتحين الفرص، بل ونصنعها، للهروب من الحصص المملة، وما أكثرها في مدارسنا! ثم "هووووب" والقفز إلى ساحة الملعب. تذكرت كيف كانت مُدرّسات الرياضة يتسامحن معنا، كونهن آتيات من دول عربية، ويتفهمن مدى الكبت الذي تعيشه الطالبة اليمنية في أسرتها ومجتمعها، ويدركن أكثر ما تمثله المدرسة كمتنفس ضروري لأن نعيش.

-٤-

في حصص الرياضة كانت لنا ملابس خاصة، وكانت لنا ألعاب مختلفة: كرة الطائرة، التنس، كرة السلة، الجري... الخ.

كان الملعب حياة، يلطف تغضنات حياتنا، يخرجنا من جداول التعاليم الصارمة في البيت والمدرسة، يكسر مللنا، وخصوصاً حصص اللغة العربية والإسلامية والاجتماعيات.

تذكرتُ كم عدد المرات، التي لا تعد ولا تحصى، ونحن نوقع تعهدات بعدم الهروب من الحصص، وكل تعهداتنا كانت موقعة بـ"آآآآخر مرة".

تذكرتُ كمَّ الغضب الذي كانت تمتصه مدرساتنا والأخصائيات الاجتماعيات، وهن يمسكننا متلبسات باللعب، وسرعان ما يتسامحن، ويتركن أجسادنا تتنفس لعباً وجرياً، و"غاب القمر ولا عادوا".

كنا والصديقات كلما انكتمنا، كان الملعب سيد الإناسة بامتياز، الإناسة التي نفتقدها في منازلنا وفي كل حياتنا.

-٥-

بداية الثمانينيات كانت أعضاؤنا ناطقة، فرحة، مستبشرة بالشمس والتحليق مع صفارة الحكم: ١، ٢، ٣... أحاسيسنا متدفقة، كنا نتنفس رسماً وموسيقى، ولا توجد طالبة بدون مذكرة خاصة وحميمة، ترسم، وتكتب أشعاراً وخواطر. رسوماتنا وشخبطاتنا تعلو دفاترنا، وطاولاتنا، وأحلامنا.

قليلاً، قليلاً (والله لا ألحقه خير من أفتى بمثل هذه الحصص) بدأت تزحف حصص التدبير المنزلي من طبيخ وخياطة، وبدأ الملعب يضمر، يسود، يتوحش... ملعب خالٍ من إناسة القفز، وصفارة الحكم، وشبكة الملعب.

أصبحت الإبرة والخيط، والدسوت والمقالي، والسمن والصابون، هي ملعبنا الجديد، أسلحتنا في العلم والمعرفة والفنون، وكل مستقبلنا.

كانت كل غرزة تعني مزيدا من كتم مساماتنا، غرزة تخزق شراييننا الحارة، تنغرس في خلايا أدمغتنا، وتذوّب ما تبقى من حركة في دمائنا. إنها غرز صنعها فحول الهرميات الكبرى من: البداوة، والقبيلة، المتدثرين بالأسلمة السياسية للجم أعضائنا الفرحة.

كانت كل تقلية للبصل والثوم المهروس وتسييحهما بالسمن البلدي (على شان تطلع الطبخة ترم العظم والبدن) هي تسييحاً لوجداننا، تقلية وحرقاً لعصافير أشجاننا وأحلامنا. كل رغوة صابون، هي كنس ومسح للفراشات داخلنا.

-٦-

انهزمت لغة المضرب، وتنس الطاولة، ونط الحبل، و"شمس، قمر، نجوم" تكسّح كل شيء، وتكسّحنا نحن في لجة أن نغدو نساء بروائح الزيت والسمن والبتي فور والمكرونة بالبشميل... وغدت طرقاتنا الفرحة والشرحة من "حوض الأشراف" إلى "الكمب" إلى "الشماسي" إلى "الجحملية" إلى "صالة"

المخضرة، كأنها شوارع وحارات لأشباح دسمة.

حتى مناهجنا غدت مشبعة بروائح الدسم والزهم والشنص، ومازالت كل يوم هذه الدسومات تتراكم وتغرق مناهج أطفالنا، حتى اليوم، حتى اللحظة.

وكلما أغرقت وزارة التربية والتعليم بأجندتها (الدسمة) في تعليمنا وأطفالنا استخدام المنظفات، و"طبق المائدة اليوم"، توحشت الدسومة والتهمتنا بضحكاتنا، وصخبنا. إنها الدسومة الشرهة والشرسة التي لا تشبع. إنها الدسومة الكلبية بامتياز؛ فكيف لنا ولأطفالنا إزالة هذه البقع الكلبية، ما لم نقبل على الأقل بالتعايش والإنصاف؟!

-٧-

ببساطة نحتاج إلى حصة الأستاذة "مديحة" أستاذة الموسيقى، بمفاتيحها الموسيقية، لتفتح أجسادنا المغلقة المكتومة بالسمن البلدي.

ونحتاج بدلاً من التريكو وطول الصدر تسعمائة متر مربع، والخصر ألف كيلومتر، و"تطولي الأكمام، وتقصري الورك، وتضيقي منطقة الحجاب الحاجز"؛ نحتاج إلى شبكة كرة الطائرة، وكرة بيضاء، وصفارة "أبلة رندا".

فلغة الأكمام التي يحمل رايتها فحول التربية والتعليم، ومناهج: "طولي الفستان، وأوعي (احذري) تقصريه، وفضفضيه" ليكون أوسع من طربال خيمة معمر القذافي... قد خنقت صدورنا، ومعها تحولت الأقمشة إلى أكفان، وفي أحسن الأحوال "كنابل" و"طرابيل".

-٨-

أتمنى من وزير التربية والتعليم، ووزارة التعليم العالي، بل ومن الحكومة برئاسة الوزراء، وأعضاء مجلس النواب، المتنورين (وليس كلهم)، وأساتذة فلسفة التربية، والكتاب والباحثين، وأساتذة علم النفس، أن ينحوا جانباً ثقافة الدسم والتريكو، وبجدّية ومسؤولية، يعاد الاعتبار لحصة الرياضة في مدارس البنات، يعاد الاعتبار والاعتذار للغة القفز، لتنس الطاولة، وكرة الطائرة، وكرة السلة، ولبدلة الرياضة البيضاء، ولصفارة "أبلة رندا". أن يعاد الاعتبار للملعب، ليصبح ملعبا لاستنشاق الهواء، ملعبا للروح، فقد كفاه من السنين وهو أرض قاحلة، ميتة، إلا من طابور الصباح اليتيم، وصراخ وصراع الخُطب والأناشيد الخالية من سلالم موسيقية: دو، ري، مي، فا، صو، لا، سي، دو. إنها مفاتيح "الأبلة مديحة" مفاتيح الأعضاء الفرحة المتوهجة بصخب الحياة. فالأجساد المكتومة المستأصلة من الملعب، ما هي إلا قنابل موقوتة ستنفجر قريباً وبشراسة، وأظن أنها تفجرت منذ حين. أيها الوزير، أيتها الحكومة، أيها المبجلون في مجلس النواب أيها...

ولا كيف تشوفووووووووا؟

● «النداء»، العدد ١٤٠، الاثنين ٢٧ فبراير ٢٠٠٨

لا وجـــه يـطـل مـــن الـشـرفـة

أروى عـثـمـــــان

■ إلـى نسـاء قريتي (هجري – أعروق) اللواتي يمُـتن في الطرقات قبل الوصول إلى مستشفى مديرية "حيفان". إليهن في عيدهن ٨ مارس.

(١)

لا وجه يطل هذ الشرفة
15 شرفة

علاقتي بالشـرفات قديمة: بيتنا يطل على بوابة مدينة تعز، فاتحـة سـوق الصميـل –حوض الأشـراف. كان لنا شـرفتان جميلتـان مزخرفتان، لهمـا فتحات بأشـكال مختلفة. طللتُ منهمـا على حركة شـارعنا (الحوض): للباعـة المتجولين، وعلى الفرق الفنية للغناء والرقص الشـعبي، التي كانت تجـوب مدينة تعـز؛ فنانـين وفنانات بملابـس الحياة المنقشـة وبـودرة الوجـه، والكحـل وأحمـر الشـفاه، والمشـاقر المزدانة بالريحان و"الأزاب"، طللتُ منهما علـى أناشـيد ودفـوف المداحـين، ونسـاء صبـر والحوبـان جالبـات الزيتون والحقـين والبيض البلـدي، طللتُ منهما على عمي "عثمان" أشـهر بائـع الروتـي فـي الحـوض، وعمـي "مصلـح الحنحنـة" الذي لا يهمد يعمل بكد وعرق، طللت علـى الجولة، وإشـارات المرور وضجيج السـيارات وفنـدق "شـهبين" الـذي كان يبدو لنـا فندقاً مـن خمس نجوم، طللـت علـى دكانة عمي "علـي الحجـري" والزبائن الطالبين لـ"الراشـان"، تأملت شخصيات: أحمد سيدة يا مجنون، و"عفارة"، و"نقطة" امرأة الصلو المتأتئة، طللت على حياة متوهجة، شكلت وجداني وذاكرتي.

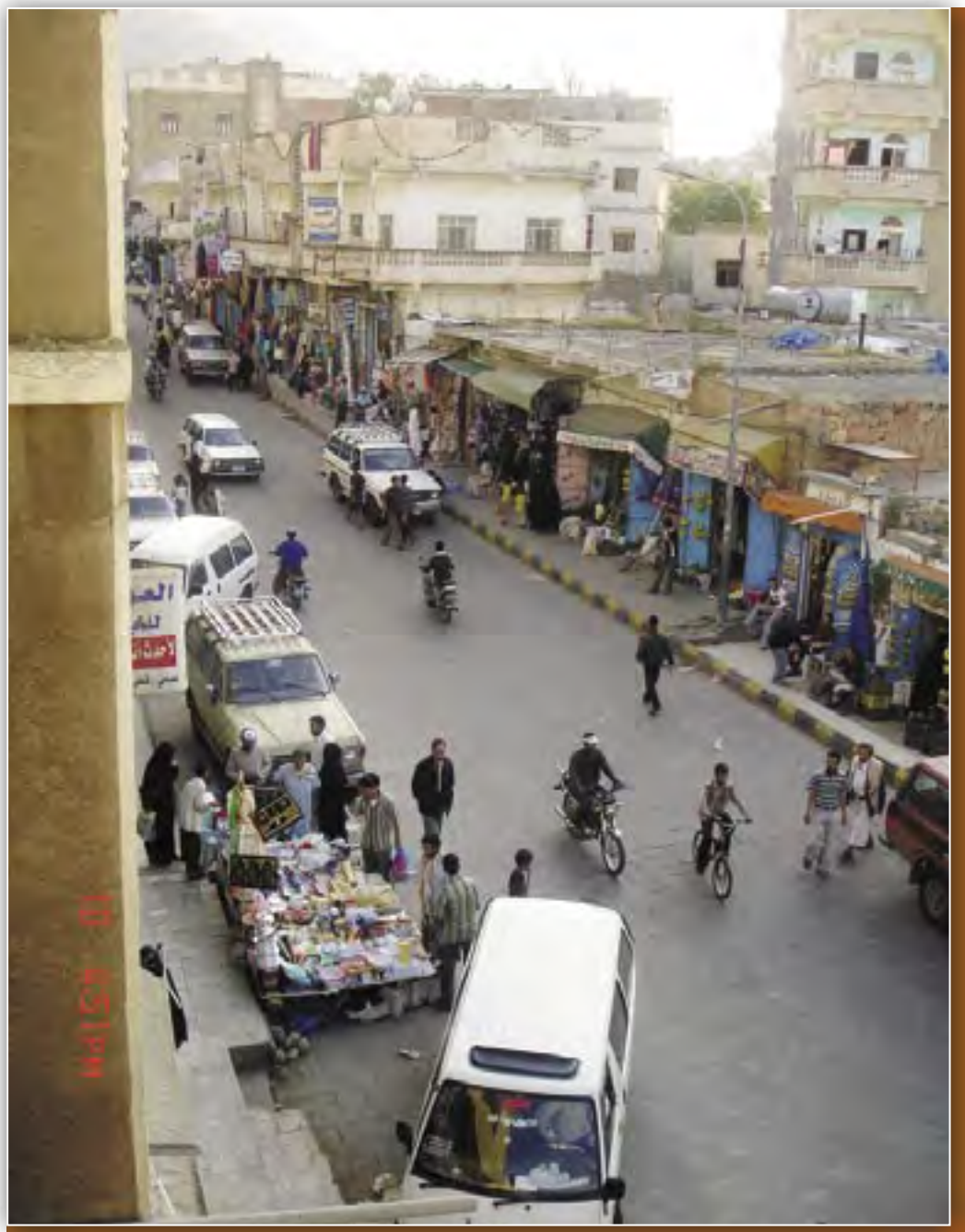

● حوض الجفاف - حوض الأشراف

● شرفات العتمة - عدن

(٢)

أما أبي فكان يطل منهما ليرى شيطنة الأولاد، ويراقب دكانه الذي تعددت وظائفه ابتداء من مطعم استأجره "عبدالرب" صاحب أحلى فاصوليا، ثم لوكندة بلا عنوان، ودكان فيه بضائع كل شيء، ولا شيء، انتهت بسرقته عبر كل من يشتغل عنده، وأخيراً إلى دكان لبيع البهارات و"الحِجن" و"المفارص" والمطارق و"الشروم"، وخردوات صغيرة، فيطل أبي ليراقب دكانه، ويسكب "عرعرات" من العيار الثقيل.

(٣)

أما أمي فتطل منهما على أحداث الشارع وصفارات النجدة، والضرب بالعصي والاصطدامات، والمضاربات، التي لا يخلو منها شارعنا، فتسرع متدثرة ببطانية أو ملاية ثقيلة، أو "شوالة/ جونية"، أو أي شيء تلاقيه في طريقها، فتعطف رأسها، وظهرها، ورقبتها، لترقب المشهد، ولا أدرى، حتى

● الرصيف شرفتنا - تعز

اللحظـة مـاذا كانت بالضبط تشـاهد، وتلك "الغلمقة" التي لا تحجب العـين والوجه، وتقصف ظهرها، بل وتقصف حياتها؟

(٤)

أما أنا فأتذكر حادثة "دندلتي" من الشرفة كانت في إحدى العصريات، كنت قد حفظت أغنية عرفتها للفنـان الجميـل الرائع دومـاً أيوب طارش "خذني معك ويا حبيبي شـتبعك"، رددتها ذلك اليوم، فظهر أبي من دكانه تحت البيت، وركلني عن بعد/ عن طلع/ عن فوق (سـموه ما شـئتم) بعرعرات سـاخنة لي ولأمي، وجدتي، وأظن أنها وصلت إلى جدتي الأولى "حواء"، ثم اندفع إلى البيت، وسجل ضربات مازلت أذكرها حتى اليوم:

صغيرة "تدندلي" وتغني على الحبيب، وينو حبيبك يا بنت الكلب... الخ.

من ساعتها ضاع طعم الشرفات، وحتى اليوم عندما أذهب إلى بيتنا الذي بني على شرفاته القديمة

● الكتمة سيدة الحوض - تعز

شرفتان إسمنتيتان جديدتان، غير مزخرفتين، ولا ملونتين، ولا بهما خروم منقوشة، أتذكر "واحبيب" ولا أحس بطعم الفرجة، وخصوصاً وبيتنا يطل على شارع فيه الباعة والصبريات وهن يبعن الفواكه، وعمتي "حمامة" ضوء حوض الأشراف، بل شمعة وذاكرة تعز.

(٥)

لكني مازلت مُصرة، حتى اللحظة، أنه سيأتي اليوم الذي -طبعاً لن أبني- لكن أن أستأجر بيتاً بشرفة صغيرة، وأشرب شاي أحمر بالنعناع، بل وأوسح توسيحة العمر، وأقرأ شعراً وأسمع نجاة الصغيرة ليس فقط "لا تكذبي، عل اليادي اليادي"، بل "عيون القلب". سأرتشف قهوة الصباح واستفتحها بصباحيات فيروز "بَعدك على بالي" فكل يوم وأنا أحلف مئات الأيمان المغلظة، خصوصاً عندما نتزاحم أنا وطفلاتي على نصف نافذة تطل على حوش سيارات المجمع، ويتقدمنا أكواب الشاي الأحمر بالنعناع. ولو بقي ساعة في عمري سأكتب وصيتي لا بد من شرفة تحتضننا وتحتضن شاينا

الأحمر بالنعناع، وإن طال السفر/ أو طال الموت.

(٦)

لا توجد في بلادنا حتى اليوم ثقافة الشرفات، وإن وجدت لا وظيفة حياتية لها، إنها شرفات صامتة، خرساء موحشة، شرفات من "خفر السواتر".

سؤال:

هل تبادر إلى ذهننا ذات يوم سؤال، لم هذا الكم الهائل من البلكونات في عمارات شاهقة متعددة الطوابق والتي تحيطها البلكونات من كل الجهات؟

حيث نرى مدننا متخمة بالعمارات المتعددة الطوابق وتحوي الآلاف من البلكونات المزخرفة، والملونة، لكن هل رأينا يوما أسرة تشرب قهوة الصباح فيها؟ وهل وجدنا رجلا يسمع إذاعة الصباح في ركنها؟ وهل رأينا امرأة تقرأ كتاباً فيها؟ وهل رأينا أماً تنادي أولادها الصغار منها، أو امرأة تنشر الغسيل، أو امرأة تتأمل، أو تناجي جارتها، كما يفعل البشر منذ أن خلقوا وخلقت شرفاتهم؟

مطلقاً، مطلقاً، لم أشاهد في بلكونات وشرفات في مدينتي "تعز" أو العاصمة "صنعاء" (وأنا أقطنها منذ منتصف ٨٤) صنعاء التاريخية وبلد الحكمة يمانية، وصنعاء حوت كل فن، وصنعاء الحضارة والديمقراطية، لم نشاهد أي رجل كان أو امرأة، إنسي أو جني، إلا من قطط تتسلق أسوارها أو فئران تلهو في فتحاتها الجميلة أو طيور وغربان يذرقون فيها.

عدا مدينة "عدن"، ليس لكونها فقط منطقة حارة، ولكن لأنها مدينة مدنية كوزموبوليتية، لكنها بعد حرب صيف ٩٤م نُصلت من كوزموبوليتها ومدنيتها ومن الحياة كلها، لتلحق بخفر السواتر، ومازالت صورة أحد أقربائي وزوجته وهما يتناولان شاي الساعة الخامسة في شرفة بيتهما في أحد أحياء عدن محفورة في عقلي.

(٧)

شرفات بلادي لا تعرفها النساء، وإن عرفتها فلتنظيفها، ولو نظفتها يجب ألا يرى ظلها (غومتها) أي كائن إنسي أو حتى جني، فيجب أن تنعطف أسفل بحيث يصبح رأسها بين قدميها، وفضلاً عن أنها ملثمة أصلاً، فتبدو الصورة (وجه ملثم يتدلى بين الرِّجلينْ)!

أتذكر هجيج أمي وهي تزعق في وجهي كيف تجرأت أنظف بلكونتنا دون أن أتعطف خمسين عطفة، ودون أن أحمل أسفار الكنبلة، وماذا سيقول الناس عني أبسطها قليلة حياء وأكبرها "...".

● عيون منسية خلف السواتر - حضرموت

لم نسأل أنفسنا، ما هي وظيفة الشرفات (البلكونات) في اليمن؟

رأيت وظيفتها، وظيفة المخزن/ القفا (قفا البيت) الذي يحوي الأدوات الفائضة والخردوات والعناكب والغبار فقط لا غير، فضلاً عن روح المرأة الفائض في ظلال نصوص شرفات بلا شرفات، ونساء بلا نساء، وحياة بلا حياة.

(٨)

بلكونات بلادي، مثلها مثل النافذة، مثل السطوح/ السقف يجب أن يسوّر بأسوار عالية، حتى لا تتسرب أية نظرة من أي كائن كان، فتحدث الكارثة وتعتور العورة. ولذا رأيت في "حضرموت"، و"تعز" و"عدن" الأسمنت قد بدأ يعلو البلكونات التي كانت موجودة من قبل، فترى نصف البلكونة مزخرفاً، وبفتحات ليدخل الهواء، ونصفه الآخر جداراً أسمنتياً أسود، أو طربالاً ثقيلاً، أو طربالاً بلاستيكياً، وفي الفترة الأخيرة، بدأت تبنى البيوت بلا بلكونات، فيبدو البيت سجناً خرسانياً.

● كانت هنا نوافذ - صنعاء

(٩)

أتذكر في قريتي (هجري - أعروق) البعيدة عن الحياة والوجود الإنساني التي مازالت تغرق في الظلام، وتتمنى شربة ماء نظيف، وطريقا يفصلها عن الموت المؤبد، ومستوصفا بحبة أسبرين، ومدرسة لا تقطع فيها طفلات قريتي المصوصات دماً ولحماً، المشويات من لهيب الشمس ولهيب الحياة القرو-وسطية عدة كيلومترات ليصلن إلى مدارس قصية، أو ليجبلن قطرة ماء. طرق قريتي شديدة الوعورة، لدرجة أنها لا تتسع لأقدام حمار أو فرخة، فإلى جانب ضيقها فيها كثير من المزالق والانحدارات، حتى إنه أطلق عليها طريق الموت، وخصوصاً للنساء اللواتي قضين نحبهن، وهن في الطريق لم يسعفهن الحظ للوصول إلى المستوصف البعيد "حيفان" أو "الراهدة"، ناهيك عن أن الموت يلاحقهن في ثنايا الطريق أثناء تأديتهن الأعمال الشاقة كالتحطيب، وجلب الماء، والرعي... الخ. وأذكر أن في تلك الطريق -تجاوزاً- عقبة تسمى "عقبة الشيطان" لكثرة القتلى الذين يتساقطون عليها.

والمفارقة الصاعقة عندما بدأ المشروع الجدي لشق الطريق، كان هناك اعتراض شديد من قبل "المشنبين" الغلاظ، فشق الطريق سيكشف سقوف بيوتهم، ومن ثم ستكون النساء عرضة "للكشف" أي للعيون، أي ستنتهك عوراتهن. وفشل المشروع تلو المشروع بسبب تلك العيون التي ستهتك حرمة النساء، أو بالأحرى حرمة الذكور، فهذا الذكر الملغم بثقافة (الحُرمة/ والتحريم) من السهل، بل والطبيعي أن تموت ابنته، وزوجته وأمه في طريق الموت، ولا يشق طريقا يمكن أن ينتهك حرمة السقف!

فكما تذكر الأجندة الفقهية: "النظر سهم مسموم من سهام إبليس، ووالله لو أن النظر يحبل لأحبل كثيراً من النساء، وقد تكون نظرة من المرأة لشاب أعجبها أشد عليه وعليها من السهم المسموم".

هذا السهم رمز الفحولة المتضخمة الذي عبره تحدد مصير الكون، ومصير المرأة، هذا السهم الإبليسي الذي جعل المرأة تحبل من النظرة، المرأة الشيطانة التي تغوي جموع السهام، ولا تشبع، المرأة التي "تقبل في صورة شيطان، وتدبر في صورة شيطان"..

(١٠)

إنها النصوص التي تتضاد مع الحياة، مع الشرفات، مع كوب الشاي الأحمر بالنعناع، مع قهقهة الأسرة على مائدة خفيفة، مع وشوشة الإذاعة وأغانيها الصباحية والمسائية، مع الجسد الذي يريد أن يتبرد ويتنفس، مع نشر حبل الغسيل، وحبل الروح، مع صوت أم تنادي ابنها أن يجلب معه الروتي. فأي وطن هذا يستأصل الوجوه المطلة من الشرفات إن وجدت، وإن لم توجد فأي وطن يحتمل الكتمة، ولا يتعشق الشرفات، ولا يدغدغ وجنات الصباح، ويطبع قبلة على عيون أبنائه اللامعة..! أي وطن يتضاد مع الوجوه، يستقبحها، يتساكن مع الطرابيل والغلمقة العقلية والنفسية والجسدية، يتطامن مع اللاحياة، يتعاقد مع دعاتها الأشاوس لأجل ألا يطل وجه من النافذة، ولأجل أن تموت النساء عند "عقبة الشيطان"، عند "عقبة الشيطان"!

ولا كيف تشوفووووووا؟؟؟

● «النداء»، العدد ١٤٢، الاثنين ١٢ مارس ٢٠٠٨

الفاشست الصغار.. أركولوجيا «الجعشنة»

أروى عـثـمـــــان

(١)

15 شارشة

الفاشست الصغار.. أركولوجيا «الجعشنة»

الجعشـنة أو الجعشـنية: ليست مذهباً فلسـفياً أو دينياً أو سياسـياً، وغيره من مذاهب الفكر الإنسـاني، ولكنها آتية من كلمـة "يَذهِـب"، ويذهب فـي اللغـة الدارجة بمعنـى يخرب، فتدعـو الأم على ابنها في فـورة غضبها: "الله يذهبك"، أي "الله يخربك،ويقال: فلان "مذهوب" أي خارب.

و"الجعشـنية" أخطـر وأفتـك المذاهـب، فإلى جانب أنها تخرب الروح والجسد والعقل والشجر والحجر والنمـل والقمـل والكُـتن، تمـرص الكائـن مرصـاً تخـرج لحمه ودمه من بـين أصابعها أو بالأحرى، مخالبها. إنها "المرصة الجعشـنية" القاتلة التي لا يضاهيهـا أي مرص علـى مدى تاريخ مرص الطغاة والمستبدين.

تشـتد شـراهة مـرص "الجعشـنة" للبقـر والأجـدي وخصوصـاً البقـر الحوامـل (المـرازن) حيث تمرص "البقري" مرصاً يتفرق دمها في لقوف وشفاه فيالق المرص الجعشـني. ويقـال حتى الكتن والقمل خصوصاً "المرزنـات" لم يخلوا حالهن مرصوا لحمهن على عظامهن.

(٢)

لأركولوجيا الجعشـنة تقاليد مرصوية معروفة للكائنات الحية وغير الحية، وبنفس المرص يسـري

مخيم لاجئي غزة المنسيين
الجماشن - مديرية ذي السفال - ٢/إب

على قوافي وبحور الشعر "مفاعيل فعولن" مباشرة للحاكم الأعلى الذي تعود أيضاً دهن شفاهه بدلاً عن فتة الموز، بفتة جعشنية تعلقه في صدر الصحف بيتاً بيتاً.

(٣)

يقال إذا ما لفحتك ريح جعشنية خصوصاً "ريح أحمر" لأي كائن كان: "بقري مرزن"، تيوس، أرض، جبل، شجر، حجر، تصيبه "حكللة" مزمنة تُيبس جسده، ثم تعمل على نهشه فتأتي على لحمه وعظامه، وإذا ما هرب المواطن أو أية دابة من الفتك الجعشني تظل ريحهم تحافر حتى تهرشهم، وتجذمهم، وتفنيهم.

(٤)

وتقول الأساطير والحفريات الأركيولوجية، إن "طاهش الحوبان" نزح جده الأول من الجعاشن، ومن بيت الجعشنية، ويقال إن المرض الآدمي والشعري جار في دمهم. ويضيفون أن "الجعش الأكبر" رحل إلى الحوبان لينهش بشكل أوسع، ولأن مجاعة كانت تلوح في الأفق، حيث استقر مقامه هناك وأسس مملكة طهاشة الحوبان فخصب تناسله المقدس في كل أرجاء اليمن، فكل قرية تملك جعشاً فاشستياً صغيراً يقرط الأخضر واليابس ويتجشأ بقوافي الغواني ومدح السلطان.

أحد أحفاده أخذ راية "الطهبشة"، هو مؤسس الجعشنية الحديثة في الجعاشن تحت شعار: لا "للرزن"، نعم للجدب والدمار.

(٥)

لكن هل هناك علاقة بين الجعشنية وشخصية الجرجوف الأسطورية في الوعي الشعبي اليمني؟ تقول الجدات: هو "بشحمه ولحمه" ويقلن إنه "الدجرة"[١]. متخف بملابس شيخ معمم "مجنبي" أي يلبس جنبية، يقرض الشَّعر، والشَّعر "جعد وسلس". جدات أخريات يحلفن بحالهن ومالهن (قبل أن يمرض حالهن ومالهن جنود الشيخ) إنه عفروت البئر، وضبع الجبل، وهارش الديمة، وأحد الأسماع الوحشية التي تسكن الجبال.

وبالرجوع إلى ذاكرة الناس، يرجح أن الجرجوف، أو الجعش المارص، قد خير مواطني الجعاشن عند تسلقهم شجرة الدوم (السدر) ورفضوا أن يتحولوا إلى قطيع، يتعبث بهم كيفما شاء، وكيفما أراد، تبعاً لنزواته السادية المريضة، خصوصاً بالحيوانات الحوامل. فذات يوم شمهم عن بعد -لأن الجراجيف يعتمد وجودها وافتراس ضحاياها على حاسة الشم القوية- فأتاهم من طرف الوادي، قال بصوت شرخ جبل الجعاشن: "شم عرماني بقرطه على ضرسي وأسناني". حاول أهل الجعاشن، رجالاً

ونساء وأطفالاً، أن يعملوا مثل بطلة شجرة الدوم، فقالوا: "نحنا واعم جرجوف". علّه يتأنسن. لكن كرر: "بقرطكم على ضرسي وأسناني"، وسأبتدي بكل ما هو "مرزن" حتى لو كان حجراً، وأردف قائلاً: أنا جرجوف بعدي جرجوف، بعدي جرجوف بعدي جرجوف، بعدي جرجوف، وبطني سع قبة الصوف. لم يفتجعوا منه، ولا من أتباعه الجراجيف المارصين، وظلوا عالقين في شجرة "العلبة" علّ وعسى منظمة حقوق إنسان أو مناصرين دوليين أو حتى الحكومة وإن تجرجفت بعده بمخبزة القوافي العصماء الشعر والمعلقات التي تنز دماً، يمكن تستحي أو تخبز مبادرة على غرار مبادرة الأشقاء في فلسطين أو الصومال أو مدغشقر أو "تنكا بلاد النامس"[٢] لكنها متخمة وملجومة بالأقراص الدسمة للقصائد الجعشنية.

قال جرجوف الجعاشن ملوحاً بسبابته الخازقة: معكم أمر واحد لتنجوا: أن تتساقطوا جميعكم على أصابعي. رفض الجميع، لأن أصابعه كلها تنذر بالموت، فهم يعرفون أصابعه: مخالبه. فما كان منه إلا أن هاج ونفث جعشنيته النارية، وشردهم. لا خلى فاطمة، ولا حسن، ولا سعيدة، ولا الرضيع، ولا الحبلى، ولا النفاس، ولا العاقر، ولا جدار، ولا تراب، ولا بركة، ولا بلسة، ولا مجول ريحان.

(٦)

أحد المؤرخين اللغويين في معجمه الذي يشبه لسان العرب (لسان الجعشنة): إن كلمة "جعشن" حرفت من الأصل "عَجَشْ"، فجدهم الأكبر عجش ودبش البشر والشجر والحجر، وصمح ركبته بزبدتها، ويقال إن كلمة "جعش" أصلها "جعث" فتجعث الكائنات جعثاً، فتفرق أعضاء جسمه كل في جهة: الرأس مكان الركب، والركب محل الرقبة، والرقبة في جهة الظهر، وهكذا...

أصل الحكاية

إن الجعش الجعث الأكبر طاهش اليمن والجعاشن الملقب ببطل الشعر المجعوث/المجعوش – سيان، جمع رهطاً من المواطنين حوله، يتسامرون، ويبلغونه عن أي خزق لم تمشطه أو "تُشظفه" رعيته بالبنادق والرشاشات والفؤوس والأطقم، وبينما هو يتحدث بفورة حماسة، ضرط.

"ارتبش" من الخجل. ومن المفروض ألا يرتبش، ولا يخجل لأنه وسلالته التاريخية أباً عن جد ضرطوا فوق الناس من زمن بعيد، وكانوا يغطون على فعائلهم ليس بـ"النحنحة" ولكن بفتة القوافي والمعلقات.

المهم، نظر الأمير الجعش إلى جلسائه فرآهم صامتين، ولا نخس، فأتته فكرة أن يتخلص من الجميع الذين سمعوا ضرطته، فانتفض وأصدر أمره الجعشني: حيث كلف كل مواطن بأفعال إعجازية، وأمر بأن يعطي لكل واحد منهم كبشاً (مرزناً) على أن يقسمه المواطن إلى أرباع. ومن لا يقدر على ذلك سيقتله.

20 9:14AM

عملوا بما أمر وقسّموا الكبش إلى أرباع. ولكن الأمير الجعشني رفض قسمتهم؛ فأمر بذبحهم... إلخ الحكاية (انظر حكاية الأمير السفاح، محمد أحمد شهاب).

وهذه حكاية الجعشنية لم يسلم مواطنوه من أذيته وتقتيلهم بضرطته أو بدونها.

الذاكرة لا تنسى

فما عليكم يا أصحاب الجعاشن برجالها ونسائها وأطفالها المعتصمين في نادي الإعلاميات أو النازحين إلى مدينة "إب" ومناطق اليمن أمام الفاشية الجديدة في اليمن في الألفية الثالثة، إلا أن تلملموا همومكم وتدفنوها في "مشقار" كما فعلت بطلة شجرة "العلبة" في حكاية "الجرجوف" عندما التهم الجرجوف أخاها. ستساعدكم "الصرورة" ستنقل أصابعكم المغدور بها والمشيرة إلى الجرائم البشعة التي يرتكبها جرجوف الجعاشن بسادية متضخمة كفيلة بأن تدخله هو وطاقم الدمار في مصحة نفسية، و"ساني" ترسلهم إلى محكمة مجرمي الحرب بجانب أصحابه من مجرمي الحرب في العالم.

وما عليكم يا أهل الجعاشن إلا أن تغرسوا كل ذلك في مشقار، وأن تسكبوا عليها أغانيكم ومهاجلكم، وتمتماتكم، نهداتكم، وحكاياتكم: حكايا البيوت والنوافذ والردجان ومجاول الريحان، حكايا أبقاركم ومواشيكم، وحكايات الجعف، والحقين، حكايا السمر، سيزهر المشقار من يضعون حداً لسعار الجراجيف حتى لو كانت تكتب شعراً وقصائد، حتى لو ارتدت ملابس الإنسان، وإن تلونت بزي الملائكة. ولكن انتبهوا عندما يشتد غضبكم أن يخدعكم المارص بتلونه، سيقول لكم وهو ممدد على فراش الفناء:

"اتفلوني". لترتد روحه، لا تصدقوه، لأنه سيحيا من جديد وسيضرط من جديد، مثله مثل "ميدوزا"، وإذا قال لكم: اخطوني حسكم عينكم، تصدقوه سيولد جراجيف أخرى، قولوا له: لا، لا. لا ثنى أبي ولا أمي، وستكون نهاية المرص الجعشنية، نهاية الجعشنية.

مرة أخرى لا تصدقوا حكم الجراجيف في أعمدة الصحف والعمدة الروح: "من عاند السلطان أصبح حزين باكي". عاندوه، وعاندوه، فما يحمل الجور إلا الذليل، فأنتم ونساؤكم وأطفالكم أشجع منا جميعاً، لأننا أذلاء لكل جعشنية مارصة في بلادنا.

الغرفة السابعة:

الغرفة السابعة قد فتحت، برغم تهديد الجرجوف بعدم فتحها، فتحها أبناء الجعاشن الذين قالوا: لا. فتحت لأجل أن نعرف وعرفنا، وعرفنا.

فـ"احكم سوقك يا علي، واعقل جراجيفك"، كم دولتك يا عُقبة، قالت: حوية الذري".

قاح.. قراح[٣]

أشكو من الجعشني

أروى عبده عثمان: أيقونة الحرية وذاكرة اليمن الحية

آه من الجعش كم غموا الأرواح
كم يصنجوا بالمدافع: قاح قراح، قاح، قاح
كم خربوا من معاقل، كل يوم قلفاح
ما ردهم جدر في الدنيا ولا صرواح.
●●●
سبعين خلوا الجعاشن تضرط نار
جُو بالكوافي، ولبسان جوخ فوق الأحجار
والفرق بين السبيلين مبلغ المجعار
أذلوا الناس، لا قناف ولا معصار.
ولا كيف تشوفووووووووووووووووووووا؟

■ هوامش:

(١) انظر حكايتي: الجرجوف + الدجرة، حكايات وأساطير يمنية للأستاذ علي محمد عبده.
(٢) انظر قصة: يحدث في تنكا بلاد النامس، للكاتبة.
(٣) قصيدة عامية – بتصرف– قيلت قديماً في الطغاة الأتراك.

● «النداء»، العدد ١٤٥، الاثنين ٢ أبريل ٢٠٠٨

معنى أن تكون " قبيلي عَسر"*
من "إدكمه" يعرفك.. إلى "جَرمِله" يعرفك

أروى عـثـمـــــان

■ إلـى مجلـس شـؤون القبائـل (مجلـس النـواب/ البرلمان) في يوم ديمقراطيته..

معنى أن تكون "قبيلي عسر"
من "إدكمه يعرفك.. إلى "جَرمله" يعرفك
13
فواجس بلحظة عن صحافة حرة

"عسـر" بمعنى عكر، وعُسـير، أي عُكير (في لهجتنا الشعبية). وبالفعـل أن تكـون قبيليـاً، أي أن تكون إنسـانا عكيراً أعكر من الديمقراطيـة، ومـن الأمن والأمـان في بلادنا، و"عَسـر" يعني مدمـاك، صخر صوان، ثابت لا يتغيـر، طحطوح، أحمر عين، وأزرق نـاب، ليـث، بـركان، حريـق، غبار، نفيـر، مكر، مفر، مدبـر معـاً. وزد على ذلـك التجلمد، وبالسـيل يحطه من عل، والنتيجة على رؤوسـنا التي تنفلق كل لحظة مائة فلقة.

العسـر فـي الذهنيـة القبليـة يعنـي ألا يخـرج إنسـان أو أي كائـن أو هائمة عن مقاليـد القبيلة: القحطانية، والعدنانية، والحشـدانية (حاشـد)، والبكلانية (بكيل).

• أن تكـون قبلياً وعسـراً: أن يتفرع القبيلي العسـر الواحد الكبير إلى بلـدوزرات "مُقيبلين" أطفـال يخبـزون البـلاد والعباد على مختلـف أنواع المخبوزات.

• أن تكون قبيلياً: أي أن تحول كل ما ليس منك بد، إلى بد، والبد الأعظم: الغنيمـة "الفيـد" فاكتسـاحك يبـدأ من الإبـرة ولا يهدأ لك بـال، إلا وقـد عَطّفت اليمن وطبقتهـا بشـجرها، وحجرها وناسـها وبقعها وهوائها، ذاهبة إلى صنـدوق القبيلة الوريث الوحيد

والشرعي لليمن، فالقبيلة أو الموت، والوحدة أو الموت، والبقعة أو الموت، والجرمل أو الموت.

• أن تكون قبيلياً: أي لو شممت "شقفة" خير لمواطن من كسرة خبز إلى قميص مهترئ إلى كوخ متهالك فلا تتأخر في سلبه، ورجمه في العراء حتى القرمدة واليباس.. ويقال والعهدة على الراوي إن كوكب "بلوتو" قد نبشوه وغنموه غنيمة قبيلي واحد، والآن يتأهبون باستنفار عال للكواكب الأخرى التي في طريقها للاكتشاف، فالعيون والجرامل مفتوحة ويقظة، وهم الآن يرابطون عند تخومها، وأول اكتشاف لها سيبركون كما تبرك الأسود على فريستها.

• أن تكون قبيلياً وعسراً: أن تصلي وتصوم، وتعرف ما قال الله والرسول والصحابة وابن تيمية، وابن الجوزي والنووي وأسامة بن لادن، وعلي ولد زايد، وأمي عتيقة، وجدتي خديجة، لكن لا يستقيم الدين إلا بالمقاولة على الدنيا والآخرة، وما الدنيا والآخرة إلا "بقعة" شرقها تأخذ الألباب وغربها تسحر الأبدان.

• معنى أن تكون قبيلياً: ألا تفتح فمك أو تتنفس أيها المواطن، احمُد وسبح بحمدهم، فلولاهم ما خُلقت ولا أكلت ولا شربت، ولا شعرنا بالأبوة والأمومة، فوطئ رأسك والثم الأقدام قبل الركب، فلولاهم لما وجدنا، ولو طحت يا صاحبي، ما يرحمك القبيلي العسر.

• أن تكون قبيلياً عسراً: اغرس عبر التطهير اليومي في كل أجهزة الإعلام الرسمي والشعبي أن الأصل كان قبيلياً وما عداه "فسل"، فالقبيلي هو العرق الأنظف، الأقدس، وما دونهم ناقصون "عزكم الله".

• أن تكون قبيلياً وعسراً: أي أن تكون مصلباً مراوغاً مخاتلاً، فتغلب الدولة وفي أحسن حالات تحضرك، وخصوصاً أمام التليفزيون قل "إن الدولة هي القبيلة والقبيلة هي الدولة، ولا فصام بينهما". بل إن الدولة ما هي إلا شيخ محتزب ومحتزم بجنبية مع كامل معداتها الخفيفة والثقيلة من حزام الرصاص إلى طائرات الميج، ومدافع، وصواريخ سكود إلى جانبهم أطنان "القات"، و"بقع" لا حدود لها.

• أن تكون قبيلياً، حوّل المدنيين الحاصلين على أرقى شهادات العلم من جامعات أوروبا وأمريكا ورجالات الرأسمال إلى مضاربين، مصارعين ومقاتلين، يناضلون من أجل الحصول على لقب قبيلي/ شيخ، فيرمون أعلى شهاداتهم الجامعية وما بعدها تحت أقدامهم/ ويتقاتلون مصارعة حرة، بالسلاح الثقيل، والشتم الأثقل، للحصول على فتات مسبحة وعمامة، و"جرمل" ويهتفون وبصيحة رجل واحد: الله، القبيلة، البقعة، الجنبية، (لكن يظلون من فئات القبائل المهمشة "أي مكرضحين"، وليسوا عسوراً، بمعنى قبائل مهلهلة، قاصرة، وناقصة عقل ودين.

• أن تكون قبيلياً: اجعل زوجتك، وما ملكت يمينك، يشتممن كل ما حولهن جيفة، ويا أرض اشتدي، فتحمل بندقيتها "جرملها" في عقلها، فتبدو أمام صديقات الطفولة من كائنات الجنس الآري، فلا تستلذ بطعم القات إلا بعد أن تقبل ركبهن، والأيدي والرؤوس المرصعة بمخبوزات الذهب، وكلما أكثرت الصديقات من هتاف: "الله يحفظكم ويفنينا، والله يطول بأعماركم ويقصف أعمارنا، ويجوعنا ويشبعكم، ويرزقكم بالمزيد من البقع، ويجعجعنا بمزيد من الغرق والحفر، ويسعدكم ويدبرنا، ويدقوا

لحمنا على عظامنا، ويكنزكم بمتاريس لحم وسمنة، ويصلح عظمكم المستقيم الآتي من سليل الآلهة المقدسة، ويعوج عظامنا الآتية من سلالة إبليس، يطهر عرقكم، ويدنس عرقنا"، لكن هل يرتفع ميزان حسنات صديقة الطفولة أمام الأنثى "المجرملة" فتصبح إحدى المحظيات؟ مطلقاً، بل تمنحها زعقة نارية تبعدها تحت الأرض.

• أن تكون قبيلياً: إن لا صوت يعلو على صوت القبيلي وخصوصاً لو كان عسراً، منيعاً عتياً.

• أن تكون قبيلياً: أن تجعل الحكومة، مخبوطة هائجة ملطومة، وكلما اشتد لطمها من قبل القبائل الصغار والكبار سارعت الحكومة (حويكمة) كفئران مذعورة إليهم، فتارة ترضي قبيلي "ابن أمس" بوزارة، أو ببرلمان، وإن تَبرم قليلاً، هلعت مرعوبة، فيخيرونه أي وزارة يريدها، وإن لم توجد، يفصلون له وزارة، برلماناً بقبة هائلة، حكومة على مقاسه المقدس، فـ"إلا القبيلي العسر" و"إلا رسول الله" فهو قبيلي عسرا بن قبيلي أعسر فنسله يمتد إلى أبطال التاريخ، فأسعد الكامل جده، وسيف بن ذي يزن ابن عمته، وذمار علي صهيره، والمكاربة رفاق الطفولة، والأقيال، عيال عمومة.. الخ.

• أن تكون قبيلياً: كَذب كتب التاريخ، ولا تبالي، أخبز تاريخاً جديداً يفصل على قدر جنبيتك وبقعك، واجمع بعض المؤرخين السائلة لعابهم "الملججين" على القبيلة، قل لهم، بل مرهم: أن أصل اليمن ومنبعها ليس حضارات سبأ، ومعين، وأوسان... إلخ فكلها خرجت من غمد جنبية الحضارة الأم "حاشد"، ففي البدء كانت حاشد، وفي الأخير كانت وستكون حاشد، ولو ظهرت حضارة انسلت خفية من هنا أو هناك كحضارة سبأ مثلاً، فما ظهورها إلا من وزرة ومداس حاشد.

• أن تكون قبيلياً: سخر الإعلام والصحفيين والكتبة ادهن شفاههم بدسم، ليقولوا إن القبيلة هي الأصل والفصل، فلا مدينة ولا مدنية إلا من قبيلة، بل اجعلهم يتهافتون، بأن لا مدنية، ولا مدن في حضرة القبيلة بعد اليوم، وإن وجدتا فهي للنساء، وأشباه رجال "المسرولين" ومن قال غير ذلك فهو عميل للدول المصدرة للغزو الفكري أي من النصارى الكفار اليهود... إلخ.

• أن تكون قبيلياً: أن تجعل البنادق هي الحل، وتحول مدينة "عدن الكزموبوليتية" إلى مدينة أشباح "مجرملة"، مكللة بالدبابات والعسكر، مدينة منزوعة الأرض والبحر والسماء والهواء، فشرفاتها حولتها إلى أخزاق مشرشفة بالسواد، مزينة بالقمريات الكاتمة لرذاذ البحر والبخور، محصنة بالشرف والمنعة والرجولة، تربض أسفل غمد الجنبية، ليس ذلك فحسب بل ويتوجونك أيها الزعيم بأرقى الشهادات العلمية والأدبية والسحرية من أنك صانع الأستار والخفارة لمدينة كانت قليلة حياء، تستقبل صباحاتها بأغنية ورقصة، وتنام على هدهدات نسائم البحر.

• أن تكون قبيلياً: أي أن تحول حياتنا واختلافنا إلى لون واحد، طعم واحد، شم واحد، صف واحد، والذي يخرج من الصف يذوق السم ويشرب نقيعه.

• أن تكون قبيلياً وعسراً: أن تدافع عن الأصول والتقاليد، وكلما لاح مشروع حداثوي وتنويري باغته بطعنات قاتلة، ووصمه بأنه مشروع ضد الأصول، وتقاليد القبيلة، وضد الإسلام، وضد البقع.

• أن تكون قبيلياً: اصنع أصولاً جديدة من صلبك الأقدس تقويك، وتقوي ساعدك وزندك.

• أن تكون قبيلياً عسـراً: ألا يظهر مسـرح إلا مسـرحة حياتنا بجرمل، وأثوار تنحر على الشـوارع والطرقـات، ومقيـل بمفرج لا يحصى بمسـاحة، وهو المسـرح المفتوح، ولا سـينما إلا بمشـاهد قوافل تهجير الأثوار، والدماء التي تسكب في عتبات الوزارات والمؤسسات، والشوارع والطرقات.

• أن تكون قبيلياً عسراً، تؤمن:

• بأن لا رقص إلا من "برع" (رقصة حربية، الرقصة الرسمية الوحيدة)

• ولا غناء إلا زامل "الفيد"

• ولا حياة إلا من غمد جنبية

• ولا فضيلة وعفة إلا بشرشف وغلمقة

• ولا رجولة وفحولة إلا بوزرة، وزنة وعمامة "سـماطة" وآلي، ورشـاش، ودبابة، وصاروخ اسـكود، وبارجـة حربية، ومفاعيـل نووية، موزعة على الكتف، والرقبة، والخصر والرأس، والصدر، وأصابعك الكريمة زينها بخواتم من كلاشينكوف، وبازوكا، ومدافع هون، وهذا هو الزي الرسمي.

• أن تكون قبيلياً عسراً: ادخل على الدين فجرمله

• وادخل على السياسة وجرملها، وخليها تحرق حريق

• أدخـل علـى المـدارس وجرملها: بـأن القبيلي هو الأصل، وما سـواهم، نقـص. ولا حمى إلا حمى القبيلـة والشـيخ، وأن عقل المواطن المدنـي ناقص، وعقل القبيلي مكتمل، وطَعـم المناهج، بالدفاع عن غزة، وتركمانيا، وبلاد النمل والقمل، وبلاد كعمان، ورفسان، ولا تنس الدفاع عن "إلا رسول الله"، فعز القبيلي بقعته وجنبيته، وقاته، ولن يتجرع أي وباء.

• وأن تكـون قبيليـاً عسـراً: غير الخطاب السـائد من "ادكمـه/ الكمه يعرفك"، الـذي يدخل في باب التاريخ والموروث الشعبي المنقرض، إلى لغة العصر المقبل بـ"جرمله يعرفك".

• أن تكـون قبيليـاً: أي أن تجعـل البـلاد مسـورة بحصون، وثكنـات، ومتاريس، فالأسـوار ترد كل شيطان وكل حاقد على أعراف القبيلة، خصوصاً الحاقدين المسرولين والنساء.

• أن تكـون قبيليـاً: اجعل الثقافة والأدب والفنون ما هي إلا سـفر فـ"جنبية الشـيخ الفلاني وصلت إلـى مائـة مليـار دولار، وخيل الشـيخ الزعطانـي، وصل إلى مائة مليـون يورو، وعمارة أبو نهشـان سـتصل إلى ما بعد المريخ، وحذاء الشـيخ اللامعة كيف فصلت في أرقى الماركات العالمية، وإن تثاءب ابن الشـيخ، كان تثاؤباً معجزاتياً، يشـبه تثاؤب الأنبياء. وإن ركلة ابن الشـيخ جعلت الجن لا يأتون مربطين/ مكتوفين، فحسـب، بل ويخرون راكعين سـاجدين، مرتجفين. أما سـعلة النجل الأكبر للشيخ الفلتاني، أسكتت أبواب المدينة وأخرست العصافير فتحولت إلى ديدان فاحمة.

• والخبر العاجل: أن لكمة حفيد الشـيخ لمدير المدرسـة جعلته أدرد، بل وبفم أعوج، فاجعله عبرة لمن يعتبر، وظلت الحادثة أسـيرة أفواه الناس لعشـرين سنة، تتحدث عن بطولة ساحرة لابن الشيخ الـذي لـم يكتف بالمدير، بل وخلف ضحايا من المدرسـين وحراس المدرسـة والفراشـين، ثم اشـتغلت

الأفواه والمخيلة الشعبية حولت أفعاله إلى بطولة من أساطير: "كيف يستطيع ابن القبيلي ابن شيخ المشايخ أن يجعل مدراء ومديرات المدارس، والأساتذة والأستاذات إلى كائنات درداء خلال خمس ثوان فقط".

• والبث المباشر: أن حفيد الشيخ لا يتساوى مع بقية الطلاب الملقطين، فكيف اقتحمت عساكر حفيد الشيخ المدرسة فأذابت ركب المدير وطاقمها التدريسي المرتجف، وكيف أن ركلته أخمدت الطباشير، والسبورة، ومداد الكتاب، وأسطورة أخرى إذا ما اشتكى حفيد الشيخ تتسارع جدران المدرسة، بمقاصفها، بدرجاتها وسلالمها، بالساحة بالعلم الوطني، والمارش العسكري، بطواقم المدرسة، وتقول: "لا عليك" سعليك "يابن تاج رأسنا"! فتتحول المدرسة إلى طوارئ، فمن زعله نقطع رأسه! ومن ابتسم ندبس فمه، ومن سبقه في الضحك نكتمه، ومن سبقه في الجري، نبتر أرجله، ومن فاز في الامتحان قبله نرسبه، والنتيجة، ابن الشيخ الراكل: الأول بامتياز مع مرتبة الشرف العلمي والأخلاقي الديني والدنيوي.

• أن تكون قبيلياً: أن تجعل ركاب المواصلات العامة، وجموع المواطنين الجياع، بل وحتى المسؤولين الكبار فاتحين أيديهم وأفواههم ب: الله يحفظكم يا شيخ: اعط لنا كيس قمح، أو، والله الشيخ الفلتاني أعطانا علبة سمن، والله تبرع بزيت جلجل علاج للسعال الديكي، والله كسانا بثوب، منحنا بطانية وبجانبها علامة القبيلة "جنبية" الفقراء.

• أن تكون قبيلياً: أن تجنزر البلاد بمعتقلات وسجون تحت الأرض وفوق الأرض تسجن الرعية الرافضين تبويس الأقدام في زحمة سد البطن المحشوة بالديدان.

• أن تكون قبيلياً: أن تجند أساتذة العلوم في الجامعات الرسمية والأهلية، بأن تجعل التاريخ والجغرافيا والوطنية طبولاً لمولدكم، وأعراسكم، وختانكم، وتعازيكم، فإن سليتم سلينا "وعلى عيوننا"، وبطوننا تقرقر جوعاً، وإن حزنتم سارعنا بسكب دموعنا قبلكم، وإن تجشأتم فزينا من نومنا نقول: أشبع جوعكم، وستر عريكم، وجملكم بالصحة والعافية الشافية، آآآآمين.

• أن تكون قبيلياً: أن نجعل الفيد هو ملكك، وأكثر من القُبل، والسلاح، والقات، والشرشف، والنقاب، والمساجد، حتى لا تستقيم دولة، جرمل البلاد بالألغام حتى لا يستقيم عودها أبداً.

• أن تكون قبيلياً عسراً: أن تكون مائدتك الواحدة كافية لإطعام سكان مدينة الحديدة الجياع، وأن يكون مسجدك كافياً لإسكان مليون نسمة، يتوسدون الشوارع والطرقات والأزقة، وأن يكون مسبح قصرك كافياً لإرواء مليون نسمة من العطشى في تعز والعاصمة.

• وأن تكون مزرعة قاتك أو مزرعة المانجو كافية لإشباع جياع ذمار، وعدن، وشبوه والضالع.

• وأن تكون مسبحتك، ليست مسبحة الأمان ولكن مسبحة لترهيب أي زنديق "لا يبسمل باسم الشيخ".

• وأن تكون جنبيتك كافية لبناء عشرات المدارس والجامعات، وشق الطرقات وتوسعتها بدلاً عن أن تصبح طرق موت.

• أن تكون قبلياً: أن تكون فوق القانون، بل وأن تفصل عليك قوانين خاصة بك، ولا عليك إن أردت أن تمسح القانون ليرتفع قانونك وحدك، ألا وهو العرف المجرمل بالأثوار، والأصفاد والرصاص، والبقع، وآبار المياه، وووووووووو فلا قانون غير قانون "كل شيء لك"

• ولك

• ولك

• ولك

• في يوم الديمقراطية ٢٧ أبريل في اليمن، لم يبق لنا جموع الشعب إلا أن نكون أقلية، أن نخلع نعالنا إذا ما دخلنا صنعاء أو ذمار أو قاع جهران أو عمران وحاشد، ولو لبسنا جنبية فيجب أن تكون في الخلف، وإذا مشى القبيلي فيجب أن ننزل من على الحمار، أو السيارة، وإذا كنا راجلين لا مانع من أن نبتر أرجلنا ليمر موكب القبيلي العسر، ثم لا ننسى أن ندفع الجزية لأقرب بيت مال القبيلة "مجلس النواب"، (هذه تقاليد كان يقوم بها قبل عقود من الزمن المواطنون إذا مر رجل من السادة)، فقبيله يعرفك، حشدنه يعرفك، قحطنه يعرفك، هذه هي أم المعارف في الألفية الثالثة وفي يوم ديمقراطيتنا في اليمن "السعيد".

• مع الاعتذار الشديد لكل القبائل الفلاحين والبسطاء الذين أعرفهم وعشت معهم، وكانوا خير جيرة، والذين لا أعرفهم أيضاً.

- الجرمل: من البنادق القديمة القوية، رمز للرجولة والشرف والفحولة، فتجدها الآن ديكوراً للقصور، والبيوت في المفارج والمقايل.
- البقع: الأراضي والأطيان، فالتركة الثقافية للقبيلة اكتناز الأرض، فقد استبيحت الأراضي في كل مدن اليمن وخصوصاً الجنوب.
- المسرولون: السروال: البنطلون، والذهنية القبيلية تنتقص من الرجال الذين يلبسون السراويل ويشبهونهم بالنساء.

* عنوان المقالة مستوحى من عنوان الكاتبة اللبنانية المعروفة منى فياض "معنى أن تكون شيعياً".

● «النداء»، العدد ١٥٠، الاثنين ٧ مايو ٢٠٠٨

بـــيـــــروت.. وجُـلـيـــد أبـــو حـمـار

أروى عـثـمـــــان

بيروت.. وجليد أبو حمار

"في كل مرة يتحدثون معي فيها عن الإله.. أشعر وكأنهم يريدون محفظتي أو حياتي".

بـرودون

(١)

نقـرأ في العديـد من حكايات الشـعوب كيف تواجه المـرأة/ المدينة/ الحمامة/ الشـجرة المصير الأسـود عقاباً علـى التمـرد والخيانـة لتقاليـد التابوهات والثوابـت النصيـة، ولا يكون إلا الموت، وليس أي مـوت، انـه الموت الضـارع بدقة متناهيـة. فعلى مسـتوى المرأة يصوب رب هذا التابو سهمه أو رصاصته إلى أهم الأعضاء التي تميز الإنسان عـن باقـي الكائنـات، ألا وهـو الـرأس/ العقـل المحرض على التمرد والاختلاف.

حكاية شـعبية يمنية اسـمها "جُليد أبو حمار" وتعني الرجل المتخفي في جلد حمار مسلوخ، مضمون الحكاية:

أجمع المنجمون أن أخت "جُليد أبو حمار" سـتكون السـبب في موته، فقرر الأب فور مولدهـا أن يقـوم بوأدها، وأوكل هذه المهمة لأخيها، لكن الأخ رقَّ قلبه وحررها من الموت، وهاجرا معاً إلى الوادي البعيد. فكان الأخ يخرج صباحاً وبكامل عتاده من "النمرين، والخيل، والسلاح" ولا يعود إلا متأخـراً، وسـط تحذيراتـه لأخته بـ: ألاَّ تخرج، ألاّ تغتسـل، ألا تفتح الباب لأي مخلـوق... و"لاءات"

كثيرة تمحو طبيعتها الإنسانية. ووسط الوحدة والوحشة القاتلة والـ"لاءات" المكبلة للأخت روحاً وجسداً، تمردت على الوادي الضاج بالذكورة والفحولة الطاغية وترسانة الأوامر التي لا تتلاءم مع غريزة الحياة.

هربت الأخت لتتزوج بسلطان المدينة، الذي حررها عبر العجوز الساحرة. واعتبر الأخ صانع الأستار والوحشة والكواسر والـ"لاءات"، أن ما فعلته أخته خيانة كبرى، لا تمحى إلا بالدم، فكيف أنقذها من الوأد فترد جميله بالغدر به؟! فقرر أن يثأر لنفسه ولمنظومته ذات المخالب والحوافر، حيث تسلح بكل معدات نصيات الذكورة والتابوهات، شحذ التاريخ والموروث واعتصرها رحيقاً حقوداً للانتقام، وتوجه بعدته القتالية من: النمرين والسلاح والخيل، وهتاف الانتقام الغاضب الماحق الذي كان يطلقه على كواسره فتنطلق بسرعة البرق: "قلبي، فؤادي، حصان ابن هادي، دقوا الوادي" ليقتحم المدينة، ويقتل أخته، لكن حراس المدينة وقفوا له بالمرصاد عبر قتال دار بينهم فردوه على أعقابه.

لم يعترف "جُليد" بالهزيمة، فتخفى في جلد حمار، فراوغ وتلون وخطط ونفذ للوصول إلى هدفه. ولأن المدن مفتوحة على كل الأطياف، فقد اخترقها ووصل إلى هدفه، فدخل متخفياً إلى المدينة ووصل إلى قلب ساحة الاحتفالات، وبحركات بهلوانية نالت الإعجاب، طلب من السلطان أن يستأذنه بصيد الحمامة من بين الحمائم (وكان المقصود بالحمامة أخته التي كانت تشاهد الحفل) وافقه السلطان، فصوب "جُليد" سهمه نحو رأس أخته/ الحمامة فأرداها قتيلة. قتل أخته/ الحمامة كان اغتيالا للمدينة، اغتيالا للفرح الذي تشهده المدينة في احتفالاتها.

مرة أخرى: لماذا الرأس؟ ولماذا الحمامة؟

(٢)

وأنا أشاهد مسلسل التوحش القادم من أودية الهلاك والخلاء الناطق بالموت والكواسر، للحمامة، للمرأة، "بيروت"، ربطتُ بين الحكاية وما يحدث في لبنان.

بيروت/ الحمامة، مدينة الحرية، والكتاب، والفن، المدينة التي علمت الحواضر العربية أبجديات الحب والتمرد، والمحبة والجمال، إنها وطن فيروز، وجبران، وبشارة الخوري، ومي زيادة... صوّب "جُليد أبو حمار" ومليشياته من الكواسر سهامه نحو رأسها/ عقلها، وبذا سجل أول استباحة لعقل بيروت بتدمير وحرق الكتاب والصحافة والمؤسسات التربوية، والطرقات، والشرفات، وأكاليل الغار، والميجنا، والعتابا.

عندما قالت بيروت: لا، في وجه جُليد الذي أنقذها من "الوأد" ذات مرة، مبتزاً إياها في كل لحظة لأن تدفع ضريبة ذلك الإنقاذ بموت آخر أشد وأداً وتوحشاً، فترتهن لقبضته الفكرية الخامينائية القاتلة.

تدرك بيروت أن كليهما موت أشد وحشية من الآخر.

لذا قالت: لا.

وتدرك أيضاً، أن الطريقين مختلفان ولن يلتقيا أبداً، بيروت، إما أن تكون مع الحياة، فتحيا، ولأنها كذلك لا تتقن غير فن الحياة، ووشوشات المؤانسة والاختلاف، والإيقاعات النابضة بصخب الحياة والخصب، بيروت التي لا تتوقف عن الغناء والرقص والحكي في المجالس والطرقات والأحراش والشرفات والمقاهي، من يكن كذلك فإنه يرفض الطريق الثاني، ويقول: لا للموت والعدم والتشيؤ، وجليد أبو حمار ومليشياته لا يعرفون سوى منطق وثوابت الخلاء، والأودية الموحشة.

من يقول "لا" لجليد أبو حمار، فقد اختار موته بالسكتة العقلية.

من لا يرتهن لكواسره، وهتاف "القبضايات والزعران" الجاثمة على صدور وأنفاس الطرقات والحمائم والزهور والندى، والجريدة وديوان القصيدة، و"بكتب اسمك يا حبيبي ع الحور العتيق" فقد حقت عليه الاستباحة بكل أنواعها وألوانها، وأولها الاستباحة الإلهية.

جُليد أبو حمار المتلون والمراوغ، المتخفي بجلد حمار ميت وأعرج، لا يعرف سوى فرض نصيته المخلبية الواحدة التي لا تقهر: لون واحد، والقبضة الواحدة، والصرخة الوحشية الآتية من بطون الكهوف، التي لا تجيد دق المهابيش، بل دق الأرض والبشر، هذا اللون تلفظه المدن، وتلفظه بيروت، حتى لو أُدميت.

(٣)

قبل أسابيع.. صديقتي الحامية جداً كزيت ساخن، أهدتني وزملائي ميداليات تحمل صورة الصنم -الإله نصر الله، ووعدتنا أيضاً بـ"تيشرتات" ستأتي من الصين قريباً مرسوم عليها صورة وقبضة نصر الله، مع بندقية الكلاشينكوف.

اعتذرتُ عن أخذ الميدالية وهي توزعها وسط المنتشين والمهللين والمكبرين من أساتذة، وباحثين، وشعراء، ومحامين، وفنانين، قائلة: الله في الأرض، ونصر الله في السماء، وأنها مستعدة لتقبيل أقدامه المقدسة، فهو أول من ضرب إسرائيل الصهيونية في معقلها.

باعتذاري، حشرتني صديقتي بغضب في خانة: أني خائنة، وعميلة موساد، وسي آي أيه، وكي جي بي، وكي جي تو، ودي دي تي، وقا قي قو... إلخ من الحروف العربية والسنسكريتية، وكل اللغات الحية والميتة. قلت لها: مش ناقصين منطق الموت الإلهي يكفينا خيباتنا المتلاحقة فبلداننا مكتظة حد الاختناق بنماذج جُليد أبو حمار وكواسره بمخالب ظاهرة وباطنة.

(٤)

في بلادي من يتجرأ ويتلفظ بأنه لا يقف مع الأنموذجات لجُليد أبو حمار ابتداءً من صدام حسين، حسن نصر الله، وناجي فتح الله، وصالح دك الباب، ونعمان دق الأرض، وناصر يا كايدهم، فقد كفر ودخل في ما ورائيات الشرك الأكبر الذي لا يغتفر.

في بلادي تدرك القلة القليلة، أن من يعشق فيروز لا يمكن أن يرتهن لثقافة الأكفان والالتحاف بالعباءة السوداء، حتى لو كانت إلهية يفصّلها الخامنائيون القدماء والجدد، ففيروز لا تجتمع مع الأحادية، ولا تتواجد في حضرة الكواسر، ولا تنضوي تحت الإلهيات الكاتمة للشرفات.

انتفاضة العروق المتحدة مع الخراب لا يعيش فيه سوى جليد أبو حمار بكواسره من المليشيات، فهو من صنعها، ليستبح بيروت: الأنثى، والكتاب، والحكاية.

(٥)

إنهم لا يستشرسون إلا في حاضرة المدينة -الأنثى -الروح بيروت التي لا تحتفي بجُليد أبو حمار وأعوانه الكواسر.

جُليد أبو حمار، وإخوته الطغاة، يريدون ثمن طرد المحتل والانتصار لأن يختطفوا المدينة والدولة، بشجرها وحجرها وسمائها، وبحرها، بل وأن تكتسي بيروت ثوب الحشمة والعفة، والنوم بكير، أن تتلفع بالنقاب الأصولي. تصوروا بيروت مشرشفة، معلقة بأصفاد الأستار والحجب، بلا صوت سوى الندب وأناشيد الجهاد، بيروت معصوبة العينين مشنوقة إلى بنادق ودبابات جُليد أبو حمار وعصابته، بيروت وقد تلفعت بواحدية الدين والطائفة، وفكر الواحد الكل، والكل هو الواحد: "جُليد".

فلمن كل هذا الدمار؟

ولماذا يحدث مثل هذا؟

ولماذا بيروت اليوم، وغداً مدينة أخرى؟

لماذا فكرنا العربي (أبو حمار) وعلى مدى عصور طويلة من الزمن لا يتقبل فكرة المدينة وإن تقبلها يريدها نموذجاً مصغراً من قبيلته وعشيرته، وإن كبرت تكون كوادي جُليد أبو حمار المقفر لا تتسع إلا له، ولوحوشه فقط؟

لماذا تغتال مدننا، مدينة تلو الأخرى؟

ولماذا لا يُلجم هذا الجُليد المستبيح لكل شيء يخالفه؟

(٦)

أعتقد أن الصراع ليس صراعا بين شيعة وسنة، وطائفة وأخرى، مسلم ومسيحي... الخ، كما تروجه وسائل الإعلام والكتبة.

الصراع هو بين آلتين متناقضتين آلة الحياة وآلة الدمار والموت.

فإما أن ننتصر للحياة، وإما أن نتوحد مع الموت.

ولا مكان لأن تعيش مدننا، ومدينة بيروت –المرأة والأنوثة، والبحر والكتاب، واللون والبحر، الحب والتمرد، العشق في أجمل تجلياته، تعايش الهلال والصليب، والرموز والمعتقدات الأخرى، في حضرة الآلة الكانسة للحياة، فالمدينة لا تستقيم إلا بهذا التنوع والتعدد، وهكذا هي بيروت.

ثقافة جليد أبو حمار أو بالأحرى أيديولوجيته لا تعرف مثل هذه الأشياء والمسميات، لأنها لا تجيد سوى أناشيد هدير النمور، واصطكاكها بقاع وسماء المدينة، وتجيد بتفنن أكثر تحويل أهل بيروت ولبنان إلى نمور من أول يوم، وليس من يومها العاشر، مخالفاً بذلك ما يحدث في قصة الكاتب الكبير زكريا تامر "النمور في يومها العاشر".

وإلا كيف تشوفووووا؟؟

● «النداء»، العدد ١٥١، الأربعاء ١٤ مايو ٢٠٠٨

وطن ما يرد حيا - ميتا
أسماؤنا بين الصراع السياسي والديني
مـــحـــــرقـــــة الأســـــمـــــاء

أروى عـثـمـــــان

وطن ما يرد حيا - ميتا
أسماؤنا بين الصراع السياسي والديني
محرقة الأسماء
5
حكايا
مأرب تكرم عارف الزوكا بـ20 شهادة وتودعه بـ6 صواين

-١-

لسنا مجانبين للحقيقة، إذا ما قلنا إننا جيل ما بعد الثورة، ١٩٦٢، كنا ومازلنا حقول تجارب لأحدث نظريات السلطات المتقادمة والمتعاقبة، أيا كانت: ثورجية سياسية، أو ثورجية دينية، أو حتى ثورجية فجلية (نسبة إلى الفجل). وأظن في عالم الديكتاتوريات العربية الشمولية للعسكر لم تخرج تجاربنا الحياتية عن هذين الفكين المتوحشين.

فإن كان والدنا قومجيا، يخلف أطفالاً محارق للقومية، وإن كان سلفياً إخوانياً خلف غزوات كبيرة وصغيرة ومن مختلف الأحجام تتمترس بالكهوف والغبار والمنجنيق، أجنة من مهالك خيبر، وخنادق للجهاد ضد كل شيء يتحرك.

وإن كان ماركسياً واشتراكياً يتقلب نسله بين ثورة حمراء، وشريم ومنجل، وكل مطارق تفلق الرؤوس، وتكرمل (نسبة للكرملين) الأجنة بالشغيلة الكادحة، ثم الفكر والهدف والنَفس الواحد...

-٢-

سأضرب مثالاً لأسمائنا كيف "لعصت" هذه التجارب أرواحنا. سأحكي عن حارتي الصغيرة، "سوق

الصميل"، كيف انفتحت أسماؤنا وأسماء مجايلينا من الذكور والإناث، وأسماء الشوارع والمدارس، والمحلات والمستشفيات والطرقات، المقاهي والمخابز، وغيرها من أسماء المشاريع العملاقة الكبرى.

دخلتُ "المعلامات" (الكتاتيب) وأسماء أقراني: ثورة، جماهير، أروى، بلقيس، يمن، كفاح، جهاد، حرية، سيناء، سوريا، فلسطين، ناصر، عامر، جمال، وحدة، حتى ليبيا لم يتركوا لها حالها...

في المدرسة كانت منظومة الأسماء مفتوحة للمزيد من "لعص" المرحلة، واستدعاء أبطال التاريخ من بطون الحروب والصهيل والغبار، والسيوف، سهيل، ذو يزن، سيف، بركان، قاهر، كانت هذه أسماء المرحلة السبعينية من القرن العشرين.

من مشروع الأحلام الكبيرة: حرية، وحدة، قومية اشتراكية، وطرد المستعمر والمحتل، دقت نواقيس الثورات، وأهرقت الحرية الحمراء، والصفراء والزرقاء، وكل ألوانها تحتنا لنتعلم بمعلمين أشباه أميين، بلا طباشير وسبورة مهدمة، طلاب وطالبات يعانون الأنيميا الحادة من سوء التغذية، يطلق عليها بكل افتخار: مدرسة الثورة، مدرسة الحرية، النور، الوطن، الوحدة، بلقيس، أروى، عبدالناصر، مدرسة الشعب.

-٣-

تعرضت بلادنا لحرب السبعين يوماً، وحوصرت صنعاء، ودارت معارك طاحنة بين الملكيين دعاة التخلف والإمامة، والثوار دعاة الحرية والتطور، ماكينة "اللعص" نفسها، خرجت أسماؤنا من قلب الدبابة، والدخان والرصاص: مدرسة صنعاء، مدرسة السبعين، ومستشفى وشارع السبعين، وبأسماء بعض الشهداء الذين ترضى عنهم السلطة.

-٤-

طُرد محتلو الداخل (الإماميون الرجعيون) والحمد لله على السلامة أنجبنا ستة أهداف سمان مرتاحة، لكن كانوا من المخفيين (أعوذ بالله من الشيطان) بعدها زاد أنجبت ثلاثية الثورة (ظاهرة ما شاء الله) وهم القضاء على: الفقر، الجهل، والمرض، وواحدية الثورة: التي خلفت بسلامتها (وعمى بعين كل حاسد) الوحدة مع أحفادها (يمن واحد، وعلم واحد، وأرجل واحدة، ورؤوس واحدة، ونخر واحدة، وآذان، ومعدة وكلاوي واحدة -بسم الله ما شاء الله!).

فمشطت الوحدة على أسماء المواليد الجدد وكل تفاصيل حياتنا وأنتجت بجانب الثلاثيات والواحديات: السعال الديكي، والسعال الدجاجي، حتى السعال الكتكوتي، كلهم توسدوا على عرق الوحدة، حتى "بسقوه" (قطعوه).

-٥-

قبل الوحدة ١٩٩٠ كانت الوطنيات العملاقة (عملقة كل شيء) مع الاعتذار للكاتبة الرائعة آمال

قرامي، كانت الاشتراكية متجلية بمطلقاتها، فكانت "عدن" الحاضنة "للعص" الشيوعي، فظهرت الأسماء: مكسيم، ولينين، وروزا، وأنجيلا، وألكسندر، وأميل، ونتاشا، وجيفارا. ومن الطرافة أن المواطن القبيلي/ الرعوي المُحزم بالماركسية اللينينية كان يسمي ابنه اسماً شيوعياً، فلا يستطيع الوالدان والإخوة والعائلة نطقه، حتى الجن لم يتمكنوا من لفظه، فكنت ترى أسماء مثل: أنجيلا مُكرد، أو مكسيم عبده قائد، أو تشيخوف دُهيس، نتاشا عبدالقيوم، وألكسندر باهارش، وجيفارا مُدهش.

حضرت الأسماء الراديكالية الوطنية، وتردكلنا، وكان كل مواطن مردكل من عنقه، ضاع الوطن، الحلم، فكانت أرياف الجنوب الخارجة عن الحياة، لا تعرف شربة الماء، ويموت أطفالها بكل أنواع الأمراض فقر الدم، وفقر البطن. أما الذبح الأممي الذي تجلت شيوعيته وأمميته في ١٣ يناير ١٩٨٦ فكنست الأخضر واليابس.

-٦-

من ثوراتنا واشتراكيتنا وأمجادنا القومية وماركسيتنا العملاقة، وطعناتها المتلاحقة، وأكثرها إدماءً طعنات الانتكاسات، الخيبات... كل ذلك كان تربة ذهبية لنهوض المشروع الديني/ الديناميت الديني، الذي كان يشتعل تحت الرماد ليكتسح ويجُبّ ما قبله وما بعده من: ضلالة القومية، وجهالة الاشتراكية، فبدأت كاسحات الأسماء في حارتي نفسها اللهم إلا تغيرت من "المعلامة" إلى مدرسة لتحفيظ القرآن، ومستشفى الحرية إلى العلاج بالحجامة وقراءة القرآن، ثم سرولتنا بسراويل العفة والتقوى من الجلباب الأسود والقفصنة الدينية، بعد أن كنا سافرات، ونلعب نحن ومجايلونا من الذكور، وندرس في مدارس مختلطة (وكنا مسرولات في تلك الحقبة).

فبسرعة سعار السباق لتنفيذ تعاليم "الجبِ ما قبله" تحولت أسماؤنا إلى: مصعب، وجندب، وبلال، وآية، ومحمد، هذان الاسمان الأخيران، أحياناً يكون في العائلة أو الأسرة، خمسة أسماء، كل أخ يكون أسرة يستفتح أسماء أبنائه بهما، ويختتمه بها، فتدخل على العائلة ويكون اسم "آية" رقم ١٩ أو "محمد" رقم ٦٥، ثم عائشة، وعلقمة، ومروة، نمارق، أبرار، حفصة، جندبة، مصعبة. والشوارع: علي بن أبي طالب، وعمار بن ياسر... الخ.

والأشد طرافة، نجد بعض اليساريين أولئك الذين لم يكونوا يستطيعون أن يتلفظوا بأسماء أبنائهم "المردكلة" يتسابقون إلى تسمية أبنائهم بالجندبة، والمصعبة، وأبي الحارث، وأم البوارق... فترى في الأسرة الواحدة مكسيم عبده قائد، وجندب عبده قائد، بل ويحس بالعار والخجل ويتمنى لو تنمحي أسماء الحقبة الجاهلية الأولى (راديكالية الماركسية اللينينية) فتجده يزاحم الأرصفة والطرقات لصلاة الجمعة مع الجموع، وإذا كان أصدقاؤه الجدد (الجُبيون لما قبل وما بعد) عندهم زبيبة الإيمان والورع في جبهته، فهو يمتلك عشرين زبيبة تزاحم جبهته التي لم تختفِ بعد ندوب العنف الثوري والكفاح المسلح.

ومن على منطاد المقاومات الجهادية أتى "لعيص": أحد أحد، والعلاج بجناحي الذبابة إذا سقطت

على الثريد، وعلاج الكي، العسل والحبة السوداء، ورجل العفريت، وظفر أم الصبيان، وطحال و"بعصوص" هاروت وماروت.

واجتثت الأسماء الوطنية لمدارسنا بمدارس: نسيبة، عائشة، أم سلمة، فاطمة، خديجة، مصعب، علي بن أبي طالب، عمر بن الخطاب، عثمان بن عفان... الخ.

وعلماؤنا والثوار الذين كانوا يتباهون بلبس البدلة والكرافت، والآن علماؤنا يعتمرون العمائم، واللحى، ليس ذلك فحسب، بل ويكتشفون علاج الإيدز وجملة الأمراض المستعصية.

-٧-

ما بين فكي الوطنية والدينية، وكلها تنبع من مصب واحد لا ثالث لهما ثقافة "الجبجبة/ الجب" فكل طرف يجب ما قبله وبعده، لعب طرف ثالث أخذ الدنيا والآخرة في اليمن ألا وهو القبيلة، وهي لن تقف مكتوفة الأيدي، وارتد الثورجي، والدينجي إلى مسقط رأسه، وأصله وفصله (قبيلته) وأنتجت: بكيل، حاشد، مذحج، كهلان، صبران، أم الصبيان، وهي الآن في قمة مجدها العصبوي، يغذيها ويقويها علماء التداوي برجل العفريت، ومن عطس فشمت به.

-٨-

ماذا تبقى لنا نحن جيل ما بعد الثورة وجمهورية "من قرح يقرح"؟! نبكي على ضياع "صعبة" الجمهورية؟ أم نبكي على ظهور واستحداث صُعب وحمير وبغال ونوق الفالجة لحياتنا مخلقة القريح الوطني والديني والقبائلي؟ إنه الوطن الذي ما يرد حيا، ولا حتى ميتا؛ وطن خزيمة، يبترع عليه حاصدو الأحلام في ظل راية ثورتي، ويا بلادي نحن أقسمنا اليمينا، وسحقاً لأصحاب السعير.

خرجنا نحن جيل "الملاكد" ما بين ضربة رمح من قومية، وضربة سيف إسلامية، ودعسة حصان قبلية. علمنا وتكنولوجيتنا (لا ندري) وخلفنا أطفالاً "لا أدريين".

ضب وتضبب كل شيء من حولنا، فمن لم يمت بالسكتة الوطنية يمت بالسكتة الدينية، وإذا هرب تلاحقه الجلطة القبلية. كثروا العلماء، والجامعات والكليات، لكن مازلنا نقرأ "ألف لا شيء له" والباء لا ندري حتى اللحظة إن كانت لها نقطة من تحت، أم أن ورما في بطنه اسمه نقطة. لا ندري، لا ندري، وكلما اتسعت رقعة لا ندري، فقد أفتينا.

ما نعرفه أن: مكسيم توفي لأن الطبيب ضرب له إبرة مخالفة، وأن بلقيس شلت بسبب علاج خاطئ، وناصر مجنون في أزقة الحارات، ومجاهد مدمن لأنه عاطل عن العمل، وجندب ماتت أمه كمداً، فلم يحضر بعد جثمانه من الفلوجة، ومدرسة الحرية تنهار على التلاميذ، ومستشفى الثورة بلا حبة أسبرين، وطريق المجد، والوحدة طريق الموت المجاني، فقد كان الشق خلال ٢٤ ساعة لأن عيد الجلاء، والثورة على الأبواب.

صباح الخير.. يا أبي!

أبتئس عندما أرى أبي ومجايليه، أولئك الذين كانوا يسارعون بشراء ملابس لنا في أعياد الثورة من كل عام، كنا نزهو في حلات مزركشة، و"توّك" بشكل الورد والأوراق، ويغنون لنا: "يا بابا! يا ماما! دعوني أروى بنت الجمهورية".

سقطت شجرة الكافور التي كانت تظللهم بجانب دكاكينهم ليس لكبرها، بل لأن جفاف الماء في تعز سارع من موتها.

في الفجر يسقطون عرعراتهم وسخطهم على كل حلم، وكلما اشتدت أمراض الشيخوخة يكفرون بكل شيء إلا من سجادة صلاة، وتكبيرة الأذان، لكنهم لا يحملون زبيب التقوى في جبهاتهم.

أروى بلا أروى:

أروى بنت الحلم العملاق، لبنت الهزيمة والانتكاسة الأكثر عملقة، هي الآن تجب مخرجات الشوارع من شدة استطالتها لجلبابها الأسود الثقيل الذي تتحمله، تتعثر بالدنيا. تتسقط الآخرة في كل ثانية، وتنشد "يا بابا! يا ماما! دعوني خزيمة بنت الجمهورية".

فكيف تشوفووووووا؟!!

● «النداء»، العدد ١٥٣، الأربعاء ٢٨ مايو ٢٠٠٨

المـــوت الـــقـــادم مـــن الـفـضـيـلـة

أروى عـثـمـــــان

الموت القادم من الفضيلة

13 الحرية للخيواني والوطن.. والكرامة لهؤلاء جميعا

الحوثيون ونظمتان أبو احمد اليمني

"أيها الناس، إنا أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا".

زياد ابن أبيه

في سبعينيات القرن العشرين خرجت جماعة لا ندري ما كنهها، ترصدت الشباب الذين كانوا يطيلون شعرهم، ويعلقون السلاسل، ويلبسون الشارلستون (على ما أظن شكل الهبيز)، هذا ما حدث في مدينتي الحالمة (تعز).

وكانت فرقعات تلك الجماعات تتصدر أخبار حيّنا كل يوم. وكنا كلما سمعنا جلبتهم وضجيجهم في الشارع سارعنا، نحن الصغار قبل الكبار، لنستقصي ما الحدث. ولأننا صغار لم نستوعب ما يحدث. ما عرفته آنذاك، هو ما حدث لجارنا الآتي من أمريكا: لقد أمسكت به تلك الجماعة بصحبة بعض أصدقائه، لينتفض "سوق الصميل" عن بكرة أبيه، كلٌّ يشاهد المشهد السينمائي الفانتازي، أو يشاهد مسرحية ساخنة من العيار الثقيل. لقد جرجرتهم تلك الجماعات مثل الغنم، حتى "الدائرة" (مقر الشرطة) في نهاية سوق الصميل، ضربوهم، ومزقوا بناطيلهم، وقصوا شعورهم "صلعة"، أو بشكل مشوه. ومما كنت أسمعه، هتافات:

هذا الموس

احلق شعرك يا خنفوس

وهتافات أخرى لم أعد أتذكرها.

كان شكل جارنا يرثى له. ومما سمعته: "يستاهلوا! الخنافيس، يخربوا أخلاق العيال، ويتشبهوا بالنصارى"، وألفاظ بذيئة أطلقت عليهم (...).

بجانب أخبار جارنا، كنا نسمع أخبارا متصاعدة عن عدد الفتيات اللواتي قبض عليهن وهن ينزوين مع أحبائهن في مكان بعيد، في "صالة" و"الحوبان" و"الشماسي"، و"الكامب". سمعنا عن العديد من المُحبات والعاشقات، كيف "شلحتهن" جماعات "الفضيلة والشرف" أساورهن وقلائدهن الذهبية، وعن مجموعة منهن لا تملك شيئاً غير العشق اقتدن إلى السجن المركزي.

قد تكون تلك الحوادث صحيحة، أو كاذبة، لكن أخبارها كانت تصلنا أولا فأول، إلى مدارسنا، وبيوتنا، وتجعل آباءنا وأمهاتنا ينتفضون علينا، ويتحولون إلى متلصصين وأحياناً جلادين، يختتمون كل حميتهم بـ"الله يلعن من يدرس بناته".

أتذكر، حالات البؤس التي كانت تعلم الناس في تلك الأيام. فقد كانت تقدم لنا مساعدات غذائية للمدارس من قبل جمعيات أو منظمات دولية، من: أجبان، روتي، لحوم معلبة... الخ. بمعنى أن هناك ظروفا اقتصادية متردية، وربما كانت هناك قلاقل واستنزاف بيننا، كشمال وجنوب، وصراع سياسي داخلي في الشمال، كما عرفت بعد ذلك. بمعنى أن البلد كان يعيش اضطرابات سياسية، واقتصاداً متدهوراً.

في مثل تلك الظروف، وظروف العتمة والتدهور الاقتصادي والسياسي والاجتماعي الذي نعيشه وتعيشه بلادنا الآن، تظهر مثل تلك الجماعات، أكانت جماعة من مليشيات العسكر والأمن الوطني التي اقتادت جارنا الحالم، وحكمت على شابات بالموت معنوياً، وربما جسدياً، لأنهن استرقن رعشة حب بعيداً عن الأعين المتلصصة؛ أم كانت جماعات من الميليشيات الدينية، التي ظهرت الآن، أم تلك الجماعات الرابضة في كتب التاريخ في أي مكان وزمان.

هي جماعات، لا تنبت كما الفطر، لنقول بسذاجة: من أين انشقت وأتت؟ فهي جماعات أُعدت في "مصانع الرجال"/ السلطة، جُندت، وغُذيت، وغُرزت، وحفظت الدرس تماماً، لتبدأ شغلها "الشريف" و"الفضيل" و"الأخلاقي" جداً: البطش والفتك بأي نهدة تشق الضلوع، فتهمس بـ: الجوع كافر، الفقر قاتل، اللا أمان وحش مجنون.

لا يمكن أن نقارن ما حدث بالأمس في مدينتي (تعز)، وأن المسألة مسألة خنفسة وخلافه، وبين ما يحدث اليوم من تفشي المنكرات والدعارة، وتجسده المرأة.

الفكرة التي نخلص إليها، أن الأنظمة الاستبدادية، عندما تختنق و"تتحكلل" تستنجد بمن ربتهم وسمّنتهم، إنهم "الريح الأحمر" أو "رياح الفالج"، هذا المرض الذي قتل ويقتل الكثير من اليمنيين بحجة حماية الأخلاق، والتصدي للرذيلة، والدفاع عن الوهم، ومقاومة الشيطان، وحراسة الباب

المغلق، والتفتيش تحت المخدات، و"تنجيث" القلوب والضمائر والنفوس للبحث عن خنفسة الرذيلة، ودودة المنكر. إنهم الوجوه نفسها، وغلظة القلب، وقسوة الفؤاد، الباطشون بخفقة الحب، المعادون للغناء والفن، والرقص والثقافة، والمسرح والسينما، والضحك، والحديقة، و"غاب القمر والا عاده". الآلة الجهنمية على مدى عهود التاريخ العربي والإسلامي المأزوم، الذي يلجأ إلى مصانع رجال "الفضيلة"، و"التصدي للمنكرات" في كل "زنقة".

مُبيد الفضيلة، هو نفسه مبيد القات، المبيد الحشري للقوارض والحشرات، مبيد "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، كلها لتطيل أمد الحاكم، والشيخ، والتاجر، والداعية، وكل المستنفعين من دمنا وعرقنا وحياتنا.

مبيد "الفضيلة" سيحولنا إلى خنافس، حتى لو انتهى عهدها سيصنع فزاعات من خنافس جدد، سيخرجونهم من القبر، سيصنع نساء عاهرات، فاجرات، متعريات، سيرسمون مشاهد الفتنة والإغراء، والفنادق، ويخوت البحر، ورقصات المايوه والبكيني، سيخترعون وسيخترعون... لأنهم ببساطة يريدون أن يملسوا وجه الحاكم، لينقضوا عليه، ويحكمون، لنصبح "تورا بورا" اليمن لصاحبها الزنداني وصديقه الذرحاني، وصبيانهم الجني وأم صبياني، هكذا تستقرئ تاريخ "الفضائل" في بلادنا، وهكذا خبرتنا قصص التاريخ في أكثر من بلد.

إنه الموت المتربص بنا، خصوصاً نحن النساء، حتى لا يظهر أي وجه لأية امرأة، أية طفلة، أية زهرة وخضرة، أية جديلة شعر، وأية ضحكة، أي "مشقُر"، أي حناء ونقش، أي مناجاة للقمر، وأية قصيدة تحتفي بالندى وبزغة شعاع الشمس، في المدينة أو الريف، أو أي بقعة في البلاد.

عندما يختفي الخبز، يخصبون "دعاة الفضيلة والشرف"، إنه الموت القادم لنساء اليمن، باعتماد جمهوري لهيئة "الدفاع والتصدي للمنكرات"، أو هيئة "الفضيلة"، أو "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"!!

فكيف تشوف يا علي؟

وكيف تشوف يا مجور؟

وكيف تشوفوا يا مجتمع مدني؟

والمثقفون "المدكئيون"، كيف يشوفوا؟؟

والجمعيات والاتحادات، واللجان والهيئات النسائية، كيف تشوفين؟

● «النداء»، العدد ١٥٥، الأربعاء ١١ يونيو ٢٠٠٨

البلاد التي يخيفها ضحك أبنائها

أروى عثمان

■ إلى سيد الضحك/ الفنان فهد القرني في بحثه عن الله

البلاد التي يخيفها ضحك أبنائها

5

حنايا

لائح الرئيس.. الإنجاز عدن

ماذا تبقى من كرامة؟

"... أخبريهم أني أحبهم وأشتاق إليهم، وأنهم لا يغيبون عن خاطري لحظة. علميهم كيف يتمردون على نفسية العبيد بالإيمان. ازرعي الحرية فيهم واغرسي فيهم حب الوطن، وأخبريهم أين يجدون الله... لتستمر الحكاية".

● فهد القرني في رسالة إلى زوجته – صحيفة "الصحوة".

وأنا أتابع المشهد الغرائبي للزمن الخرافي، للوطن الأكثر خرافة، الأكثر أسطرة مجنونة، الأكثر وخزاً وإيلاماً، الأكثر باقتدار أن يطفئ بلمح البصر كل ما هو باسم وضاحك... هذا المشهد المتعاظم غرائبية لما تعرض له الفنان الساخر فهد القرني، جنحته أو جريمته أنه يَضحك ويُضحك فقط، لا غير، في بلاد تتعشق المآتم والندب، والثارات، والانتقامات، كدورة دموية تسري في شراييننا، ففي كل طريق ضربة، قتلة، لطمة، دكمة، دهفة، زبطة، طعنة... وكلها تحدث "من غير عنا"، أو مقدر ومكتوب، فيهمز حارس الضربات ببندقيته زاعقاً وبسادية: "ما تدري موته مُسجل باللوح المحفوظ، من يوم ما كان الآدمي مضغة"!

هذا البلد، بلدنا، وبلد فهد، وأنس وأويس وأمهما، يغتاظ من انفراج الشفاه وإطلاق نهدة التنفيس.

بلاد تخذل الفرح، وإن بدأ من الكوى والنوافذ الموارية. وطن ينهزم من أول ضحكة، يتكسر من إطلاق نكتة. بلد لا تفتح فيه الأفواه إلا "بالروح بالدم"، أو تتغنى بـ"المعجزات". وطن تخافه دموع الفرح، وتريحه دموع الثكالى، وشهوة الانتقام والقوارح. إنها بلاد لا تتنفس إلا بالدموع والحزن. وطننا سيد البؤس والشقاء بامتياز، نعشقه ولا يعشقنا، ندغدغه بأشجاننا فيخزق بأصابعه عيوننا، نسكب أحرف قصائدنا لهوائه وترابه وذاكرته، ويذيبنا بانصهارات معادن "التقوى"، ويشوينا بجحيمه. إنه لا يحبنا، بل ولا يدري حتى "أين... الكلاب" على حد التعبير الشعبي.

أظنه لو كان (فهد) مسلحاً مثل طواويس، و"طهوش" الوطن، متأبطا ومزينا ومتقفزا بعُدة الدولة من الأسلحة الفتاكة وبوارج حربية، وبوازيك، وطيران... فلن يعتّب باب السجن، بل سيتقلد المناصب طريق طريق، و"عر" لواحد مظلوم يقرب نحوه، فالحراسة المفخخة تشتغل ٢٤ ساعة، ثكنات عسكرية مكوكية، ثكنة مزنجرة في مقيله، وثكنة أخرى بسلالم ودهاليز قصره، وأخرى داخل تنور مطبخه، وثكنات متفرعة بالبوابة، وعند الشذروان والمسبح، وفيالق وكتائب تحرسه في أول الشارع ومنتصفه، وعلى أسطح الجيران، وعشرات الثكنات المفخخة بأحزمة ناسفة تحت وسائده.

هذا الرعب المسترسل الذي أصبح هوية "الوطن"، وهوية "الأمة" والوحدة والديمقراطية. فكيف لا نضحك؟! وكيف لنا إلا أن نسخر، ونسخر...؟!

ولأنـه (فهـد) لا يملك إلا الضحك، فإن مـا يقوم به يعد هتكاً لروح الوطن، والعبث بسـيادته، وأمنه واستقراره، وأخطر مهدد للهويات، وربما يكون عميلاً للعديد من الدول التي تريد الفتك بالوطن!

ستكون النكتة القادمة في وطن المليشيات العاصفة: "واحد ضحك، حبسوه".

البحث عن الله

رسـالة قوية، بل من أقوى الرسـائل التي قرأتها، وتأثرت بها حد البكاء والألم، وهي رسـالة الفنان فهد القرني إلى زوجته. رسالة وجدانية تهز النفوس، يقول إن الله ليس هو ذاك المطلق؛ الله يجده في إطعام المساكين، وإقامة العدل، ودحض الظلم، حيث الانكسار والمعسرين. هناك الله.

فعار على نظام وحكم يدلف بعد أيام إلى عقده الرابع (!) أن تخيفه ضحكة، وتخيفه نكتة ساخرة، لا يملك القرني سواها! عار أن يسجنه ويشرده عن أنس وأويس وزوجة ملتاعة لا تعرف مصير زوجها. كيف سـيكون حال أسـرة تقتات على الضحك، حتى لا تتورم وتنفجر، وقد ذهب عنها سـيد الضحك، معلم الضحك، في كيف يضحك الفقراء والبائسين؟!

إن لغة المؤانسـة، والأُنس لا تتفق مع أجندة ودسـاتير "اليسـك"، يسـك المليشياويات القابضة على الروح، والشفاه ومجرى العيون.

كيف نبدد عتمة هذه البلاد التي فجرتم كبدها؟ أن نبدد كمدنا بالضحك، ولا نملك سواه. قطر حديد المعدمين ٢٢ مليوناً إلا... الملاحقين بالفواجع المباغتة والمباشرة من حكومة لا تجيد إلا الرقع.

حكومتنا! أوقفي سعار الكتمة، واجعلينا -وذلك أضعف الإيمان- نضحك، هو أجدى لك، ولنا.

أوقفي حصار وخنق الضحكات.

أوقفي مسلسل اعتقال فنانيك، ومثقفيك، وكُتّابك؛ فهم الوحيدون الوجه الأجمل لبلاد اسمها اليمن (...) لا أستطيع أن أكتب كما عودتنا كتب المدرسة، وحصص التعبير: اليمن السعيد. فعفواً!

أفرجي عن سيد الضحكات والأعين المشرورغة بدموع الضحك: فهد القرني.

(...)

- "معركتي ليست مع محرمي الموسيقى. معركتي مع من يحرمون الحياة على البسطاء".
- "أعلم الناس عبر مدرسة الضحك معنى الحرية".
- "ليس هناك مجون أكثر من الفساد، ومصادرة حرية الناس".

التوقيع: سيد الضحك

فهد القرني

كيف تشوفووووووووووا؟!

● «النداء»، العدد ١٥٩، الأربعاء ٩ يوليو ٢٠٠٨

الفاحشة.. لا تأتي من البحر يا جني

أروى عثمان

■ إلى نساء البحر: الحداثة.. الفن.. الجمال.. الحياة... في عدن والحديدة.

الفاحشة.. لا تأتي من البحر يا جني

إيهام أخي.. "مجرمي"

كثر في الآونة الأخيرة ترصد المواطنات والمواطنين من أبناء اليمن، في حياتهم، وأمور معيشتهم، خصوصاً في مدن البحر: عدن والحديدة، لتمتد إلى قلب العاصمة صنعاء، وتعز، ومنها إلى المدن الأخرى، بزعم أن "الفاحشة والمنكرات، تأتي من البحر"، والترويج لشرعنة ما تقوم به جماعات "الفضيلة والتصدي للمنكر"، ومسميات أخرى تسندها الحكومة وجهاز أمن الدولة وخلافه ليبدأوا بحملاتهم التفتيشية تحت الأسِرَّة، والوسائد، وقبلها في عقولنا وقلوبنا، ونبضات أوردتنا.

ولا أدري ما هي المعايير التي استندوا إليها في الحكم: "الفاحشة تأتي من البحر"، لماذا، مثلاً، لا تأتي من الصحراء، حتى لو كانت مهبط الديانات السماوية، وموطن الكعبة المشرفة والمدينة المنورة. ثم أي حق يستندون إليه ليبدأوا بحملات التفتيش والتقتيل اليومي الفاضح الذي نسمع دويه في مدن البحر الحديدة، وعدن، وكل المدن الأخرى، بل ووصلت "برخثتهم" المخلبية إلى أقاصي الريف اليمني، وإلى "حر"/ "سَفِلْ" جدتي آمنة، ليحصوا أنفاس "القراش" ونوعية الحشيش الذي تأكله، ونوعية المسقى الذين تشرب منه، وعلى أي جنب تنام، وفي أي حيد تختبئ، ومخارج أصوات ثغائها، وأيهما أكثر عورة: بعاااااع، أم ماااااااااء؟!

التفتيش في سجلات دعاة "الفضيلة"، سجل فاضح بكل ما تعنيه الكلمة، هكذا تحدثت الصحف،

المواقع الإلكترونية.

اليمن أرضاً وإنساناً تصنع اليوم تاريخاً جديداً قديماً: إخفاقات دموية في صعدة وكل اليمن، وحروب طاحنة حتى في المدارس، والوزارات، وأماكن العمل، والمؤسسات، كل البلاد تنتفض جوعاً وعطشاً، وخوفاً من المستقبل "الفضيل" الذي تنتهي إليه اليمن، لتغطي حكومتنا الدمار الحقيقي للبلاد، "بالنحنحة" الهستيرية، بواسطة هذه الجماعات التي لها طرف وضلع في كل ما يحدث في البلاد من انفلات ودمار حقيقي، من المسجد إلى المدرسة، إلى لقمتنا وهوائنا، وغرف نومنا.

أيتها الحكومة وأجهزة الدولة، المبجلون، كلكم، أفراداً وجماعات: لا تلصقوا دمار ما خلفتموه من دمار اقتصادي، سياسي، اجتماعي، ثقافي، نفسي، وتهتك للقيم الإنسانية، بانهيار الأخلاق والإتيان بالفواحش، ولأننا ابتعدنا عن كتاب الله وسنة رسوله؛ هذا الصولجان القاتل أثبتت تاريخ الشعوب كافة أنه مفلس، ويفضي إلى مزيد من الدم، والذي سنصبه نحن وأولادنا، نقتل في بعضنا، ونتجسس على بعضنا، ونأكل لحم بعضنا أحياء وأمواتاً، لأجل تسويق وهم الفضيلة/ المقصلة.

لا تستغلوا أمية وجهل المواطنين ليرددوا كالقطيع، ما يفرزه الإعلام والمساجد، والمدارس، والشارع. فالفاحشة تأتي من الفقر، والفقر هو ما يأتي بالفاحشة، الجوع، واللا أمان، الجهل والأمية والتوحش والجريمة، حتى لو استطال بنيان الجامعات والمعاهد، علمانية أم دينية، واستطالت وتوسعت وارتفعت المآذن المزخرفة، حتى لو كان هناك مليون مسجد "الصالح" داخل حارة واحدة، وحتى لو كان معنا مليون كعبة في مكة وغيرها.

الفاحشة هي ما يمارس في طول البلاد وعرضه من النهب والفساد، وفساد السلطة والقضاء، وفساد القائمين على المسجد والمدرسة.

الفاحشة تأتي من التهام المتنفسات والحدائق، من الجولات، وجموع الجائعين من مختلف الأعمار والأجناس من يمسحون السيارات، و"يشحتون"، ويبيعون الهواء أجسادهم العارية.

الفاحشة لا تأتي من البحر يا جني! ويا علماء "الفضيلة والنهي عن المنكر"! ويا أمن! ويا ضباط! ويا حجري! ويا محافظ الحديدة! ويا محافظ عدن!

المنكر والفاحشة هو عدم وجود المسرح، والسينما، والغناء والرقص، والمهجل، وكرنفالات الفرح في الحدائق والشوارع.

المنكر والفاحشة أن تحولوا حياتنا البائسة فقراً وجوعاً وأمية، إلى عورات، كل عورة أكبر من أختها، وكل خطيئة أخطر وأفتك من الأخرى، وبدلاً من أن نخرج من قماقمنا نجلس داخل قماقم العورات المتضخمة السادية المتوحشة.

وأنا أقرأ وأتابع حملات التفتيش داخل الأجساد والأوردة، وضربات القلب، من قبل حراس وعسس الأوردة والمسامات والخلايا، خصوصاً الأنثوية، كانت الحملات على أشدها من قبل عام والحملة الأشرس في مدينتي عدن والحديدة، فيقولون إن البحر يأتي بالمفاسد والرذائل، ولذا ساطوا النساء لاقتيادهن وقذفهن في غياهب السجون، ويجب أن يبرزن عقود الزوجية، وأن يُعرف بعض المعارف

بأن الذي تمشي معه من المحارم، لقطوا كثيرا من الفتيات والشباب من السواحل، وقالوا إنهم كانوا يقومون بعمل فاضح. ولم ندر منذ متى كان البحر فاضحاً، وهو يكتم كل الانتهاكات ضده، يصبر على تقطيع أوصاله من قبل تلك الجماعات اللصوصية، ينتهك بأسماكه وبمياهه، بشعبه المرجانية، بكل كائناته وتفاصيله! منذ متى كان البحر يجلب الفضائح، وأنتم تلتهمونه في وضح النهار أمام الله والناس، أجرتموه، وامتصصتم كل ما منحه الله من ثرواته، حتى أصبحنا بلا بحر، سوى بحر الدمار والخراب، فمن هو الجالب للفضائح يا جني؟!

الغريب أن الأستاذ الحجري الذي كان أبوه من المسؤولين الكبار لدى صاحب الدعوة الأولى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أواخر أيام الإمام في القرن المنصرم، جاء ليواصل مجد أبيه (الفاضل) بعد أن حول مدينة تعز ونساءها اللواتي كن الأكثر إشراقاً وتنوراً، إلى متسولات. وتتذكر أيها المحافظ، وجوه مدينتها: أمة العليم السوسوة، وجميلة علي رجاء، ومنى علي، وسعاد القدسي، وفاطمة أبو بكر، نورية، وأمة الرزاق حُمد، فتحية، وأروى بهران، وأمل الباشا، وسعاد العبسي، ورحمة حجيرة... وكل الناشطات والأديبات والفنانات، وحولتهن إلى "جواني" فحم يحركها الخوف متدثرات بالآخرة. كذلك مدارس تعز حولتها إلى معاقل التخصيب الإرهابي. فبالله عليك! ماذا ورثت من والدك، وكيف تواصل مسيرة التراث والتاريخ الأسود في مدينة إب الآن.

ألا يكفيك أيها الجني وآباء "الفضيلة" القادمة من بطون الخراب أن ماء البحر لا يلمس أجساد النساء، وأنه لو نزلت بناتنا ونساؤنا البحر ينزلن بترسانة الفضيلة من الشرشف والنقاب، وأكياس اليد، "جوانتي أسود"، والعقل والروح، لتشوى أجسادهن بالحر والملوحة، وقبلها الشواء الحقيقي "فضيلتكم"، فماذا يريدون بعد؟!

قيل إن الأستاذ داود الجني هو وبعض من مليشياته، من يتزعم الفتك بحوريات البحار حتى لو كن منقبات، وأنه الراصد لمد وجزر البحر، يفتش في بطون الأسماك عن المنكرات والرذائل، وهم الآن يغوصون في بحار عدن والحديدة، ليضعوا مراسيم وصكوك عدم اختلاط، ما تبقى من الأسماك الخائفة، ذكوراً وإناثاً، حتى الجمبري يقشعون بيوضه في إقامته الجبرية، وأبو مقص، والشعب المرجانية، والشروخ، شرخوها، ودمروها بالديناميت لاختلاطها ببعضها بلا حياء ولا حجاب، بل لقد رأوا "مرجان ومرجانة" قبض عليهما، وهما يتجولان في أعماق البحر، أبرزوا كروت العشق والمحبة. ولأنهم كذلك قضي عليهم، وأكثر قضي على "مرجانة" لأنها هي أداة الفسق والفجور، وهي التي أغرت "مرجان" بالتجوال.

ثقافة البشرية الأولى يا جني تعرف أن الجن كانوا رفاق الإنس، وكيف كان البحر مكانا للتآلف بين الكائنات وحوريات. عرف آباؤنا وأجدادنا آلاف الحكايات والخرافات التي من شدة تداولها صُدقت، وأصبحت كأنها حكايات واقعية، عن البحر، وأساطير البحر تشي بالأُنس والارتباط الروحي بين الإنس والجن، وكيف سجلت أدبيات العشق الملتهبة بين الجنيات والبحارة الإنس، وحوريات البحر، وعن الصداقات والعهود والوفاء بين تلك الكائنات! وكيف كانت الأغاني والموسيقى والرقص والشعر بين هذه الكائنات أداة التآلف والمحبة!

فكيف يقول الجني بعكس ذلك، وهل هو من الجن الأشرار، عندما قال إن البحر يأتي بالفاحشة. ارجع إلى ذاكرة والدك وجدك، يا جني، سيقول لك من هو البحر، وكيف صاغ التاريخ الاجتماعي والاقتصادي وهم في بلاد "الغدرة" جميعهم مروا من البحر.

ثقافة البحر ليست الجحيم، كما أنه ليس بالشيطان، البحر يأتي بالتنوع والاختلاف، البحر يأتي بالتسامح والتعايش، والمحبة، والجمال... البحر هو الآخر، هو التثاقف، هو السلم والسلام، هو الخفة والانتعاش، بمعنى هو الحياة...

سيأتي الدنس، سيأتي العدم، عندما لا يكون هناك بحر، عندما لا يكون هناك حورية...

فكيف تشوفووووووووا؟

● «النداء»، العدد ١٦٠، الأربعاء ١٦ يوليو ٢٠٠٨

التوق إلى السلام في صعدة

تصوير: أروى عثمان

أعمى، لكني أبصر رائحة الموت تفجعني - مجز

● «النداء»، العدد ١٦١، الأربعاء ٢٣ يوليو ٢٠٠٨

التوق إلى السلام في صعدة

تصوير: أروى عثمان

● «النداء»، العدد ١٦٢، الأربعاء ٣٠ يوليو ٢٠٠٨

سـؤال المـشـاقـر؟

أروى عـثـمـان

■ إلـى أجمـل المشـاقر فـي "هجـري قُبـع الضـاع"
فاطمة نعمان، والبرحية

حتـى لا نتحـول إلـى دودحيات أُخـر، وحتـى لا نُصيّر عورات متناسـلة. حتى لا يتواصل مسلسـلُ الكتمة بلا نهاية، وحتى لا تختفي ألوانُنَا، ولا تَنْعدمُ روائِحُنا، وتتسيَّد سماواتُنا وأرضنا رائحة العورات.

مشـاقر: آلهات الخصب، من نباتٍ وماءٍ وهواءٍ وشـمسٍ وطينٍ، آلهات من حَماحم الريحان، "الأُزَّاب"و"الأثلان"، الفل و"الكاذي"، "الزبودة"، و"الوالة"، "الشـذاب"، و"المشـموم" والورود (المطابق) هذه هي المشـاقر، الاحتفاء بخصب الألوان والرائحة والأوداج والخدود، تَورد الوجوه.

"مشـاقر"، لوحـة لا يسـتقيم الوجـود إلا بهـا، بتشـكلاتها اللَّونية، بروائحهـا المختلفة العابرة للمـكان والزمـان. فاللَّـون الواحـد للحطـب والأشـواك لا يُخَلّف إلا الدَّم والحريق والرَّماد.. وهذا لا تعرفه المشاقر.

قالت الشاعرة إليزابيث باريت: "اجعل حبك أكبر لِتَكْبُـر قيمتـي" وقيمتنا، رجلاً وامرأة، أنْ نُحِـبَّ لِتكبر قِيْمَتُنا معاً، ولبعضنا البعض، هكذا تقول المشاقر.

لماذا المشاقر؟؟

كانت الفكرة –الحلم الذي حاولتُ بِعَناء وكد التوفر على بوابة لتنفيذه، منذ عقد من الزمان، قبل أن يتأسَس بيتُ الموروثِ الشَّعْبي بكثير، أي منذ أن بدأت ألعب كاميرا، كانت كاميرتي الصغيرة البدائية للغاية ألتقطُ الوجوهَ في الريف والمدينة.

أروى عبده عثمان: أيقونة الحرية وذاكرة اليمن الحية

ومـن يومها وحتى اليوم أعثر على إجابة: كيف تأسـرني الوجـوه، بعيونها، طفولتِها، تَجاعيدها، بوخط واشـتعال الشـيب فيها، عندما كانت عدسـتي تلتقطُ وجوه المشـاقر، تنتابني هواجس عارمة تتنامى حد الخوف في داخلي الذي يكبر يوما بعد يوم، لماذا؟

لأن المشـاقر التي رأيتها في حيِّنا بـ"سـوق الصميل" -تعز، لم تعد هنا، ولم تعد تزين خدود ووجوه وجباه النساء، وتوارت عن النظر جُلّ الوجوه والجباه: المشاقر.

واللواتي ممن تشقرن (تَزيَّنَّ بالمشَاقِر)، ترى أين ذَهَبْنَ؟

أين تلك الأوداج التي طالما فاحت فيها رائحة الحبق؟

واعترتني حُمّى التقاط ما تبقى، تحت ضغط يصل حد الهلع، الإحساس المؤلم والفاجع أني سوف ألتقـط اليـوم وجْهَهـا، وغداً لـن أراه، وإن لَمَحْتُهُ وغامرت بتوجيه العدسـة المتواضعـة لالْتقاطه، فمن يضمن ألا تنهمر على وجهي ورأسي الشتائم والرَّمْي بالحجارة، لأن الصورة أصبحت (حرام) بعد أن كانت مثيرةً للهوس، وكنّ (المشَقَّرات) يتسابقن عليها.

ويغص في النفس والحلق حينما تتلطف إحداهن وتوافق على التَّصوير تشـترط أن أعمل شـخطا علـى رقبتهـا، كعلامـة أنـي قُمتُ بذبحها حتى لا تكون صـورةً ناطقة، وحتى لا تتحـول إلى صنم، لأن الصُورة حرامْ.

وتعاظم خَوفي، لأن دائرةَ التحريم لم تستأصل الصورة فحسب، وإنما استأصلت حياتنا.

ولست في وارد الإعلان عن اكتشاف فاجع إن قلت إن حجب وإقصاء واستئصال المشاقر وتمويتها كان ومازال بمثابة إعلان الموت علينا وفينا وحذف اللوحة والرائحة.

تتذكـر عدسـتي أن من ابتسـمت في وجـه الكاميرا ذات يـوم، ومن ألَحَّت علـى أن أصورها بأحلى مشـقر، وهـن كثـر، هي اليوم، أكانـت في الريف والمدينـة، تنتفض في وجهك، وتقـول لا، حرام، عيب، سندخل النار! النار، والحرام، والعيب، والدنس، لا تعرفها مشاقر بلادي في الأمس القريب.

اليـوم وبعـد أن صـارت المشـاقر (حـرام) ومعها الفـرح، المرح والجمـال والحيـاة، وكل محمولات (المشـقر)، وبعـد أن أصبحنـا مذعوريـن مـن أن نصحو ذات يوم والبـلاد بلا مشـاقر، وليس فقط في "سوق الصميل". هذا الانتهاك لا يمارس فقط في بلادنا، ولكنه يعد جزءاً من الانتهاك والإقصاء للمرأة العربية والإسلامية.

مشاقرنا، خصوبتنا، حياتنا، الوجود، الكون الذي لا يستقيم إلا بهذه الباقة المُشكلة منها.

المشـاقر، محاولة، للحد من تناسـل العورات التي تلتهم مشـاقرنا باسـم المقدس. محاولة للرد على العنـف والرصـاص، الكلاشـينكوف والقنابل الموقوتـة وغير الموقوته، للرد على الاسـتباحة تحت أي مسـوغ كان مـا يكـون، بالمزيد من نثر وإشـاعة باقـات الروح والمحبة والأنس والسـلام.. بالمشـاقر.. المشاقر.. المشاقر، التي لا نملك سواها.

● «النداء»، العدد ١٦٤، الأربعاء ٢٠ أغسطس ٢٠٠٨

في يوم التراث العالمي ١٨ أبريل: ألا يتحول التنوع إلى أيديولوجيا الصوت الواحد؟

قـــــراءة فـــي أحـــــوال تـــــراث الـيـمـن

أروى عـثـمـــــان

في يوم التراث العالمي 18 أبريل.. لا يختلف اثنان على أن اليمن تمتلك مخزوناً هائلاً وثرياً متنوعاً من كنوز التراث الثقافي الإنساني في كل أشكال التراث المادي واللامادي، ورغم ذلك فإنها لا تعير التفاتاً لليوم العالمي للتراث الذي يصادف ١٨ أبريل من كل عام، وتحتفل به، في الوقت الذي تسارع فيه الدول والمنظمات الشعبية والجماهيرية في العالم، للاحتفاء بهذا اليوم، بل وفي كل يوم لعرض تراثها والتعريف به، لتوسيع قاعدة المشترك الذي يتسع كل الأطياف.

ولعل دول الخليج تشكل نموذجاً في هذا المنحى، فهي تحتفل بهذا اليوم، وتدعو المهتمين والمشاركين، وتصرف الملايين من أجل توثيق تراثها، ونشره في المحافل الدولية، وتعمل على إيفاد الباحثين والمهتمين لمراكز التراث الحضاري في العالم للدراسة، وتعلم الجديد في هذا المجال، وتقيم العديد من الفعاليات والمهرجانات الضخمة، وتستدعي الكثير من المتخصصين.

وفي اليمن لا يكاد هذا اليوم ١٨ أبريل، يعرف، حتى بالنسبة للمثقفين والمهتمين، ذلك لأن معرفتنا

بتراثنا فقيرة للغاية، إن لم تكن غائبة.

متاحف اليمن: تدمير، نهب منظم، قوارض آدمية وحيوانية

فالتراث الحضاري واللامادي في بلادنا مهمل، ويستفحل الإهمال من سنة لأخرى، ولا يكاد هذا التراث يذكر في أجندة الحكومة بمؤسساتها المختلفة، فلا متاحف جديدة تنشأ، أو في طور الإنشاء، وما هو موجود عرضة للاندثار والإغلاق، كما هو حال العديد من المتاحف التي أغلقت، مثل: متحف التراث الشعبي في أمانة العاصمة، الذي أفرغت محتوياته بالنهب المنظم، والمتبقي منها مرمي في "بدروم" المتحف (سابقا)، لتفترسه القوارض، والأشد خطورة القوارض الآدمية.. وها هو "المتحف" يدخل عامه السابع، وهو مغلق بحجة الترميم، الذي لم ينتهِ حتى اللحظة.

حرب ١٩٩٤: طغيان صوت الأيديولوجية.. استباحة مجانية للذاكرة

ولا ننسى، أيضاً، ما تعرضت له متاحف مدينة عدن، من نهب وسلب في حرب ١٩٩٤، ومؤخراً حادثة السرقة الكبيرة للمسكوكات النقدية التي لا تقدر بثمن. ولا تنتهي القائمة حيث لم تقتصر عوامل الإتلاف والنهب المنظم على المتاحف بقدر ما طاولت المساجد التي أفرغت من محتوياتها، كالمخطوطات وغيرها.

إن هذه الاستباحة المجانية العابثة لذاكرة البلاد ليست الأولى ولن تكون الأخيرة، في ظل ثقافة اللامبالاة الغرائبية، من كل الأطراف، وأهمها مؤسسات الدولة، والحكومة بدرجة أساسية.

"عكفة" تتسيد ذاكرة المتاحف والفنون

لقد تحولت ذاكرة البلاد إلى سلعة رائجة تدر الملايين على المتنفذين و... الخ في ظل عدم وجود قوانين حازمة تعاقب كل عابث.

وعلى خلفية ذلك تسيدت متاحف البلاد، المركزية القاتلة لـ"نخبة" من (العكفة) -القبيلي حين يتعكسر- تدير المتاحف بمزاجية واعتباط، فهي نخبة عجيبة، لم تكلف نفسها عناء البحث عن الجديد في عالم وعلوم المتاحف، بقدر ما جعلت من المتاحف متنفسات للعناكب، فحتى اللحظة، مازالت آلاف المقتنيات، والمخطوطات تتكدس في بدرومات المتاحف. متاحة لعبث كل من هب ودب، من هوام آدمية وحيوانية.

في الألفية الثالثة، مازالت متاحفنا تعمل بآلية متاحف القرون الوسطى في ظلاميتها، وبدائيتها، وبداوتها، فلا تأهيل، سوى ما ندر، ولا أبحاث، ولا مجلات متخصصة تعنى بالمتاحف، أما القدرات البشرية العاملة فيها، فهي طاقات استنفدها الإحباط المركب.. متهالكون ألماً وفجيعة، على ما آلت

إليه كنوز اليمن من دمار.

أما المتاحف الصغيرة، المتناثرة في أصقاع اليمن، وتعتمد على جهود فردية بحتة، فتعاني الإهمال والموت السريري، وقد تحول بعضها إلى تكايا إحباط، وهمّ يأكل الجميع.

التراث اللامادي: لا معاهد للموسيقى، وفنانون في انتظار الجلطات والسكتة القلبية

لا يتوقف الأمر عند المتاحف، بل إن التراث اللامادي كالتراث الموسيقي عرضة للنهب، والتلاشي المنظم، فلا معاهد متخصصة، كـ"المعهد العالي للتراث الموسيقي" أسوة بدول الجوار، وما كان موجوداً، رغم تواضعه، أغلق، كمعهد جميل غانم، الذي تم افتتاحه قبل أشهر من قبل وزير الثقافة، لكن تظل المعاناة من الإمكانيات الشحيحة سبباً يمكن أن يفضي به حتماً إلى الإغلاق نهائياً. وكذلك هو حال معهد التوثيق الموسيقي في العاصمة صنعاء، الذي لا نكاد نسمع عنه شيئاً.

أما ما يتعلق بالأكاديميين الذين تخرجوا من أرقى الجامعات العالمية التي تعنى بشؤون الموسيقى، والفلكلور، فهم يشتغلون بأدنى الإمكانيات، أو يلتزمون بأحكام الإقامة الجبرية في بيوتهم ينتظرون دورهم للانتقال إلى جوار ربهم بالجلطات والسكتات القلبية، وحالات الاكتئاب المزمن. وقوافل الفنانين والموسيقيين الذين يرحلون دون أن يطرف للحكومة جفن، شاهدة حية على كل ما يحدث.

السلطة الحاكمة: تخريب منظم لتراث التنوع.. ولا سينما في اليمن

في هذه المناسبة، ١٨ أبريل؛ اليوم العالمي للتراث، وكمهتمة بالتراث، أحمل السلطة، وأجهزتها الحكومية، بمؤسساتها المختلفة: وزارة الثقافة، ووزارة السياحة، ووزارة الإعلام... الخ، مسؤولية ما يحيق بذاكرة البلاد في طول البلاد وعرضها، من خراب وتدمير وعبث بهذه الكنوز الإنسانية (التراث المادي واللامادي) الحافل بالتنوع والتعدد، ذلك أن السلطة هي التي حولت الشأن الثقافي ترفاً، وأخرجته عن كونه ضرورة إنسانية، فأحجمت عن دعمه، بل وهمشته، حد الاستئصال، فلم تشجعه لتجعل منه ضرورة اجتماعية ملحة: في المدرسة، والجامعة، والشارع، فسيّست كل ما هو ثقافي، وحولت موتيفات الموسيقى وأداء الرقص إلى مناسباتي، وأفرغته من مضمونه الجمالي والوظيفي، وأصبح الثقافي -التراثي سياسياً شعاراتياً، ودعائياً مجانياً، وزادت الأمور سوءاً بعدم مسارعتها إلى إيقاف تلك الحملات المسعورة التي اجتاحت مدن اليمن وأريافها لوأد الفنون من الرقص، والغناء، والمسارح، فأغلقت دور السينما برمتها في كل أصقاع اليمن، وشاركت، مع بالغ الأسف، في تمويت الثقافة والفنون، وكأن هناك قراراً سياسياً ضمنياً، تعاقدياً مشتركاً بين السلطة والجماعات السلفية المتطرفة والقبائلية التي اجتمعت وتوحدت على تقتيل كل أشكال الفن والثقافة والتراث، وأهمها الإنسان المبدع لها، فاختفى الغناء، والرقص، والأزياء، والكرنفالات، والموالد وحلقات التصوف،...

الـخ، ومـا يمارس منها في نطاق ضيـق أو في حفلات الأعياد الوطنية، وجعلت من منظومة الإنشـاد الديني وحده، هو لسان حال الثقافة والتراث، والحياة في اليمن.

أسلمة الفنون، صوت الإنشاد الجنائزي هو الصوت الطاغي في الفرح والمأتم

هذا الاسـتئصال السـافر، لم يقضِ على أشكال التراث، بل قضى على إنسانية الإنسان، وحوله إلى كائـن مكتـوم، لا يتنفـس، وقضى علَى التنوع فـي الفنون المختلفة في مناطق اليمن. في هذا السـياق انتعشـت الأيديولوجيـات، والهويات المتقاتلة، واختزل التعدد إلى لون أحادي مارشـوي إسـلاموي، فأسلمت كل الفنون، بل ومنع كل تطريب.

الأفغنة.. وتجريم الفنون والفلكلور

وتبعـاً لذلـك طفحت أعـراض الأفغنة في المـدارس والجامعات، والإعلام، والشـارع والمراكز... الخ، وتحولـت المتنفسـات إلـى ثكنـات ملغومـة تمنـع الفنون، وتشـجع وتدعم اللـون الواحـد.. فعروض الأزيـاء، والغنـاء أنيطت بأطفال صغار بالكاد يتهجون مخـارج الألفاظ، وكأنما عارٌ على المرأة البالغة أن تـؤدي وصلـة غنائيـة، أو عرضاً لزي شـعبي. في هذه المذبحـة، تم إقصاء الفنانـات، والراقصات، والاستعراضيات، وجرمتهن بأوزار العيب والفتوى، ولم يتبقَّ من الجيل الأول سوى فنانة أو اثنتين، من الفرق الوطنية الشعبية للفنون، تتباهى بها مؤسسات الدولة لتقديم العروض الفنية في الخارج، بهدف الترويج السـياحي، أما الترويج في الداخل، فهو ممنوع ومحرم، ليس هذا فحسـب، بل صارت أولئك الفنانات يتعرضن لهضم حقوقهن في المؤسسات التي يعملن بها.

اختفاء صوت النساء

لقـد أصبحت ثقافة الضجيج السياسـي المأتم هي التي تطبع حالنـا وأحوالنا في الريف والمدينة، بسبب سياسة المنع والتجريم، فمنعت أغاني ومهاجل الزراعة، والبناء، والمواويل، وخصوصاً صوت النساء في الجبال والوديان، ولم يعد يمارس منها إلا أقل القليل، وعلى أضيق نطاق.

■●●

صناعة العيب والفتوى: جامعة الإيمان تحكم إيقاع الحياة في اليمن

لقـد تعممـت صناعة العيب سياسـياً واجتماعياً، واسـتقوت هذه الصناعة بالفتـوى ضمن عملية تدنيـس وحجـب واسـعة لثقافتنـا الفلكلورية، التـي انهالت عليها معـاول التكفير والتفسـيق، وبذا تشـعبت وتجددت صناعة الفتوى، وأصبح تراثنا ومتنفسـنا، بين فكين خانقين: مارش وطني دعائي،

لقد تحولت ذاكرة البلاد إلى سلعة رائجة تدر الملايين على المتنفذين في ظل عدم وجود قوانين حازمة تعاقب كل عابث.

ولا ننسى، أيضاً، ما تعرضت له متاحف مدينة عدن، من نهب وسلب في حرب 1994م، ومؤخراً حادثة السرقة الكبيرة للمسكوكات النقدية التي لا تقدر بثمن.

في حوار حول سرقة كنز أثري متكامل من العملات الذهبية، يضم 858 عملة (أكسومية) و326 (مسكوكة رومانية) من خزائن المتحف الوطني بعدن العام الماضي، قالت مدير فرع الهيئة العامة للآثار والمتاحف والمخطوطات بعدن، الدكتورة رجاء باطويل، طرقنا كل الأبواب لانتشال وضعية المتاحف، ولكن لا حياة لمن تنادي، لا مختبر للصيانة... لا... لا... لا... باختصار إمكانياتنا لا تسمح بعمل شيء، حتى آلة تصوير مستندات لا تتوفر لدينا. بجهودنا قمنا بتوفير أبواب حديدية، صرنا اليوم نقلب أكفنا بعد ضياع ثروة بلد، ومن قبل المسؤول داخل المتحف للأسف!

في الألفية الثالثة، مازالت متاحفنا تعمل بآلية متاحف القرون الوسطى في ظلاميتها، وبدائيتها، وبداوتها فلا تأهيل، سوى ما ندر، ولا أبحاث، ولا مجلات متخصصة تعنى بالمتاحف.

يتجاوز عدد متاحف اليمن 13 متحفاً، وهي: متحف عدن، تأسس عام 1930م. المتحف الوطني بعدن، وقد افتتح رسمياً في 1967م. متحف المكلا، وقد تأسس في 13/ 10/ 1994م. المتحف الوطني بصنعاء، تأسس في 1970م. متحف بيحان، أسس في عام 1969م. متحف قصر صالة (تعز). متحف العرضي (تعز) متحف ظفار، ويقع في ظفار (العاصمة الحميرية القديمة) جنوب يريم. متحف الحبيلين (ردفان)، افتتح في 1978م. متحف زنجبار (أبين)، افتتح في قاعة واحدة عام 1981م. متحف الضالع، افتتح عام 1982م. متحف سيئون،افتتح في 1983م. متحف عتق، افتتح في 1984م. متحف الحوطة، في مركز محافظة لحج افتتح عام 1984م. متحف الغيظة في محافظة المهرة وقد افتتح في 1987م.

ومارش فتووي -ديني، فضاع جمال التراث الإنساني، وإشعاعات البهجة والفرح كمولدة لطاقات الإنسان، وجرى منح الامتيازات للفتوى، في الإعلام المحلي، وأصبح كل ما تقوله "جامعة الإيمان" بمشائخها ودعاتها القدماء والجدد، هو الصوت الطاغي في اليمن، والصوت الذي يراد له أن يتحكم بكامل إيقاع حياتنا، في كل بقعة من الأرض اليمنية ريفاً وحضراً.

فقد حرمت الصورة، الحركة، الصوت، والإيقاع، وتفجر المجتمع بعدوانيات مختلفة تصل إلى الدموية، ويحدث ذلك ببساطة لأنه لا يتنفس، والمجتمع الذي لا يتنفس يأكل بعضه، ويأكل الآخر في طريقه.

باسم يوم التراث العالمي ١٨ أبريل: رد الاعتبار للبهجة.. لرقصات "رنين الحجول" المرأة

في هذا اليوم العالمي للتراث ١٨ أبريل، والمقر من قبل منظمة اليونسكو، نحمل السلطة التي تهاونت

في حماية التراث الحضاري، والشعبي، ودعمه وتشجيعه، وصناعته -أيضاً، المسؤولية عن هذا الذي يحدث. ولا نملك في هذا اليوم العالمي، إلا أن نرفع صوتنا عالياً باسم الإنسان المبدع للتراث، وإيقاعاته، وتنوعه، وتعدد أشكاله في الريف والمدينة، وللطوائف المختلفة في الجنس، والشكل واللون، والدين، للبدو والحضر.. مطالبين برد الاعتبار للإنسان اليمني، لأن يتنفس بطلاقة، في فضاء مفتوح عامر بالبهجة والمحبة، رد الاعتبار للحياة المدنية في اليمن، لدولة المؤسسات والقانون، رد الاعتبار للثقافة، الفن، المسرح، الرقص، الغناء، البهجة، الكرنفالات المتنوعة، الفكر، الحركة، والموسيقى.. وأخيراً رد الاعتبار للمرأة مبدعة أشكال التراث، وحاميته، أن تصنع لوحة اليمن بجانب أخيها الفنان، وجه اليمن المشرق، الذي لن يكون إلا بالفن والثقافة، برقصات رنين الحجول.

نداء:

المراسلة خطوة أولى لحماية تراثنا الشعبي، اجمع ودوِّن ما تستطيع جمعه من تراث، وأرسله إلى بيت الموروث الشعبي، صنعاء، باب البلقة، ص.ب: ٣٣٠٨١، فاكس: ٤٨٢١٧٨ أو الموقع: yemenifolklore.org.

١٨ أبريل ٢٠١٠

● «النداء»، العدد ٢٣٤، الاثنين ٢٦ أبريل ٢٠١٠

لمع البروق.. في حيفان والأعروق
لماذا اكتفينا بـ"الغزوزة" بدلاً عن النور؟

أروى عثمان

■ إلى الآباء الأعزاء الذين ذرفوا الدمع والدم وسفحوا أيامهم وأعمارهم وأحلامهم في معترك الدعوة والتضحية في سبيل انتصار قضايا التنوير والمدنية والتحديث: هائل سعيد أنعم، عبدالغني علي، عبدالرحمن محمد سعيد، علي محمد عبده، عبده ناشر العريقي، عبدالقادر سعيد، عبدالفتاح إسماعيل و... و...

لمع البروق.. في حيفان والأعروق
لماذا اكتفينا بـ"الغزوزة" بدلاً عن النور؟

(١)

وأنا أتصفح صحيفة "الخطوة" في بعض أعدادها، وخصوصاً العدد الأخير (٥٦ – ٥٧) لشهري مايو ويونيو ٢٠١٠، والتي تصدر عن الجمعية الخيرية للأغابرة والأعروق –تعز، استوقفتني العديد من القضايا أهمها:

الاستنهاض المتشنج لرغبة مرضية لتفصيل ولصق ألقاب المشيخة والتمشيخ.

والثاني: بناء جامع كبير على نفقة أحد رجال المال والأعمال وأولاده يحتوي على ٣٠٠ مصلٍ، و.. و... إلخ (سنتناوله في موضوع لاحق).

سأعرج على الأمر الأول في هذه الحلقة، ليس من وحي الصحيفة فقط، بل ومن خلال زيارتي للمنطقة في مارس ٢٠٠٣.

فما وجدته في ثنايا الصحيفة من أخبار لكثير من الأسماء المهورة بالشيخ الفلاني، والدكتور الشيخ،

والمهندس الشيخ، والمعلم الشيخ، والمناضل الشيخ، وأستاذ الجامعة شيخ المشائخ.. الخ..

وأعرف شبابا كنا ندرس معهم في جامعة صنعاء، وبعضهم تلقوا دراساتهم العليا في أرقى جامعات العالم في أوروبا وأمريكا، ومنهم من كان من دعاة الاشتراكية البروليتارية، وضد احتكار الثروة وتكدسها في يد الإقطاع والبرجوازية، وأصبحوا الآن يعتلون مناصب هامة في الدولة، غير أنه لا يجرؤ أحد أن يناديهم بألقابهم العلمية، بل بلقب الشيخ الذي يستملحه بطاووسية عجائبية.

(٢)

مشائخ (الغفلة) بجانب أنهم يستشرسون إذا -لا سمح الله- ناداهم المرء عن طريق الخطأ بلفظة "أستاذ"، تراهم اليوم وهم يحفرون وينقبون الأعماق المظلمة المنسية، ليكتشفوا خيط -شجرة نسلهم المقدس الذي نسيه وطمره الآباء والأجداد عبر مسيرة مضنية على طريق التمدن والتحضر، ليصلوا بعد مشقة إلى اختراع الألفية الثالثة، ويكتشفوا أن: أصل نسل الأغابرة والأعروق قبائلي صرف، وأن أسرته... تحمل الختم الأصلي لأصله ونسله الإلهي (القبائلي)، ومن ثم لا بد من سيادته على بقية النسل المدنس -الذي هو نحن جموع الناس- فتراهم كل يوم في غرف الإعدام "المقايل" يسفخوننا -هؤلاء المبشرون بمداميل -مداميك القبيلة والنسل الإلهي- باختراعاتهم الجديدة من أن جدهم التاسع بعد الألف كان قبيلي "فرص" ١٠٠٪، خالياً من شوائب انتمائه للمدينة، وجده كان يمتلك قبيلة مقاتلة شرسة بكل شجرها وحجرها وهوائها، وناسها.

(٣)

للأمانة، أحسست بالغبن والغصة الثقيلة، وأنا أتأمل صحيفة "الخطوة" في بعض أعدادها، ونفس السؤال الذي لم أجد له إجابة، ما الذي يجعل بلادنا تتعشق الجائحات القاتلة التي لا تقل فتكاً عن أمراض الكوليرا والطاعون، فيتفسخ ويتآكل كل ما هو مشرق وجميل في بلادنا؟

فمنطقة الأغابرة والأعروق والحجرية بشكل عام، ليست بيئة قبلية، وليس من سماتها صناعة المشائخ، بل صناعة العلم، والثقافة والمال، بيئة خصبة للتمدن والتحديث، بيئة صنعها التثاقف مع الآخر، عبر الهجرات لكل أنحاء العالم، وخصوصاً إثيوبيا، وعدن وبريطانيا وأمريكا.

فكيف يرتد بنا التاريخ إلى البدائية وإنسان الكهوف والأدغال عبر مسيرة القبائل وصراعها على الغنيمة، بمعنى صناعة ثقافة القبيلة في غير منبتها، وتخصيبها عبر معاول الأسماء والألقاب من مشائخ ودعاة، وأعراف، وأعمدتها من التسليح والتسلح الذي نراه ونلمسه في الحواضر؟ لماذا هذا البلد يتفسخ من بناء الدولة عبر تشجيع وتجديد منابع القبلية وتقويتها لتصبح اليمن ما هي إلا مجموعة قبائل لا تعرف المؤسسات ولا القانون، وليس لها علاقة بالعصر إلا من بوابة ثقافة العبث: المقاتلة والتقاتل؟

(٤)

ما الذي يجعل كوادر منطقة الأغابرة والأعروق والحجرية والمناطق الجنوبية بشكل عام، تتراجع عن خط سير الحداثة والمدنية في العلم والعمل والبناء، وتبني قضايا الإنسان والحياة؟ ما الذي جعلهم يتراجعون عما كان يقوم به الآباء الذين ضحوا بالغالي والنفيس لإقامة مجتمع مدني يسوسه القانون، والمساواة، والعدل، وأصبح الأبناء شغلهم الشاغل فقط أن يكون انتماؤهم إلى قبيلة مقاتلة خارجة على القانون، عصبوية، لا عمل لها سوى التقطع والفيد، ويتسيدها بلقب شيخ ويكون بهيئة ما قبل الإنسان البدائي الأول، مجنزراً بعدة القتال والفتك بالآخر؟

(٥)

لماذا هذه الرجعة والتهتك في مفاصل الحياة المدنية التي كنا قد بلغنا مستهلها؟ ولماذا ذلكم التماهي المخزي بأدوات ورموز التخلف وانتعاش أيديولوجيات المشيخة والقبيلة، وكأننا نعاني من عقدة نقص مرضية لا علاج لها إلا بأن نتقبيل ونتمشيخ، ونتمرأس على مواطنين "رعية" لا حول لهم ولا قوة؟ ولماذا هذه الثيمة المذعورة والمسعورة كوننا لسنا قبائل، ولا ننتمي إلى قطاع مثل القبائل التي لا يذكر من تاريخها سوى الحرب، والمباراة في إفناء بعضها البعض لجدال عدمي يستمر أكثر من مائة إلى مائتي سنة، لأن بقرة عيال زعطان، تجرأت ودخلت حدود عيال فلتان، فمع كل زامل وبرعة يفتكون بالعشرات من الطرفين؟!

لماذا نشعر بالعار والدونية لمجرد تلبسنا بالمدنية، أو لأننا ننشد القانون، ونذكر أسماء أمهاتنا وأخواتنا بلا خجل، وأن نساءنا متعلمات ويخالطن الرجال في العمل، ويسافرن لوحدهن بدون محرم، ويمشين بين الناس سافرات بلا نقاب؟

ولماذا لا يصح أن نكون مجتمعا سوياً مثل بقية المجتمعات البشرية، يعيش بسلام، ينجز بالعلم والعمل، وليس برص البشر في غرف إعدام اسمها "المقايل"، ومن ثم سكب حديث الهذيانات، وتفريخ وتسمين ألقاب الوهم: شيخ، قبيلي، وكأن هذا المجتمع قد حكم عليه أن يتنازعه وحشان كاسران لا يشبعان قتلاً وتقتيلاً: مشائخ بأثقال قبلية، ومشائخ ودعاة بأثقال الدين المُسيس، الذي يتحول كل شيء على أيديهم لأيديولوجيا متوحشة تفتك بكل شيء يخالف طريقها.

(٦)

إنها الغيبوبة الجمعية، والهذيان الجماعي المنفلت الذي يغذي ثقافة هي ثقافة الموت بامتياز، وذلك بعض ما يعنيه تكريس المجتمع في وضع "راع ورعية"، أو بالمعنى الأدق "قطيع، وراعٍ" يكون فحلاً مجنزراً بالبداوة، والعنجهية، وعدة القتل إذا ما خالف أي قطيع اتجاه الركب.

لا نبالغ، إن الوتيرة المسعورة، لبعض دعاة الهذيان، والذين لا يألون جهداً في نبش "مسب"

الأنساب، هذه الخرافة المحلاة بالعجز وعدم الإنتاج والإبداع في خارطة الحياة، خرافة الأنساب التي يشتغل عليها أساتذة جامعيون ومثقفون، يجددون عائلات، وأنساباً وقبائل، وأصولاً وفصولاً، ينفخون الأوردة والعروق من أن عرقهم يرجع إلى قبيلة مقاتلة في مأرب، أو خولان، حاشد، وكلما كان تراث القبيلة مؤثثا بالجثث، والدمار، والإهلاك لجيرانها، ارتفعت موازين ذلك الشخص الذي بين ليلة وضحاها أصبح لا ينتمي إلى الأغابرة والأعروق، دعاة التنمية، والثقافة، والمجتمع المدني، ومن أنه جازع طريق فيها، لكن جذوره الحقيقية لقبيلة استشرست وفتكت بين ليلة وضحاها بالمئات...

(٧)

البحث عن ملجأ الألقاب صار من علامات الساعة، وضرباً من التعويض عن الشعور بالنقص، إنه يتأصل يوما عن يوم، لننظر هذه المنطقة الصغيرة (الأغابرة والأعروق والحجرية) فلا يلفظ اسم الشخص في المنابر، أو بطاقات التعريف إلا بلقب العريقي، والأغبري، والحيفاني، والعبسي، القدسي، والمقطري، والزريقي، والجنبي وأم الصبياني، ثم توصلوا إلى الاكتشاف المذهل، أن هذا اللقب يظل ناقصاً، إن لم يلحق بل ويتقدمه لقب القبيلة الذي اكتُشف مؤخراً عن طريق علم الأنساب. لقد تحول هذا العلم على يدينا إلى علم "الكَسَب -أنثى الخروف-" أو "علم المسب"، لتحولنا إلى قطعان ماشية، تلهث، بأن يتوج مسيرتها براع مجنون طباعه فيها الكثير من الذئب والثعلب، وفي بعض الأحيان "الطاهش"، ونسي أولئك "المتطهبَّشون" أننا بلا ذاكرة لا نعرف مسيرة آبائنا وأجدادنا الذين هاجروا إلى مختلف أصقاع العالم، من تجار، ومناضلين ضد الرجعية والتخلف، فلم يذيل عبدالغني مطهر بالأغبري، ولا بالخولاني، ولا بابن عبيدة، والمؤرخ الكبير والمثقف علي محمد عبده، والأستاذ عبدالغني علي، والحاج هائل سعيد أنعم، لم يعرفه الفقراء والعالم أنه من الأعروق، وكذلك عبدالفتاح إسماعيل لم يذكر أنه من حيفان، ويلقب بالجوفي، نعرفه قائداً باسمه بلا ألقاب، وكذلك الفنان الكبير أيوب طارش، فلم نعرفه أنه عبسي، ولا نهمي، بل فنان أحيا نفوس كل اليمنيين على حد سواء.

أما يعلم أهالي الأغابرة والأعروق، كيف كانت هذه المناطق آمنة، ومفتوحة لأن يتعايش الجميع، ففتحت أحضانها، لكثير من "العكفة" ولبعض المطلوبين للقتل في قبائلهم، وهربوا من جائحة الثارات المهلكة للأخضر واليابس، فسكنوا هذه المناطق، وتزوجوا، وعمروا، وذابوا، وكانوا من دعاة الخير والمحبة والعلم والانفتاح، فبالله عليكم، كيف نمسح مثل هذه المواقف المشرقة، لنؤسس ونستضيف ما كان يرفضه الآباء والأجداد؟

من نسي هذا التاريخ المشرق، عليه أن يفتح دفاتر الذاكرة، ليبصر كيف نشر الآباء والأجداد تباشير الانفتاح والعلم، وليس علم المشيخة، والاستبداد، ونشر الظلم والطغيان، الذي هو ديدن ثقافة البداوة والقبيلة التي يناضل من أجلها المسعورون من "مشائخ الطهبشة والتهباش".

(٨)

مازلنا حتى اللحظة نعيش ونتلظى بحرائق المشيخة والقبيلة، كيف قادنا التمترس خلفها إلى تمزق بذور المجتمع المدني في اليمن، فبعد تسيد القبيلة والعرف واستباحة النظام والقانون والدولة، قضي على العلم، وتم تحويله إلى "ألف لاشي له"، كيف أتخم الإعلام والثقافة بكتب التخريف فيسفحون على أبصارنا ومسامعنا فنون الزوامل الممجدة لعقوبة من يخرج على الصف، "فيتجرع السم ونقيعه"، والمفاخرة الدموية لإحدى مناطق اليمن التي قضت ٦٠ عاماً تحصي عدد القتلي والجثث من الفريقين الذي بلغ الآلاف، بل وأنهم سيواصلون مسيرة الثأر، حتى لا يبقى حجر على حجر.

(٩)

هذا النكوص يشكل نقطة خطيرة في الوعي الجمعي، لتصبح البيوت والأسر عصبيات وجزراً متناحرة، لا تبني، ولكن لتحقيق مصالح صغيرة آنية، وإشباع النرجسيات الجائعة للامتلاء، فنصبح طواويس هزيلة جوفاء لا نملك إلا المظهر الخاوي للمشائخ: السيارة الفارهة وخلفها الرعاة وهم يستجدون، وحفظ الله شيخنا ودام عزه وعز أولاده ليسودونا، وكذلك أولادهم في المدرسة لا بد أن يكونوا في المقدمة، وبإمكان ابن الشيخ "النونو المُقمط" أن يلطم، يضرب، ويشتم المدرسة، بل ويرفع السلاح في وجهه إن قال له الأستاذ: انتبه للدرس، فبلمح البصر يتحول طاقم المدرسة من الحارس إلى المدير إلى عبيد مفجوعين، يخطبون وده.. إنه "ابن الشيخ" الذي تسمنه وتغرزه ثقافة الخوف ليتوحش على الكل.

(١٠)

أتمنى من دعاة التمسك بخرافة استرجاع تراث السلف، والمجد الضائع، لتجديد تركيبة الصوت الواحد الذي يطغى على كل نفس، صوت "الجعشنة الجديدة"، أن يتداركوا أنفسهم ويسارعوا بالوقوف إلى صف الحياة، وتعميرها بالمحبة والتعايش، والجمال، فيكفينا تغول ثقافة القبيلة في مساماتنا، يكفينا مقولات الاستقواء: "إدكمه يعرفك، وأكلت حقي وحق صاحبي، وأحيت (أحسست) نفسي تراجعه (رجعت للحياة)، وعقل المره في درمها، ووجه وصوت المرأة عورة"، أو ما سمعته من شيخ شاب من الأغابرة والأعروق، يقول في وجه زميلته الجامعية، "لا تسمع للدجاجة تجرك للمخراية" -عفوكم- لكن هذه هي ثقافة القبيلة التي لا تتعشق الحرية، ولا المساواة، ولا قيم المدنية والتحديث، لا تتلمس روح المدينة ورائحتها المفتوحة، لا تعرف من الفضاء المفتوح إلا فضاء المقيل وغمد الجنبية.

(١١)

الخروج من دائرة اللهاث الزائف لمجد متهالك، نفضته كل الإنسانية في العالم، لخلق مجتمع

إنساني يقوم على المساواة لا التبعية، مجتمع تنحو كل فئاته نحو الاختراع والعلم، لا للخرافة، وتوسيحة المقايل واعتلاف وتغذية البطولة الزائفة "أحمد شوربان" قاتل ألف وآسر ألف، ومحرر ألف لوجه الله.

ألا نستهلك أوقاتنا في اللهاث خلف إحصائيات الشيخ الفلاني: عمل الشيخ، ترك الشيخ، رقد، جلس، وسح، الشيخ تجشأ بعد صلاة الصبح، والشيخ عطس وهو في السوق. أن نبتعد عن "علوم وإحصائيات المفراغة" لمنجزات الشيخ في ٢٤ ساعة بـ"قلي الشيخ، وأنا قلت له"، أعرف صديقا مصابا بلوثة "قلي الشيخ، وقلت له" تجده يتماهى بهذه الأحاديث أمامنا، لنبارك له: كيف اقتحم جموع المقيل ليصل إلى "مدكى" الشيخ الشاب في جمعية الأغابرة والأعروق. لم يكتفِ صديقنا بهذه البطولة، بل بطولته الأخطر التي قام بها: أن كتفه يا!!!الله لامست كتف الشيخ، بل وربت الشيخ الشاب على كتف صديقي، هذا الصديق العزيز أصبح شخصاً كأن به مساً.

(١٢)

إنها حالة كاريكاتورية سوداء تستدعي تدخل علماء الاجتماع وعلم النفس والأنثروبولوجيا وعلوم الحفريات، أن يدرسوا اللوثة اليمنية بامتياز: ظاهرة المشائخ الجدد التي تستعر في مفاصل حياتنا، بعد أن كانت في اليمن والعالم تدرس كحالة تاريخية وأنثروبولوجية فقط.

فكيف تشوفووووا؟

● «النداء»، العدد ٢٤٢، الاثنين ٥ يوليو ٢٠١٠

من مُخيلة المئزر الجمعية:
الذهنية القبلية في الصميم من تصميم شعار "خليجي ٢٠"

أروى عـثـمـــــان

من مُخيلة المئزر الجمعية
الذهنية القبلية في الصميم من تصميم شعار "خليجي 20"
أين صاحبنا "حسن"؟

.. في مقالتي هذه لا أريد أن أتطفل على الفن وخصوصياته، أو على النقد الفني، أو أنتقص من الحدث الكبير والهام في تاريخ اليمن المعاصر (خليجي ٢٠)، ولا أستخف بالمواطن القبيلي ذي الفطرة السليمة، بقدر ما أريد تسجيل انطباعاتي حول تصميم شعار "خليجي ٢٠" من خلال قراءة أنثربولوجية إن جاز التعبير. فحين وقع بصري لأول مرة على الشعار رأيته براقاً جاذباً يخطف الألباب في بداية الدهشة، إلا أن هذا الانطباع سرعان ما تبخر وأنا أحدق في تفاصيل التصميم وخطوطه العريضة.

ثقافتان مختلفتان ومتناقضتان

بداية أعتقد أن الفنان الذي صمم الشعار، يتمتع بخيال كسيح وحبيس تحت سقف "شؤون القبائل" قبل أن يكون فناناً.. فقد خلط خصوصيات المعطى القبائلي مع كرة القدم كمعطى مدني، واتضح ذلك من خلال ملبس اللاعب في الشعار، فلا هو ملبس قبيلي، ولا هو مدني، وبمعنى أكثر وضوحاً تم خلط خصوصيات البنية القبلية في الملبس، مع خصوصيات اللبس في بيئة مدنية تنطلق بالكرة كثقافة لها خصوصياتها

الثقافية في العالم أجمع. فكيف يتم الجمع بين بيئتين مختلفتين، بل ومتناقضتين؟!

ففي ذلك الملبس القبلي المعروف بـ: (المئزر/ المقطب + السُّماطة + حذاءين مثل الحذاءين التشيكيين)، وهـذه ملابـس لها دلالة معروفة عنـد اليمني وغير اليمني الذي يعيش أو يعـرف اليمن، إنها ملابس ترمـز إلـى الذكورة القبليـة، وإن كانت تنقصها بقية العـدة واللوازم الأخرى التـي تكتمل بها ومعها صورة القبلي الصرف: الجنبية، القات، والكلاشنكوف والبازوكا، وأطقم الحرس، والرعية اليابسون، الغُبـر الدُّبـر)، وليس ثمة ضرورة لأن يكتمل العمل الفني برصد فوتوغرافي لكل هذه العدة القبلية، إذ تكفي الرمزية لاكتمال عمل فني.. لكن في ملصق خليجي ٢٠ لم تكن هناك رمزية، بقدر ما نضح تصميم الشعار بأشكال صرفة وفجة في الذهنية قبل متعينات اللوحة، وأظن أنه حتى لو لم تظهر تلك الأشكال طافحة وطافية في الشعار، فإنها مختزنة في أعماق العقل/ اللاوعي.

ومع اشـتداد الخلط، يتضح أن الفنان لم يميز حدث المناسـبة الرياضية الهامة، عن أي حدث يمكن

أن يواجهه القبيلي، وأخفق في تصميم الشعار الذي يرمز إلى اللاعبين -المنتخب، من خلال ملابس من المفترض أن تكون رياضية كما هو متعارف عليه في العالم، أو على الأقل يكون فيها رمزية للخفة والانطلاق.. فمهندس التصميم لم يفرق بين اللاعب، والفلاح أو أي رجل عادي يتسوق أو يمشي في الشارع، أو ينتظر دباب، أو مولعي في سوق القات. وإذا ما نظرنا إلى مجمل الصورة، وجدناها ترجعنا إلى ذكريات المغتربين اليمنيين الذين يأتون من أمريكا "مريكن"، فتجده مختالاً، يمشي مشية طاووسية، بالمقطب الملون، والقميص، والشراب الملون "أبو تمساح" الذي يمطه إلى تحت الركبة، والجزمة الشيكية اللامعة، وأخيراً السماطة الرشواني، أبو عذابل.

هذه هي الفكرة ببساطة، وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على ذهنيتنا اليمنية المتعصبة، بل والعصبوية بامتياز، والتي تظهر جلياً أننا أصحاب شخصية منغلقة، "متراسية" لا تطلع على فنون وإبداعات الآخرين، وتساهم وسائل الإعلام عندنا في تكريس ثقافة الانغلاق من حيث تدري ولا تدري، عبر إبرازها لهذه الصور المقترنة باليمن، وامتناعها عن إمداد المشاهد والمتلقي بمادة عن ثقافات العالم، وكيف يخلق هذا العالم أدواته الجديدة في كل يوم على مستوى الفن والإبداع والترقي.

فصول السنة تجتمع في ملبس واحد

فنحن -لا أتكلم هنا عن نخبة النخب- لا نمتلك ثقافة الملبس كالملابس التي تخص المناسبات، ولا نميز ملابس الصيف عن ملابس الشتاء، أو الربيع... إلخ، وذلك ما ورد في انطباعات أحد أفراد البعثة العسكرية العراقية عام ١٩٤٠، من أن: "اليمنيين يرتدون ملابس من نسيج واحد طول فصول السنة الأربعة، فهم لا يقتنون ملابس خاصة بالشتاء وأخرى بالربيع أو الخريف وأخرى بالصيف، بل يكتفون بالملابس الربيعية والخريفية فقط لكل فصول السنة".

لكن ما أعرفه أن أجدادنا كانوا يعيشون حياة طبيعية في ظل ظروف الفقر والعزلة، وكان لكل منطقة زيها الخاص بها، تبعاً لتقلبات الطقس والتضاريس والمناخ، وكانوا يعرفون ما هي الأزياء التي تناسب الجبال ولا تتناسب والبحر، وملابس الصحراء التي تختلف عن غيرها من الأقاليم، كما كانوا يدركون بفطرتهم كل المتغيرات، إلى أن اجتاح البلاد الطوفان الكارثي (الدين -سياسي، والدين -قبائلي)، فلخبط الطبيعة والحياة، والثقافة، وكل شيء، بما في ذلك حتى الهواء الذي نتنفسه، وخصوصاً نحن النساء.

لذلك لم يعد من حقنا أن نستغرب من أن هذه الذهنية هي التي صممت شعار خليجي ٢٠، وتعسفت كل شيء، ومسخت هذا الحدث الكروي الهام، وحوّلت المنتخب إلى قبائل/ قبيلي صرف (بدليل تضمين الاستمارات الخاصة بأسماء المشاركين خانة يكتب فيها اسم القبيلة التي ينتمي إليها).

الركلة المئزرية

ملابس الرياضة متعارف عليها في كل العالم: (الشورت، والحذاء والشراب والحذاء الخاص...)، في

ذلك الشعار، ترى، من هو هذا الرياضي.. الذي سيركل/ يشوت الكرة، وهو يلبس المقطب والسماطة (أبو علم وطني)، فكيف سيتأتى لصاحب المعوز/ المئزر أن يخطو خطوة واسعة بسعة الركلة/ الشوتة؟ أم هي نفس المعجزات التي ننفرد بها وحدنا دوناً عن العالمين، بحيث ستجعل هذا القبيلي/ اللاعب يزبط الكرة ويحقق الأهداف وهو ملتحف مئزره وسماطته! -هذه المعجزة الأولى.

المعجزة الثانية.. الرسمة تقول بأن اللاعب في حركة العدو والكرة في قامة صدره، فكيف بمئزر لاعبنا (السحري) ظل منسدلاً ثابتاً، فلم ينقشع أو يرتفع قليلاً أثناء العدو واللعب وركل الكرة. فهذه لعمري خصيصة يمنية ومعجزة يمنية بامتياز، خصوصاً لذوي الذهنيات المئزرية.

لقد نسي فناننا أن يفرق بين الركلة، والنطحة/ المرادعة، فالمناطحة تختلف شكلاً ومضموناً عن ركلات ثقافة كرة القدم.

الهنجمة إحدى سمات اللاعب المئزري

وأنت ترى رسمة اللاعب (منتخبنا الوطني) في الملصق وهو يعدو بالكرة، وبتلك الهنجمة، تحضرك صورة المواطن العادي الذي نراه يتكرر في الحياة اليومية في القاع أو باب اليمن، مواطن حامي، في عجلة من أمره، أكمل وجبة الغداء في مطعم للسلتة، ويستعجل الذهاب إلى مقيل الشيخ، ليتحصل على بقعة في رأس الديوان، أو هرول باندفاع من يعتزم مواجهة عدو، أو "مفارعة" من العيار الثقيل أو حل مشكل أو ثأر أو معركة قبلية، وحرص ألا تفوته فرصة تهجير ونحر الأثوار، وبينما هو مسرع (خاطي) في الطريق رأى أطفالاً صغاراً يلعبون الكرة، فتحولت الكرة صوبه ولم يجد بداً من زبطها زبطة مهنجمة كان لها وقع حسن في مزاج الأطفال.. لكن يظل السؤال كيف لهذا (السمخ) المئزري المهنجم والمتجهم أن يحتفظ بفوطته/ مئزره ثابتاً راسخاً رسوخ الجبال؟

وأظن أن ذلك هو مغزى الهنجمة الطافحة على وجه لاعبنا في الملصق -على أساس شموخ المنتخب- ما هي إلا هنجمة شيخ متمرس ومتمترس في أصول الهنجمة المشيخية.

هل في الشورت أو البنطلون ما ينتقص من قيم الرجولة والفحولة؟

خليجي ٢٠، مناسبة كروية، ما الذي كان سيضير لو ظهرت صورة لاعبنا في الملصق وهو يلبس شورتاً؟ وماذا لو ظهر برأس طليق لا يعتمر "سماطة"، أو يتسمط بالعلم الوطني وغيره من الأثقال والمهلكة على غرار الأثقال التي أثخنت (فتة الأوبريت)؟

إنها نفس الذهنية المئزرية/ الواحدية، التي لخبطت وسممت كل مفاصل حياتنا، في البيت، والحوش، المدرسة، والشارع، وأماكن العمل والمناسبات، واكتسحت ولخبطت كل خصوصيات البلاد، اقتلعت منها ألفباء المدنية التي كنا نتطلع إلى غرسها، وكانت مقدمتها قد بزغت في عدن، إلا أنها صارت اليوم عرضة للاندثار بمعاول القبيلة.

تلك الذهنية المئزرية المهنجمة، أما كانت تدرك أنها تقف أمام مشترك إنساني رائع واستثنائي، وأنها تستضيف بطولة من أهم البطولات التي تستضيفها اليمن في تاريخها المعاصر "خليجي ٢٠"،

وكان حرياً بها أن تنسى أو تتناسى فرض فكر المئزر والموزر (بندقية قديمة)؟

ولأن زمن المعجزات قد انتهى، شئنا ذلك أم أبينا، فقد أصابت اللعنة المئزرية أبو سماطة، وثقالات أخرى منتخبنا الوطني، وخرج من اللعب من أول ركلة (هذا ليس استهانة بمنتخبنا الوطني، الذي قدم ما بوسعه)، لكن ربما لعبوا وهم متخمون ومخنوقون بالوعي المئزري المهنجم والكابس على مساماتهم فـ(حكلل لاعبينا)، ومن الطبيعي أن يتحكولوا، فهذه من سمات المؤتزرين.

نعم هناك فروق..

مرة أخرى، ماذا تريد أن تقول هذه الذهنية القبائلية، وبالأحرى أن تفرضه؟

فمثلما تعسفت قوانين الطبيعة والقوانين الإنسانية، وخرجت بنظريات ثابتة، صارمة (لا تبتدع إلا في اليمن)، من أنه:

• لا فرق بين الدولة والقبيلة، الدولة هي القبيلة، القبيلة هي الدولة (حتى تقبيلت البلاد برمتها وتشرشفت بعده بعتاد الموزر).

• وكذلك فعلت مع نساء اليمن وجرى شرشفتهن بالتكييس الأسود كجزء من التمسك بالدين وبالتقاليد والشرف، وإننا مجتمع محافظ وو... إلخ من هذه المطلقات التي أفرغت من جوهرها، وتحولت إلى شعارات (تجاري – سياسي – ديني)، وبمنطق أيديولوجيا الفرض العسكري يريدون أن يقولوا لنا إن: القبيلي أبو وزرة المعتمر سماطة، المتروس بكل أنواع الثقالات والمتارس والمعدات الحربية، يستطيع أن يلعب، وينافس، ويحقق، وينجح، ويفوز، ويسافر، ويحضر مهرجانات دولية، ومؤتمرات سياسية دولية، ويرقص الصلصة والروك آند رول، وهو مؤتزر بوزرة وبسماطة وعدة القبيلي –ذكرناها سلفاً– المحافظ على تراثه، وتراث أجداده الأقيال الذين شيدوا الحضارات... الخ، وبذا فإنه لا يتشبه بأردية النصارى واليهود والغرب الكافر.

الفن حرية.. وكذلك اللعب

الفنان لا بد أن يكون حراً، أن يقرأ ويشاهد ويرسم، أن يمتلك الثقافة، وفي الناصية الأخرى يملك القدرة على معرفة تجارب الآخرين، ليرسم بذهنية مفتوحة، متحرراً من كل المسبقات، ولا ينصت إلى نظريات وإرشادات خبراء الفنون (وما أكثرهم) في مقايل الوزارات (الدسمة).. فمسبقات الفنان هي الريشة، الألوان، والخيال المنفتح والمبدع، وحضور اللحظة الفنية.. فإن غاب أحد هذه الأسس فإنه حتماً يتحول إلى أي شيء آخر تماماً، لكن لن يكون فناناً.

وإلا كيف تشوفوا؟؟؟

● «النداء»، العدد ٢٥٧، الاثنين ١٣ ديسمبر ٢٠١٠

المحتوى

أروى عبده عثمان: أيقونة الحرية وذاكرة اليمن الحية ٣

للمرأة الكويتية.. صباح البرتقال ١٩
«كتن» للاستقواء على الداخل ٢٢
دعوة إلى القفز... ..... ٢٥
إرادة الحياة.. هي النصر
ماذا تقول هند، مي، ومريم عن الحرب؟ ٢٨
جنازة المرأة من الباب الخلفي للرئاسة ٣١
ماذا لو بكت الرجال؟! ٣٥
"القشعة" التي قصفت ظهر الزغير ٣٨
سأخونك أبي.. سينمائياً ٤١
(١) الفن قبل التعليم.. ..... ٤٥
(٢) الزي المدرسي.. لون العسكر والحِداد ٤٨
(٣) تحية الألم: الله - الوطن - الثورة - الوحدة ٥٢
تجريم.. لحظة حب ٥٥
وداعاً وريقة الحناء
سؤال المرأة في المحكي الشعبي (١) ٥٩
وداعاً وريقة الحناء
سؤال المرأة في المحكي الشعبي (٢) ٦٤
يا خطباء المساجد: ارفعوا فتواكم عنا ٧٣
وداعاً وريقة الحناء
سؤال المرأة في المحكي الشعبي (٣) ٧٥

٨ مارس.. وطاقية الإخفاء ٨٤
«قل لهم يا طير»: الحكاية.. وطن وحياة ٨٨
وداعاً وريقة الحناء
سؤال المرأة في المحكي الشعبي (الأخيرة) ٩١
صباح الخير يا رازح ٩٩
وقيص الوحدة.. وقيص التكفير ١١١
ماذا لو أصبح ضريح الجندي المجهول معلوماً؟ ١١٤
ترويج سياحي.. أم تمريج سياحي! ١١٨
في المخيلة الدموية الجامعة..! ١٢١
ليلة سقوط رأس «منى» ١٢٤
المثقف: ضمير "البُجمة" ١٢٧
هوية "الحيد" ١٣٠
رد الاعتبار لحصة الرياضة في مدارس البنات ١٣٣
لا وجه يطل من الشرفة ١٣٧
الفاشست الصغار.. أركولوجيا «الجعشنة» ١٤٦
معنى أن تكون "قبيلي عَسر"
من "إدكمه" يعرفك.. إلى "جَرملِه" يعرفك ١٥٥
بيروت.. وجُليد أبو حمار ١٦١
وطن ما يرد حيا - ميتا
أسماؤنا بين الصراع السياسي والديني
محرقة الأسماء ١٦٦
الموت القادم من الفضيلة ١٧١

أروى عبده عثمان: أيقونة الحرية وذاكرة اليمن الحية

البلاد التي يخيفها ضحك أبنائها ١٧٤
الفاحشة.. لا تأتي من البحر يا جني ١٧٧
التوق إلى السلام في صعدة ١٨١
التوق إلى السلام في صعدة ١٨٣
سؤال المشاقر؟ ١٨٤
في يوم التراث العالمي ١٨ أبريل: ألا يتحول التنوع إلى أيديولوجيا الصوت الواحد؟
قراءة في أحوال تراث اليمن ١٨٧
لمع البروق.. في حيفان والأعروق
لماذا اكتفينا بـ"الغزوزة" بدلاً عن النور؟ ١٩٤
من مُخيلة المئزر الجمعية:
الذهنية القبلية في الصميم من تصميم شعار "خليجي ٢٠" ٢٠٠